كلاسيكيات أثر Athar Classics

مكتبة بغداد
twitter@baghdad_library

جون فانتي

اسأل الغبار

ترجمة أماني لازار

أثر

الطبعة الأولى: 2015/1436

ردمك: 978-9938-833-44-7

أثر

المملكة العربية السعودية- الدمام

تلفون : 00966505774560

الموقع الالكتروني : www.darathar.net

Email: info@darathar.net

يمنع نسـخ أو استعمال أي جزء من هذا االكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسـجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

twitter @baghdad_library

جون فانتي

اسـأل الغبـار

روايـة

تقديم

تشارلز بوكوفسكي

تـرجمة

أماني لازار

أثر

twitter @baghdad_library

إلى خديجة عمَّاري

أماني

twitter @baghdad_library

كنـت في مقتبل العمـر، أتضوَّر جوعاً، أعاقر الخمر وأحـاول أن أكون كاتباً. جلّ قراءاتي كانت في المكتبة العامة في وسط مدينة لوس أنجلس، كل ما قرأته لم يكن له صلة بي أو بالشوارع أو بالناس الذين أعرفهم. بدا كما لو أن الجميع يتلاعبـون بالكلـمات، إذ إن الكتّـاب الذيـن لا تكاد كتاباتهـم تنبي عن شيء إطلاقاً عُدّوا كتاباً رائعين. كانت كتاباتهم مزيجاً من براعة وحرفية وأسلوب، كانـت مطالعة وفهماً واسـتيعاباً ثم يُسـلّم الكتاب. كان ابتداعـاً مريحاً، ثقافة عالمية زلقة جداً ومتأنية. كان على المرء العودة إلى الكتّاب الروس من عهد ما قبل الثورة ليجد أي مقامرة أو شغف.

ثمـة اسـتثناءات لكنها قليلـة وسرعان ما تنتهـي من قراءتها، وأنـت ما تزال تحدق بعدد كبير من صفوف الكتب المملة إلى أبعد حد، يمكن القول ببساطة إن الكتب المعاصرة لم تكن جيدة جداً بكل مميزاتها مقارنة مع القرون الماضية. سـحبت الكتاب تلـو الآخر من الرفـوف. لمَ لا يقول أحد شيئاً؟ لم لا يصرخ أحد؟ سـعيت إلى غرف أخرى في المكتبة، وجدت قسـم الدين أشـبه بمستنقع كبير تماماً. دخلت قسـم الفلسـفة فوجدت ألمانيين اثنين أبهجاني فترة، وانتهى الأمر. جربت قسم الرياضيات لكن علم الرياضيات المتقدم كان شبيهاً بقسم الدين، لذا أفلت مني في الحال. بدا أن ما أحتاجه غير موجود في أي مكان.

جربـت قسـم الجيولوجيا ووجدتهـا طريفة لكن في النهايـة لم أواظب عليها، وجـدت بعض الكتب عـن الجراحة وأعجبـت بها، كانـت الكلمات جديدة والرسـومات رائعة ولا سـيّما العمليـة الجراحية الخاصة بمسـاريق الكولون التي أعجبت بها وحفظتها، تركت قسـم الجراحة، وعدت إلى القاعة الكبيرة مـع الروائيين وكتّـاب القصة القصـيرة. (عندما كنت أملك كميـة كافية من النبيذ الرخيص لم أكن أذهب قطّ إلى المكتبة، كانت المكتبة مكاناً جيداً تذهب إليه عندما لا يكون لديك شيئاً تشربه أو تأكله، أو عندما تكون مؤجرة البيت تبحث عنك وعن نقود الإيجار المتأخرة. يمكنك في المكتبة استعمال المرحاض عـلى الأقل) رأيت عدداً لا بأس به من المتبطلين الآخرين هناك، أغلبهم نائم

علـى أغلفة كتبـه. واصلت التجـوال في القاعة الكبيرة، أسـحب الكتب عن الرفوف، وأقرأ بعض الأسطر والصفحات ثم أعيدها.

في أحـد الأيام سـحبت كتاباً وفتحته، وقفت لحظة أقرأ ثـم حملته واتجهت به إلى الطاولة كمن يجد ذهباً في مكبّ نفايات المدينة. تدحرجت السـطور بيسر عـبر الصفحـة متدفقة متتابعة، وطاقة كل منها لا تقـل عن طاقة الآخر، منح تركيب كل سـطر منها الصفحة شـكلاً وشـعوراً بشيء منحوت فيها. ها هنا أخـيراً رجل لم يخشَ من العواطف، الألم والفكاهة متمازجان ببسـاطة رائعة، أما افتتاحيته فكانت معجزة هائلة ووحشية بالنسبة إليّ.

كان لـدي بطاقة مكتبة، أخذت الكتاب معي، في غرفتي صعدت إلى سريري وقرأتـه، أدركـت قبل إنهائه بوقـت طويل أن لهـذا الرجل طريقـة متميزة في الكتابـة. كان اسـم الكتاب «اسـأل الغبـار» للكاتب «جون فانتي». اسـتمر تأثـيره في كتاباتي مدى الحيـاة. انتهيت من قراءة «اسـأل الغبار» وبحثت عن كتـب أخـرى لفانتي في المكتبة، وجدت اثنين: «داجـو الأحمر» و»انتظر حتى يـأتي الربيـع يا بانديني». كان لهما الأسـلوب نفسـه، فهما مكتوبـان عن ومن الصميم والقلب.

كان لفانتـي أثـر هائل فيّ، بعد قراءة هذه الكتب بوقت قصير كنت أعيش مع امرأة سـكيرة كانت أسوأ مني، حدث بيننا بعض المشاجرات العنيفة، وغالباً ما كنت أصرخ في وجهها:

« لا تناديني بابن الساقطة! أنا بانديني، آرتورو بانديني!»

كان فانتي إلهي وأعرف أن الآلهة يجب أن تترك وشأنها، لا يطرق المرء بابهم. ومع ذلك رغبت في أن أحزر أين كان يقيم في منطقة «آنجل فلايت»، وتخيلت أنه ربما ما يزال يعيش فيها. قصدتها بشكل شبه يومي ورحت أفكر، هل تلك هي النافذة التي حَبت كاميلا من خلالها؟ وهل ذلك باب الفندق؟ هل ذلك هو الرواق؟ لم أعرف قطّ.

بعد تسـعة وثلاثين عاماً أعيد قراءة اسـأل الغبار، أقصد أنني أعدت قراءتها

twitter @baghdad_library

هذه السـنة وما تزال صامدة، كما هي أعمال فانتي الأخرى، لكن هذه الرواية هـي المفضلـة لدي، لأنهـا كانت اكتشـافي الأول للسـحر. ثمـة كتب أخرى إلى جانـب «داجـو الأحمر» و»انتظـر حتى يأتي الربيع يـا بانديني» هي «مفعم بالحياة» و «أخوَّة العنب». حالياً يعمل فانتي على رواية «حلم بنكر هيل».

التقيـت مؤخراً الكاتب فانتي هذه السـنة (1979). ما يزال هناك المزيد عن قصة جون، إنها قصة عن حظ ومصير مريعين وعن شـجاعة نادرة وطبيعية. ستُروى يوماً ما لكنني أشعر بأنه لم يرغب في أن أفصح عنها هنا، لكن دعني أقول إنَّ كلماته وأسلوبه متشابهان في القوة والجودة والدفء.

هذا يكفي. الآن الكتاب ملك لكم.

تشارلز بوكوفسكي.

twitter @baghdad_library

الفصل الأول

ذات ليلة كنت جالساً على سرير غرفة فندق في بنكر هيل[1] وسط لوس أنجلس. كانت ليلة مهمة في حياتي، إذ كان يجب عليَّ أن أحزم أمري بخصوص الفندق، فإما أن أدفع ما هو مترتب عليَّ أو أن أغادر، كان هذا ما تضمنته الملحوظة التي وضعتها صاحبة الفندق تحت الباب. مشكلة كبيرة تستلزم عناية بالغة، حللتها بإطفاء المصابيح والذهاب إلى النوم. نهضت في الصباح، قررت القيام بالمزيد من التمرينات الرياضية، وبدأت في الحال. نفذت عدداً من تمرينات الانحناء، بعدئذٍ نظفت أسناني، ذقت طعم الدم، رأيت لوناً زهرياً على الفرشاة، وتذكرت الإعلانات، قررت الخروج لتناول بعض القهوة.

ذهبت إلى المطعم الذي أرتاده دائماً، جلست على كرسي بلا مسند مقابل المنضدة الطويلة وطلبت قهوة. كان مذاقها شبيهاً بمذاق القهوة إلى حد بعيد، لكنها لم تكن تستحق النيكل[2] الذي دفعته ثمناً لها. دخنت سيجارتين أثناء جلوسي هناك، قرأت نتائج مباريات الفرق الأمريكية، تفاديت مرتاباً نتائج مباريات الفريق الوطني، ولاحظت باستحسان أن جو ديماجيو[3] ما يزال يحظى بثقة الإيطاليين، فهو يواصل قيادة الفريق في تسديد الضربات، هداف عظيم ذاك الـ «ديماجيو».

خرجت من المطعم، وقفت قبالة رامي بيسبول وهمي، وسددت بعنف ضربة

---

(1) Bunker Hill: حي من أحياء لوس أنجلس.

(2) يساوي ربع دولار.

(3) جوزيف بول «جو» ديماجيو (1914-1999): مدافع رئيس في دوري البيسبول الأمريكي.

طويلة اجتازت السياج. نزلت الشارع المؤدي إلى منطقة «أنجلز فلايت»[1]، أفكر بما سأفعله يومئذٍ، لكن لم يكن هناك شيء، فقررت أن أتجول في البلدة. سرت في شارع «أوليف» ماراً بمجمع سكني أصفر اللون قذر، ما يزال رطباً كورقة نشّاف من ضباب الليلة السابقة، فكرت بصديقيَّ إيثي وكارل اللذين كانا من «ديترويت» ويعيشان فيها، وتذكرت تلك الليلة عندما ضرب كارل إيثي لأنها حُبلى، وهو لا يرغب في الإنجاب. لكنهما أنجبا الطفل وانتهى الأمر عند هذا الحد. كما تذكرت ما يوجد داخل تلك الشقة، حيث تفوح رائحة الفئران والغبار، والعجائز اللواتي كنَّ يجلسن في الرواق في الآصال الحارة، والعجوز ذات السيقان الجميلة. ثم كان هناك عامل المصعد، رجل مكسور من «ميلووكي»، كان يبدو ساخراً في كل مرة تنادي فيها على رقم طابقك، كما لو أنك مغفل باختيارك ذلك الطابق بعينه، كان لديه دائماً صينية من الشطائر ونسخة من مجلة رخيصة.

نزلت التلة عند شارع أوليف، ماراً بمنازل خشبية مريعة تفوح بقصص القتل، تذكرت لدى نزولي الشارع إلى قاعة الحفلات الموسيقية، كيف كنت أذهب إلى هناك برفقة هيلين للاستماع إلى فرقة إنشاد «الدون كوزاك»، وكيف شعرت بالملل وتشاجرنا لهذا السبب، وتذكرت الفستان الأبيض الذي كانت ترتديه هيلين آنذاك، وكيف جعلني أغني من سوءتي عندما لمسته. يا لتلك الهيلين! لكن ليس هنا.

كنت متجهاً نحو الشارع الخامس وشارع أوليف، حيث تلوك سيارات الشارع الكبيرة أذنيك بضجيجها، ورائحة البنزين جعلت منظر أشجار النخيل يبدو حزيناً، وما يزال الطَوار الأسود مبللاً من ضباب الليلة السابقة. كنت سائراً أمام فندق بالتيمور على امتداد صف سيارات الأجرة الصفراء، وجميع سائقي السيارات نائمون ما عدا ذلك الأقرب إلى الباب الرئيس، عجبت من الكم الهائل من المعلومات التي يملكها هؤلاء الرفاق، وتذكرت

(1) حيث يوجد سكتين من السكك الحديدية المعلقة واحدة تدعى سيناء والأخرى جبل الزيتون.

twitter @baghdad_library

عندمـا كنا، أنـا وروس، نحصل عـلى العنوان من أحدهم، وكيـف نظر إلينا شزراً نظرة داعرة وأخذنا إلى شارع «تمبل» دون كل الأماكن، والذي لم نرَ من معالمـه إلا معلمين قبيحـين للغاية، أكمل روس طريقه، جلسـت في الردهة، شغلت الفونوغراف، وكنت مذعوراً ووحيداً.

كنت أمر ببواب فندق بالتيمور، كرهته في الحال، بضفائره الصفر وطوله الذي يبلغ سـتة أقدام وكل تلك المهابة، في تلك الأثناء توقفت سـيارة سـوداء عند حافـة الطريق وخـرج منها رجل يبدو غنياً ثم ترجلت امـرأة جميلة تضع فراء ثعلـب فضي، كانت مثل أغنية وهي تعبر الرصيف وتدخل الأبواب الدوَّارة، وفكـرت أوه يـا فتى ليـت لي القليل فقط من ذلك، يـوم وليلة فقط من ذلك، وكانت حلماً، تابعتُ المسير وعطرها ما يزال يعبق في هواء الصباح الرطب.

مـضى وقت طويـل وأنا واقـف أمام متجر لبيـع الغلاوين، نظرت، تلاشـى العالم كله باسـتثناء تلك الواجهة، وقفت ودخنتهـا جميعاً، تخيلت نفسي كاتباً عظيماً مع الشـجيرة الإيطالية الأنيقة تلك، أترجل من سـيارة سـوداء كبيرة، وكانـت هنـاك أيضاً، متكـبرة عليَّ كالجحيم، أقصد السـيدة في فـراء الثعلب الفضي. سـجلنا ثم تناولنا شرابـاً ورقصنا فترة، وتناولنـا شراباً آخر وألقيت بضعـة أبيات بالسنسـكريتية، وكان العالم بالغ الروعـة، لأن امرأة جميلة جداً كانت تحدق بي كل دقيقتين، أنا الكاتب العظيم، وقعت بخط يدي على قائمة طعامها في حين كانت فتاة فراء الثعلب الفضي تشعر بغيرة شديدة.

لوس أنجلس، أعطني بعضاً منك! لوس أنجلس تعالي إليَّ كما آتيك، قدماي على شـوارعك، أنت مدينة جميلة، أحبك كثـيراً، أنت زهرة حزينة في الرمل، أنت بلدة جميلة.

اليـوم ويـوم آخر واليوم السـابق، والمكتبة مـع الفتية في الرفـوف، دريسر[1] الكبـير، منكين[2] الكبـير، كل الفتية هنـاك، ذهبت لأراهـم، مرحباً دريسر،

(1) تيودور هرمان آلبرت دريسر (1871-1945): روائي أمريكي.

(2) هنري لويس منكن (1880-1956): صحفي أمريكي، كاتب مقالات ومحرر.

مرحباً منكين، مرحباً، مرحباً، هناك مكان لي أيضاً، يبدأ بحرف الباء، على رف حرف الباء، آرتورو بانديني، أفسح طريقاً لآرتورو بانديني، شقاً لكتابه، جلست إلى الطاولة ونظرت إلى المكان حيث يجب أن يكون كتابي، تماماً هناك بالقرب من آرنولد بينيت[1]، ليس الشيء الكثير ذلك الـ«آرنولد بينيت»، لكن سأكون هناك من قبيل المساندة لكتب رف حرف الباء، آرتورو بانديني الكبير أحد الفتية، إلى أن جاءت فتاة، فاح شذا عطرها في غرفة الأدب القصصي مع طقطقة كعب عالٍ لكسر رتابة شهرتي. يوم احتفال، حلم احتفال!

لكن مالكة البيت الشيباء استمرت بكتابة تلك المكاتيب، كانت من «بريدجبورت»، ولاية» كونيكتيكت»، مات زوجها وكانت وحيدة تماماً في العالم ولم تثق بأحد، لم تستطع تحمل تبعات ذلك، كما أخبرتني بأن عليَّ أن أدفع. كان المبلغ يتنامى مثل الدّين القومي، كان عليَّ أن أدفع أو أغادر، حتى آخر سنت-أجرة خمسة أسابيع متأخرة، عشرين دولاراً، وإذا لم أدفع فسوف تحتجز صناديق أمتعتي، لكن لم يكن لدي أي صناديق، لا أملك سوى حقيبة وكانت من ورق مقوى دون رباط، لأن الرباط كان حول بطني يمسك ببنطالي، ولو أنه لم يكن ذا نفع كبير، لأنه لم يبق الكثير من بنطالي.

قلت لها:" تسلمت للتوّ رسالة من وكيلي في نيويورك، أخبرني فيها إنه باع قصة واحدة أخرى، لم يذكر أين لكنه يقول بأنه قد باع واحدة، لذا لا تقلقي يا سيدة هارجريفز، لا تغضبي، سيصلني المال في غضون يوم تقريباً."

لكنها لم تصدق كاذباً مثلي. في الحقيقة لم يكن كذباً، بل أمنية، ليس كذباً وربما لم تكن أمنية، ربما كانت حقيقة، الطريقة الوحيدة لأعرف هي مراقبة ساعي البريد عن كثب، وتفحص البريد وهو يضعه على المكتب في الرواق، وسؤاله بصراحة إذا ما كان لديه أي شيء لبانديني. لكن بعد ستة أشهر في ذلك

(1) اينوك آرنولد بينيت (1867-1931): كاتب وروائي إنجليزي، عمل في مجالات أخرى كالصحافة والدعاية والسينما.

twitter @baghdad_library

الفندق لم يكن السؤال ضرورياً. دائماً عندما يراني قادماً يومئ رأسه بنعم أو لا قبل أن أسأل: لا، ثلاثة ملايين مرة، ونعم، مرة واحدة.

في أحد الأيام وصلتني رسالة جميلة. أوه، تسلمت رسائل عدة، لكن هذه كانت الرسالة الجميلة الوحيدة، وصلتني صباحاً (كانت حول قصة ضحك الجرو) أخبرني بأنه قرأ القصة وحازت إعجابه، قال، سيد بانديني، إذا كنت قد قابلت في حياتي عبقرياً، فهو أنت. كان اسمه ليوناردو، كان ناقداً إيطالياً كبيراً، لكنه لم يكن معروفاً بوصفه ناقداً، كان مجرد رجل من غرب فرجينيا، عندما وصلت رسالتي إليه كان قد مات فأعادت أخته الرسالة. وكتبت لي رسالة جميلة أيضاً، كانت ناقدة جيدة جداً، تخبرني فيها أن ليوناردو مات إثر إصابته بداء السل ولكنه كان سعيداً حتى النهاية، ومن بين الأشياء الأخيرة التي فعلها كان الجلوس في السرير والكتابة إليّ عن قصة "ضحك الجرو": حلم نابع من الحياة، لكنه بالغ الأهمية، ليوناردو، المتوفى الآن، هو قديس في السماء، لا تقل قيمته عن أي رسول من الرسل الاثني عشر[1].

قرأ نزلاء الفندق جميعهم قصة "ضحك الجرو": قصة تجعلك تموت وأنت ممسك بالصفحة، ولا تدور أحداثها عن كلب، وأيضاً: هي قصة ذكية مكتوبة بلغة شعرية، والمحرر العظيم ج. س. هاكموث الذي وقع عليها باسمه بخط صيني أرسل إليَّ رسالة قال فيها: قصة عظيمة وأنا فخور بطباعتها. بعد قراءة السيدة هارجريفز القصة صرت في نظرها رجلاً مختلفاً، وبذلك استطعت البقاء في الفندق، غير مجبر على الخروج في البرد، لا أخرج إلا عندما يكون الجو حاراً، كل ما حصل كان بفضل قصة " ضحك الجرو".

السيدة جرينجر نزيلة الغرفة رقم 345، مسيحية علمية[2] (لها وركان رائعان،

(1) المقصود بهم تلاميذ السيد المسيح.

(2) وهي مجموعة من المعتقدات والممارسات من الحركات الدينية الجديدة، تم تطويرها في القرن التاسع عشر، في نيو إنجلاند، على يد ماري بيكر ايدي (1821-1910) التي ناقشت في كتابها (العلم والصحة) أن المرض هو وهم يمكن الشفاء منه بالصلاة وحدها.

لكنها مسـنة) من "باتل كريك"، ولاية "ميشـيغن"، كانت جالسة في الرواق تنتظـر المـوت، أعادتها قصة "ضحـك الجـرو" إلى الأرض، كانت النظرة في عينيهـا تنمُّ عن استحسـان لي وللقصـة، وكنت آمل أن تسـأل عن أوضاعي المالية، وكيف أتدبر أمري، ومن ثم فكرت أن أطلب منها أن تقرضني خمسة دولارات، لكنني لم أفعل وابتعدت أفرقع بأصابعي مشمئزاً.

كان اسم الفندق آلتا لوما. وهو مبني إلى جانب التلة على قمة بنكر هيل أمام منحدر التلة، لذا فقد كانت الأرضية الرئيسـة على مسـتوى الشارع والطابق العـاشر كان أدنـى بعشرة طوابق. فإذا كنت في الغرفة 862 فسـوف تسـتقل المصعـد وتنزل ثمانية طوابق، أمـا إذا أردت أن تنزل إلى غرفة المبادلات فإنك لا تنزل بل تصعد طابقاً واحداً إلى العليَّة فوق الطابق الرئيس.

أوه، يا للفتاة المكسيكية! كنت أفكر بها طوال الوقت، لم يكن لدي فتاة، رغم أنهن موجودات بكثرة في الشـوارع والسـاحة والحي الصينـي، وكعادتي كنّ جميعهن ملكاً لي، وقد تحقق ذلك، ففي أحد الأيام وصلني شيك مصرفي، وفي طريقي مررت بفتيات الخدمة في السـوق المركزي الكبير، كنّ أشـبه بأميرات الأزتيك والمايا، كما ذهبت أيضاً إلى القداس في كنيسة "سيدتنا" للنظر إليهن. كان سلوكاً مدنساً للمقدسات لكنه كان أفضل من عدم الذهاب إلى القداس بالمطلق، وعندما كتبت إلى أمي التي تعيش في ولاية كولورادو أخبرتها بذلك، أمـي العزيـزة: ذهبت إلى القـداس يوم الأحد المـاضي، وحاولت الاصطدام عمـداً بالأمـيرات في السـوق المركزي الكبـير لأمنح نفسي فرصـة التحدث إليهن، ابتسمت لهن وقلت عذراً.

تسـعد تلك الفتيات الجميلات كثيراً عندما تتصرف معهنّ كسيد محترم، تفعل كل ذلـك فقط لتمسـهنّ وتحمل الذكرى إلى غرفتك، حيـث يتجمع الغبار على آلتـي الكاتبة ويجلس الفأر بيدرو في فجوتها يراقبني بعينيه السـوداوين وأنا بين الحلـم واليقظة. الفأر بيدرو، فـأر جيد لكنه لم يدجن قطّ، فهو يرفض أن يكون أليفـاً أو مروّضـاً. رأيته أول مـرة عندما دخلت إلى غرفتـي، كان ذلك في زهوة

twitter @baghdad_library

أيامي، كانت قصة "ضحك الجرو" قد نشرت في عدد آب الصادر في ذلك الحين. كان هذا منذ خمسة أشهر، عندما كنت أذهب بالحافلة من كولورادو إلى البلدة وفي جيبي مئة وخمسون دولاراً وخطط كبيرة في رأسي. كان لدي فلسفة في تلك الأيام، كنت عاشقاً للإنسان والحيوان على حد سواء، ولم يكن بيدرو مستثنى من ذلك. دعا بيدرو كل أصدقائه إلى الغرفة التي احتشدت بهم وبسبب غلاء ثمن الجبن أطعمتهم خبزاً لكنهم لم يحبوه فذهبوا جميعهم إلى مكان آخر إلا بيدرو الزاهد الذي كان مسروراً بأكل صفحات من العهد القديم.

آه، ذلك اليوم الأول! فتحت السيدة هارجريفز باب غرفتي، كان يوجد فيها سجادة حمراء على الأرض، وصور للريف الإنجليزي على الجدران، وحمام مجاور. كانت الغرفة 678 في الطابق السادس عالياً قرب واجهة التلة، لذا فقد كانت نافذتي على مستوى سفح التلة الأخضر ولم يكن هناك حاجة إلى المفتاح، لأن النافذة كانت دوماً مفتوحة. رأيت من النافذة نخلتي الأولى على بعد ستة أقدام، وبالتأكيد فكرت بأحد الشعانين ومصر وكليوباترا، لكن أغصان النخلة كانت ضاربة إلى السواد، مصبوغة بأول أوكسيد الكربون الآتي من نفق الشارع الثالث، جذعها المتقشر خنقه الغبار والرمل اللذان يهبان من صحاري سانتا آنا وموهافي.

كنت أرسل الرسائل إلى موطني في كولورادو، أمي العزيزة، ثمة أشياء تثير الإعجاب حكماً. تناولت الغداء مع محرر كبير ووقعنا عقداً لعدد من القصص القصيرة، لكنني لم أحاول أن أضجرك بكل هذه التفاصيل، لأنني أعرف أنك لست مهتمة بالكتابة، وأبي كذلك، إنه يمهد لعقد كبير لن يوضع في حيز التنفيذ إلا بعد شهرين، لذا أرسلي إلي عشرة دولارات، أمي عزيزتي، أرسلي لي خمسة، لأن المحرر (كنت سأخبرك عن اسمه لولا أني أعرف أنك غير مهتمة بتلك الأشياء) شرع في إدخالي في أكبر المشاريع لديه.

تسلمت أمي العزيزة، وهاكموث العزيز، المحرر العظيم-معظم بريدي، عملياً كامل بريدي. كانت صورة هاكموث الكبير بتجهمه وشعره المفروق

عند المنتصف، وقلمه الذي يشبه السيف، معلقة على حائطي وموقعة بخط يده الذي بدا صينياً. مرحباً هاكموث، كنت أقول، يا يسوع كيف يمكنك أن تكتب! بعدئذٍ جاءت الأيام العجاف، وتلقى هاكموث رسالة كبيرة مني. يا إلهي! سيد هاكموث، لدي مشكلة، فقدت الحيوية وقدرتي على الكتابة. هل تظن يا سيد هاكموث بأن الطقس هنا علاقة بالأمر؟ أرجوك انصحني. هل تظن يا سيد هاكموث بأني أكتب مثلما يكتب ويليام فوكنر؟ انصحني، أرجوك. هل تظن بأن ممارسة الجنس ستفيدني، لأنه يا سيد هاكموث، لأنه، لأنه، وأخبرت هاكموث كل شيء.

أخبرته عن ارتعاشة الشقراء التي التقيتها في المنتزه. أخبرته القصة كلها، لكنها لم تكن حقيقية، كانت مجرد كذبة مجنونة، لكن كانت شيئاً ما. ربما كتبت لأبقى مواظباً على التواصل مع سيد هاكموث، كان يجيبني دوماً: أوه يا فتى، كان رجلاً رائعاً عظيماً يتجاوب مع مشاكل رجل لديه موهبة. لم يتلق أحد سواي هذا القدر من الرسائل من هاكموث، وكنت أخرجها وأقرؤها مراراً وأقبّلها. سأقف أمام صورته وأنا أبكي ملء عيني قائلاً له: لقد اخترت شخصاً جيداً، شخصاً عظيماً، بانديني، آرتورو بانديني، أنا.

أيام العزم. تلك كانت الكلمة، العزم: آرتورو بانديني أمام آلته الكاتبة مدة يومين متتاليين، عازماً على النجاح، لكنه لم ينجح، أطول حصار من العزم الحثيث والشديد في حياته، ولم يكتب سطراً واحداً، كلمتان فقط كُتبتا مراراً وتكراراً على الصفحة، جيئةً وذهاباً، الكلمات نفسها: شجرة نخيل، معركة حتى الموت بيني وبين شجرة النخيل، وفازت شجرة النخيل: أنظر إليها في الخارج تتأرجح في هواء أزرق، تصدر صوتاً عذباً في الهواء الأزرق. انتصرت شجرة النخيل بعد يومين من القتال، زحفت من النافذة وجلست عند قدم الشجرة. مرَّ الوقت، لحظة أو اثنتين، وكنت غافياً ونملات صغيرات بنيات تمرحن في شعر ساقي.

twitter @baghdad_library

الفصل الثاني

كنت أبلغ من العمر عشرين عاماً آنذاك. يا له من جحيم! كنت أقول: خذ وقتك بانديني، لقد استغرقت نحو عشر سنوات في تأليف كتاب، لذا هوِّن عليك، أخرج وتعرف إلى الحياة، تجوّلْ في الشوارع. إن مشكلتك هي تجاهلك للحياة. لماذا يا رجل؟ يا إلهي! هل تدرك أنك لم تعاشر امرأة قطّ؟ أوه، نعم لقد فعلت كثيراً. أوه، لا لم تفعل. أنت تحتاج إلى امرأة، تحتاج إلى حمَّام، تحتاج إلى انطلاقة عاجلة جيدة، تحتاج إلى النقود. يقولون إنه يكلف دولاراً أو دولارين اثنين في الأماكن الفاخرة، لكن في الساحة يكلف دولاراً واحداً، ممتاز، لكنك لا تملك دولاراً، فضلاً عن كونك جباناً، حتى لو كنت تملك دولاراً فلن تذهب، كانت لديك فرصة لتذهب في دنفر ولم تفعل. لا أيها الجبان، كنت خائفاً وماتزال، وأنت سعيد لأنك لا تملك هذا الدولار.
خائف من امرأة! ها، هذا كاتب عظيم! كيف يمكنه الكتابة عن النساء في حين أنه لم يعاشر امرأة قطّ؟ أوه، أيها الكاذب الحقير، أنت دجّال، لا عجب أنك لا تستطيع الكتابة! لا عجب أنه لا توجد شخصية امرأة في قصة «ضحك الجرو». لا عجب أنها لم تكن قصة حب، أيها الأحمق، أيها التلميذ الصغير القذر، لتكتب قصة حب، عليك أن تعرف الحياة.
وصلت النقود عبر البريد، لم تكن شيكاً مصرفياً من هاكموث العظيم أو قبولاً من مجلة أتلانتيك الشهرية أو من The Saturday Evening Post[1]، بل عشرة دولارات فقط، لكنها ثروة أرسلتها أمي: بعض بوليصات التأمين البخسة الثمن آرتورو، قبلت بها من أجل قيمتها النقدية، وهذه حصَّتك. لكنها كانت عشرة دولارات، نسخة خطية أو خلافها، على الأقل شيء ما قد بيعَ. ضعها في جيبك آرتورو. اغسل وجهك، سرِّح شعرك، ضع شيئاً لتفوح منك رائحة

(1) مجلة نصف شهرية أمريكية.

طيبة وأنت تحدق بالمرآة باحثاً عن الشعر الأشيب، لأنك مهموم آرتورو، وهذا ما يجعل شعرك يشيب. لكن لم يكن يوجد شعراً أبيض، ولا خصلة. نعم، لكن ما بها عينك اليسرى؟ بدت بلون مختلف. احذر آرتورو بانديني، لا تجهد بصرك، تذكر ما حصل لكل من تاريكنجتون[1] وجيمس جويس.
ليس سيئاً الوقوف في الغرفة والتحدث إلى صورة هاكموث، ليس سيئاً يا هاكموث، ستستلم قصة مستمدة مما يحصل لي. كيف أبدو هاكموث؟ هل تتساءل أحياناً يا سيد هاكموث، كيف أبدو؟ هل تتساءل عما إذا كنتُ وسيماً، أنا رفيقك بانديني، كاتب تلك القصة الرائعة "ضحك الجرو"؟
في إحدى الليالي مثل هذه الليلة كنت في دنفر لكن لم أكن قد أصبحت كاتباً بعد، وقفت في غرفة مشابهة لهذه الغرفة، ووضعت هذه الخطط، وكانت كارثة، لأنني كنت طوال الوقت في ذلك المكان أفكر بالعذراء المباركة وبـ"لا تزنِ[2]" والفتاة المجدة تهز رأسها بحزن، وكان عليك أن تكف عن المحاولة، لكن هذا كان منذ وقت طويل والليلة سيتغير.
خرجت من النافذة وصعدت المنحدر نحو قمة بنكر هيل. ليلة من أجل أنفي، وليمة من أجل أنفي، أشمّ النجوم، الزهور، الصحراء، والغبار نائم عند قمة بنكر هيل. ترامت المدينة كشجرة عيد الميلاد، حمراء وخضراء وزرقاء. مرحباً أيتها المنازل القديمة، شطائر الهامبرغر الجميلة تغني في المقاهي الرخيصة. بينج كروسبي[3] يغني أيضاً. ستعاملني بلطف، ليست مثل أولئك الفتيات اللاتي عرفتهن في طفولتي وصباي وأيام جامعتي. لقد أثرن فيَّ الرعب، كنَّ خجلات، نفرن مني، لكنهن لسن مثل أميرتي، لأنها ستفهم. فهي أيضاً كانت محتقَرة.

---

(1) نيوتن بوث تاركينجتون(1869–1946).: روائي أمريكي.

(2) الوصية السابعة من الوصايا العشر التي أعطاها الله للنبي موسى وورد ذكرها في سفري الخروج والتثنية من العهد القديم.

(3) هاري ليليس «بينغ» كروسبي، الابن (1903 1977–): مغنّ وممثل أمريكي.

twitter @baghdad_library

بانديني سائرٌ قدماً، ليس طويلاً بل صلباً وفخوراً بعضلاته، يعتصر قبضته ليستمتع أيّما استمتاع بالبهجة الشديدة التي تمنحها له عضلات ذراعيه، باندينـي شجاع على نحو فـظّ، غير خائف من شيء إلا من المجهول في عالم من العجب العجاب. هل يبعث الميت من جديد؟ تقول الكتب: لا، الليل يصرخ: نعم. أنا في العشرين من عمري، لقد بلغت سن الرشد، على وشك أن أذرع الشوارع القادمة باحثاً عن امرأة. هل روحي ملوثة بالفعل؟ هل عليَّ أن أعود؟ هل من ملاك يراقبني؟ هل تهدئ صلوات أمي مخاوفي؟ هل صلوات أمي تزعجني؟

عشرة دولارات ستكفي لتسديد الإيجار عن أسبوعين ونصف، ستشتري لي ثلاثة أزواج من الأحذية، وبنطالين، أو ألف طابع بريدي لإرسال المواد إلى المحررين، حقاً! لكنك لا تملك أي مواد، موهبتك مشكوك فيها ويرثى لها، ليس لديك أي موهبة، كفَّ عن الكذب على نفسك يوماً بعد يوم، لأنك تعلم أن " ضحك الجرو " ليست بهذه الجودة، ولن تكون إلا كذلك.

هكذا تمشي في بنكر هيل، وتهز قبضتك عالياً نحو السماء، أعرف بم تفكر بانديني. سمعة والدك من قبلك تجلد ظهرك، تثير حنقاً ساخطاً في قحف رأسك، لست أنت الملام: إنها أفكارك عن نفسك وبأنك ولدت فقيراً، ابناً لفلاحين بائسين، مسيَّراً بسبب فقرك، هارباً من مدينة كولورادو، لأنك فقير، آملاً أن تكتب كتاباً لتصبح غنياً، لأن هؤلاء الذين كرهوك هناك في كولورادو لن يكرهوك لو ألفت كتاباً. أنت جبان بانديني، خائن لروحك، كاذب ضعيف أمام مسيحك الدامع، لهذا أنت تكتب، ومن الأفضل لك أن تموت.

نعم، هذا صحيح، لكنني رأيت منازلاً في بيل -اير[1]، فيها مروج جميلة وأحواض سباحة خضراء. لقد رغبت في نساء ثمن أحذيتهن يساوي كل ما ملكته في حياتي. عندما رأيت مضارب جولف في الشارع السادس في نافذة

(1) من أحياء لوس أنجلس الغربية.

متجر سبلادينج[1] شعرت برغبة شديدة في الإمساك بها فقط. لقد تشوّقت إلى ربطة عنق كما يتشوّق رجل تقي إلى طلب المغفرة، كما أعجبت بقبعات عرضت في محلات روبنسون بطريقة تشبه تلك التي يلهث بها النقاد أمام مايكل آنجلو.

خطوت بضع خطوات من آنجل فلايت إلى شارع هيل: خطوت مئة وأربعين خطوة بقبضات مشدودة غير خائف من أحد إلا من عبور نفق الشارع الثالث، رهاب الأماكن المغلقة. وخائف أيضاً من الأماكن المرتفعة والدَّم والزلازل، فيما عدا ذلك هو بكامل الشجاعة باستثناء الموت، والخوف لدرجة الصراخ في الزحام، والخوف من الزائدة الدودية ومشاكل القلب أيضاً، جالس في غرفته ممسكاً بالساعة، يضغط على حبل وريده، يعدّ نبضات قلبه، مصغياً إلى خرير معدته وطنينها. بخلاف ذلك، هو جسور تماماً.

ها هنا فكرة يصحبها المال: هذه هي الخطوات، والمدينة أدناه، والنجوم في مرمى النظر: ثمة صبي يلتقي بفتاة، فكرة ثمينة بتركيبة جديدة، تعيش الفتاة في ذلك المجمع السكني، والصبي متسكع. الصبي هو أنا. الفتاة جائعة وهي غنية من باسادينيا، تكره المال، تركت ملايين باسادينيا قصداً بسبب الملل، سئمت من المال، فتاة جميلة بهية. قصة رائعة تلقي الضوء على صراع مرضي، فالفتاة تعاني من رهاب المال: حبكة فرويدية. يوجد رجل آخر يحبها، هو غني وأنا فقير، أواجه منافساً، أضربه حتى الموت بنباهة لاذعة وأيضاً أضربه بالكلمات. تتأثر الفتاة وتقع في حبي. تعطيني الملايين. أتزوجها مقابل أن تبقى فقيرة، توافق. لكن نهاية سعيدة: تضللني الفتاة بوديعة مالية كبيرة في يوم زواجنا، أشعر بالاستياء وأسامحها لأنني أحبها. فكرة جيدة، يبقى هناك شيء ناقص: قصة من قصص كولير[2]. أمي العزيزة، شكراً على الدولارات العشرة. أعلن وكيلي عن بيع قصة أخرى لمجلة عظيمة في لندن، لكن يبدو أنهم لن يدفعوا إلا

(1) شركة لإنتاج السلع والأدوات الخاصة بالرياضة.

(2) جون هنري كولير (1901:1980): كاتب بريطاني عرف بكتابة القصص القصيرة.

twitter @baghdad_library

بعد النشر، لذا فالمبلغ القليل سيكون مفيداً لمنافع ومآرب متعددة.
ذهبت إلى عرض ساخر، وحصلت على أفضل المقاعد المتاحة مقابل دولار وعشرة سنتات، تماماً تحت الكورس المكون من أربعين عجيزة منهكة: يوماً ما سيكونون جميعهم لي: سأمتلك يختاً وسنذهب إلى بحر الجنوب في جولة بحرية. في أصائل دافئة سيرقصون من أجلي على مركب الشمس. لكن نسائي سيكنَّ جميلات، مختارات من نخبة المجتمع، تتبارين لإقامة الأفراح في حجرتي. حسناً، هذا جيد بالنسبة إلي، هذه تجربة، أنا هنا لسبب، هذه اللحظات تتحول إلى الصفحات، الجانب القبيح من الحياة.
جاءت لولا لينتونز، تنزلق مثل أفعى حريرية وسط شغب الصفير ووقع الأقدام، هي داعرة تنزلق وتنهب جسدي، وأثناء ذلك، آلمتني أسناني من فكي المثبتين وكرهت الخنزير القليل الفهم القذر الذي يحوم حولي، يصرخون مشاركين بحصتهم من الفرح العليل الذي هو فرحي.
إذا باعت أمي البوليصات لا بد أن تكون الأمور قاسية على الرجل الكبير، ولم يكن عليّ الوجود هنا. عندما كنت طفلاً كنت أرى صور لولا لينتونز مصادفة، وكنت كثيراً ما أصبح نافذ الصبر وفترة الصبا تمر ببطء، متشوقاً إلى هذه اللحظة بالذات، وها أنا هنا، ولم أتغير ولا لولا لينتونز كذلك، غير أنني تصورت نفسي غنياً ولكنني فقير.
الشارع الرئيس بعد العرض في منتصف الليل: مصابيح النيون وضوء الضباب، ملهى ليلي رخيص ودور السينما بعروضها المتواصلة طوال الليل. متاجر البضائع المستعملة وقاعات الرقص الفليبينية، المشروبات بثمن خمسة عشر سنتاً، الحفلات المتتالية، لكني رأيتهم جميعاً عدة مرات، صرفت الكثير من نقود كولورادو فيها. تركتني وحيداً كرجل عطشان ممسكاً بكوب، توجهت إلى الحي المكسيكي أشعر بالغثيان دون ألم. هنا كنيسة سيدتنا القديمة جداً، الطوب اسوّد بمرور الزمن. سأدخل لأسباب عاطفية فقط. لم أقرأ لينين، لكنني سمعت مقولته إن الدين أفيون الشعوب. أنا ملحد: لقد

قرأت كتاب "المسيح الدجال[1]" ووجدته عملًا رئيساً. أؤمن بإعادة تقييم الفضائل يا سيدي. الكنيسة يجب أن ترحل، إنها مأوى الأغبياء من السذج والأنذال وكل المشعوذين الدجالين.

سحبت الباب الضخم لأفتحه فصدرت عنه صرخة صغيرة كالبكاء. وفوق المذبح غمغم المصباح الأبدي بلون الدم مضيئاً بظل قرمزي هدوء ما يقارب ألفي عام. كان المكان كالموت، لكنني استطعت تذكر صراخ الأطفال في العمادة أيضاً. سجدت، هذه كانت عادة، ركعت، جلست. أفضل من الركوع، لأن اللسعة الحادة في الركب كانت تلهيني عن الهدوء الفظيع. صليت بالتأكيد صلاة واحدة لأسباب عاطفية. أيها الإله الجليل، أنا آسف لأنني الآن ملحد، لكن هل قرأت نيتشه؟ أه، يا له من كتاب! أيها الإله الجليل، سوف أعاملك بنزاهة في هذا. سأجعل منك موضوعاً. اجعل مني كاتباً عظيماً، وسأعود إلى الكنيسة. ورجاء يا عزيزي الله، أريد معروفاً آخر: اجعل أمي سعيدة. لا أهتم بالرجل الكبير، لديه نبيذه وصحته، لكن أمي مهمومة. آمين.

أغلقت الباب الباكي ووقفت على الدرجات، كان الضباب كحيوان أبيض هائل في كل مكان، والساحة مثل دار القضاء في بلدي، محاطة بالثلج في صمت أبيض. لكن الأصوات جميعها طافت برشاقة وبثقة عبر الرصانة، ثم ظهر الصوت الذي سمعته، صوت طقطقة كعب عال، ظهرت فتاة ترتدي معطفاً قديماً أخضر، وجهها محاط بوشاح أخضر معقود تحت الذقن، وقف باندينى على الدرج.

"مرحباً عزيزي" قالت مبتسمة، كما لو أن باندينى زوجها أو حبيبها. ثم صعدت أولى الدرجات ونظرت إليه.

" ما رأيك يا عزيزي؟ هل ترغب في أن تقضي معي وقتاً طيباً؟"

عاشق مقدام، باندينى مقدام وماجن.

---

(1) كتاب فلسفي من تأليف فريدريك نيتشه نشر عام 1888.

twitter @baghdad_library

قال:" لا، لا شكراً. ليس الليلة."
سارع بالابتعاد، تاركاً الفتاة تتطلع إليه، تقول كلمات لم يسمعها أثناء هروبه، مشى مسافة نصف كتلة سكنية، كان مسروراً، على الأقل سألته وعاملته كرجل. صفر بنغمة تنمّ عن سرور خالص. ابن بلدة عاش تجربة عالمية. كاتب شهير يحكي عن الليل مع امرأة من الشوارع. آرتورو بانديني، الكاتب الشهير، يبوح بتجربة مع مومس من لوس أنجلس. ناقد يشيد بكتاب مكتوب على نحو رائع.
بانديني (عندما أجريت معه مقابلة قبل رحيله إلى السويد): " نصيحتي إلى الكتاب الشباب جميعهم بسيطة جداً. سأحذرهم بألا يتجنبوا أبداً التجارب الجديدة. وأصرّ عليهم أن يعيشوا الحياة في مادتها الخام، ومواجهتها بشجاعة ومقاتلتها بقبضات عارية."
الصحفي:" سيد بانديني، كيف توصلت إلى كتابة هذا الكتاب الذي جعلك تفوز بجائزة نوبل؟"
بانديني: " الكتاب يحكي تجربة حقيقية حدثت لي ذات ليلة في لوس أنجلس، كل كلمة فيه حقيقية. لقد عشت ذلك الكتاب وخبرته."
هذا يكفي، رأيت كل شيء، التفت وعدت نحو الكنيسة. كان الضباب مصمتاً والفتاة قد رحلت. واصلت السير، ربما يمكنني أن ألتقي بها. رأيتها عند الناصية مرة ثانية. كانت واقفة تتحدث إلى رجل مكسيكي طويل. مشيا، عبرا الشارع ودخلا الساحة. تبعتهما. يا إلهي، مكسيكي! نساء مثل تلك يجب أن تضع حدوداً للملونين. كرهت ذلك اللاتيني المدهن. تمشيا تحت خمس شجرات موز في الساحة، تردد وقع قدميهما في الضباب. سمعت صوت ضحكهما، عبرا الشارع ونزلا زقاقاً كان مدخلاً للحي الصيني، أضواء النيون المتلألئة جعلت الضباب قرنفلياً. في السكن المجاور لمطعم "شوب سوي"[1] استدارا وصعدا الدرج. كان الرقص في الطوابق العليا

(1) من الأطباق الصينية.

على قدمٍ وساق، على طول الشارع الصغير كانت سيارات الأجرة الصفراء مركونةً على الجانبين. انحنيت على الصدام الأمامي للسيارة مقابل السكن وانتظرت. أشعلت سيجارة وانتظرت. سأنتظر حتى يتجمد الجحيم، سأنتظر إلى أن يميتني الله بضربة.

مضت نصف ساعة. ثمة أصوات على الدرج. فتح الباب. ظهر المكسيكي. وقف في الضباب، أشعل سيجارة وتثاءب ثم ابتسم مذهولاً، هز أكتافه، وابتعد، ابتلعه الضباب. تقدَّم وابتسم. أيها المدهن المنتن، علام تبتسم؟ أنت تنتمي إلى عرق مهشم ومسحوق، وتبتسم فقط لأنك ذهبت إلى الغرفة مع واحدة من فتياتنا البيضاوات. هل تظن بأنه سيكون لديك فرصة، هل تم قبولي على درجات الكنيسة؟

بعد لحظة تردد صدى كعب على الدرج، وخرجت الفتاة إلى الضباب. الفتاة نفسها بالمعطف الأخضر والوشاح نفسهما. نظرت إلي وقالت مبتسمة:

«مرحباً عزيزي. هل تريد قضاء وقت طيب؟»

تمهلْ الآن بانديني، قلت: « أوه، ربما. وربما لا، على ماذا سأحصل؟»

« تعال وسترى يا عزيزي.»

كفّ عن الضحك آرتورو، كن لطيفاً، قلت:» قد آتي، ومن ثم، قد لا آتي.»

« أوه عزيزي، هيا» العظام النحيلة في وجهها، رائحة النبيذ المز من فمها، الرياء الفظيع لعذوبتها، الجوع للمال في عينيها. بانديني يتحدث: « ما السعر هذه الأيام؟ « أخذت يدي، جرتني نحو الباب بلطف.

« تعال عزيزي، سنتحدث بهذا الشأن في الأعلى.»

قال بانديني:» أنا حقيقة لست مستشاراً، أنا..أنا قادم للتوّ من حفلة محمومة.» السلام عليك يا مريم يا ممتلئة نعمة، أصعد الدرج، لا يمكنني أن أتحمل هذا، يجب عليَّ الخروج منه. فاحت القاعات بروائح الصراصير، يوجد ضوء أصفر في السقف، رغم كل هذا أنت تقدر الجمال إلى حد كبير، الفتاة ممسكة بذراعي، هناك مشكلة ما لديك آرتورو بانديني، أنت كاره للبشر، استنزفت

twitter @baghdad_library

سنين حياتك في العزوبة، كان لا بد أن تكون كاهناً، تحدث إلينا الأب أوليري فيما بعد الظهيرة عن فرح الرفض، ونقود أمي أيضاً، أوه، يا مريم الحبلى بلا دنس، صلي لأجلنا نحن الذين نلجأ إليك–إلى أن نصل إلى قمة الدرج ونسير في الصالة المعتمة المغبرة إلى غرفة في نهايتها، حيث أشعلت النور ودخلنا.
غرفة أصغر من غرفتي، بلا سجاد، بلا لوحات، يوجد سرير وطاولة ومغسلة. خلعت معطفها، كان ترتدي فستاناً أزرق تحته، عارية الساقين. خلعت الوشاح. لم تكن شقراء حقيقية، ثمة شعر أسود نابت عند الجذور. كان أنفها معقوفاً قليلاً. وضع بانديني نفسه على السرير مظهراً عدم الاهتمام، مثل رجل يعرف كيف يجلس على السرير. بانديني: « لديك مكان ظريف هنا.» يا إلهي عليَّ أن أخرج من هنا، هذا رهيب. جلست الفتاة إلى جانبي، وضعت ذراعيها حولي، دفعت نهديها فيّ، قبلتني، ضغطت على أسناني بلسانها البارد. قفزت على قدمي. أوه، فكرْ بسرعة يا عقلي، عقلي العزيز أرجوك أخرجني من هذا ولن يحدث ثانية أبداً. من الآن فصاعداً سأعود إلى كنيستي، بدءاً من هذا اليوم حياتي ستجري كالماء العذب.
استندت الفتاة بظهرها إلى الخلف، يداها خلف رقبتها، ساقاها فوق السرير. سأشم رائحة الليلك في كونكتيكت، لا شك قبل أن أموت، وأرى كنائس شبابي الصغيرة البيضاء الكتومة، مسافات المرج التي قطعتها لأهرب.
قلت: « انظري، أود أن أتحدث إليك.» صالبت ساقيها، تابعتُ:» أنا كاتب أجمع مواداً من أجل كتاب.»
قالت: «أعرف أنك كاتب أو رجل أعمال، أو شيء ما. تبدو روحانياً يا عزيزي.»
« أنا كاتب، أنظري. تعجبينني، لا بأس بك، تعجبيني. لكني أود التحدث إليك أولاً.»
جلست وقالت:» أليس لديك نقود عزيزي؟»
مال! أوه، أخرجت لفة صغيرة سميكة من الدولارات. بالتأكيد لدي نقود، الكثير من النقود، هذا بعض مما في الجيب، المال ليس مشكلة، المال لا يعني

شيئاً لي.
« كم تطلبين؟ »
« دولارين عزيزي. » أعطيتها ثلاثة دولارات، انتزعتها بسهولة، كما لو أنها لم تكن شيئاً، ثم ناولتها إياها، لأن المال ليس هو المشكلة، هناك أماكن أخرى تأتي منها المشاكل، في هذه اللحظة تجلس أمي إلى النافذة ممسكة بمسبحتها، تنتظر عودة الرجل الكبير إلى البيت، لكن هناك مال، هناك مال دوماً.
أخذتْ النقود وزلقتها تحت المخدة. كانت ممتنة وبدت ابتسامتها حينئذٍ مختلفة. رغب الكاتب أن يتحدث إليها: كيف كانت الظروف تلك الأيام؟ لماذا تحبين هذا النوع من الحياة. أوه، هيا عزيزي، دعنا لا نتحدث، دعنا نقوم بالعمل. لا، أود التحدث إليك في أمر مهم، كتاب جديد، مواد. أفعل هذا غالباً. كيف وصلت إلى هذا الحال. أوه، عزيزي، بحق المسيح، هل ستسألني عن ذلك أيضاً؟ لكن المال ليس مشكلة، أقول لك. لكن وقتي ثمين يا عزيزي. ثم هنا زوج آخر من الدولارات. وهذا يعني أنني دفعت خمسة، يا إلهي! خمسة دولارات وأنا لم أخرج بعد! كم أكرهك أيتها القذرة! لكنك أكثر طهراً مني، لأنك لا تملكين عقلاً للبيع، بل هذا اللحم المسكين فقط.
لقد كانت مدهوشة، كان باستطاعتي أن أفعلها بالطريقة التي أريد، حاولت أن تجذبني إليها، لكن لا، لننتظر برهة. أقول لك إنني أريد التحدث إليك، أقول لك المال ليس مشكلة، وهاك ثلاثة إضافية، وهذا يعني ثمانية دولارات، لكن لا يهم. فقط حافظي على هذه الدولارات الثمانية واشتري لنفسك شيئاً ما ظريفاً، ثم طقطقت أصابعي كرجل يتذكر شيئاً ما، شيئاً مهماً، عقداً. قلت: «لقد تذكرت. كم الساعة؟»، كان ذقنها على عنقي يلاطفه، أجابتني: » لا تقلق بشأن الوقت عزيزي. يمكنك البقاء طوال الليل.»
رجل مهم، آه، نعم، الآن تذكرت، يركب ناشري الطائرة إلى بيربانك، عليك أن تختطف سيارة أجرة وتخرج من هناك، عليك أن تسرع. وداعاً، وداعاً، احتفظي بتلك الدولارات، اشتري لنفسك شيئاً ظريفاً، وداعاً،

twitter @baghdad_library

وداعـاً، مسرعاً على الـدرج، مبتعداً بسرعة، الضبـاب المرحب عند الباب في الأسفل، احتفظي بتلك الدولارات، أوه، أيها الضباب الحلو أراك وأنا قادم، أيهـا الهواء النظيف، أنت عالم رائع، أنا قادم إليك، وداعاً، تصرخ من الدرج: سـأراك ثانيـة، أجيبهـا: احتفظي بتلك الدولارات واشـتري لنفسـك شـيئاً ظريفاً. ثمانية دولارات تدفقوا من عيوني. يا يسـوع اقتلني واشـحن جسدي إلى البلاد، اقتلني واجعل من موتي موتاً وثنياً أحمق دون تبرئة من كاهن، دون مسح بالزيت، ثمانية دولارات، ثمانية دولارات....

الفصل الثالث

أيام عجاف وسماوات زرقاء صافية وبحر أزرق تسبح فيه الشمس يوماً بعد يوم. أيام الهموم الكثيرة، ووفرة من البرتقال آكله في السرير، أتناوله على الغداء، أقحمه على العشاء. اثنتا عشرة برتقالة بخمسة سنتات. الشمس مشرقة في السماء، وعصير شمس في معدتي. عندما كنت في المتجر رآني ذلك الياباني المبتسم ذو الوجه الصغير، وتناول كيساً ورقياً. إنه رجل كريم، أعطاني خمس عشرة برتقالة، وأحياناً كان يعطيني عشرين برتقالة مقابل نيكل واحد.
« هل تحب الموز؟» بالتأكيد، فأعطاني موزتين. اختراع سائغ، عصير برتقال وموز. « هل تحب التفاح؟» بالتأكيد، أعطاني بعض التفاح. ها هنا شيء جديد، عصير برتقال وتفاح. « هل تحب الخوخ؟» بالفعل، وحملت الكيس البني إلى غرفتي. اختراع مثير للاهتمام، عصير خوخ وبرتقال. مزقتها أسناني حتى اللب، يتقلب العصير ويئن في قاع معدتي. كان حزيناً جداً هناك. كان هناك الكثير من البكاء، وغيوم صغيرة كئيبة من الغاز قرصت قلبي.
قادتني حالتي إلى آلتي الكاتبة. جلست أمامها، يستحوذ عليَّ الأسى على آرتورو بانديني. تعوم بين الفينة والأخرى فكرة بريئة عبر الغرفة مثل طائر صغير أبيض، لم يكن معادياً، بل رغب في مساعدتي فقط، عزيزي الطائر الصغير. لكن كنت لأنطلق منها، أدقها عبر لوحة المفاتيح الخامدة، لتموت على يدي.
ماذا يمكن أن تكون مشكلتي؟ عندما كنت صبياً كنت أصلي للقديسة تيريزا طلباً لقلم حبر جديد. كانت صلاتي مستجابة، فقد حصلت على قلم حبر جديد. الآن صليت للقديسة تيريزا ثانية، أرجوك أيتها القديسة الحبيبة والحلوة، أعطني فكرة، لكنها هجرتني، كل الآلهة هجروني، ومثل

twitter @baghdad_library

هايزمنز[1] وقفت وحيداً، قبضتاي مطبقتان، ودموع في عيني. كم تمنيت لو أحبني شخص واحد، حتى لو كان برغوثاً أو فأراً، لكن ذلك أيضاً أصبح من الماضي، فالفأر بيدرو هجرني الآن، لأن أفضل ما استطعت تقديمه له كان قشر البرتقال.

فكرت بموطني، بالمعكرونة تسبح في صلصة الطماطم الغنية المغطاة بطبقة سميكة من جبنة البارميزان، بفطائر الليمون التي تصنعها أمي، بلحم الضأن المشوي والخبز الطازج، كنت بائساً جداً، لأنني غرزت أظافري عمداً في لحم ذراعي حتى ظهرت بقعة دم مما منحني عظيم الرضا. كنت أكثر مخلوقات الله بؤساً، مجبراً حتى على تعذيب نفسي. بالتأكيد ليس على هذه الأرض من أسى أعظم من أساي.

لا بد لهاكموث أن يسمع بهذا، هاكموث العظيم، الذي شجع عبقرياً على صفحات مجلته. عزيزي السيد هاكموث، كتبت واصفاً الماضي المجيد، عزيزي هاكموث، صفحة في إثر صفحة، الشمس كرة من النار في الغرب، تختنق ببطء في ركام الضباب الصاعد من الساحل.

كان هناك طرق على بابي، لكنني بقيت هادئاً فربما تكون تلك المرأة قادمة من أجل إيجارها التافه. فُتح الباب وظهر وجه أجرد هزيل ملتح. كان السيد هيلفريك الذي يسكن في الغرفة المجاورة. كان السيد هيلفريك رجلاً ملحداً ومتقاعداً من الجيش، يعيش على معاش التقاعد الضئيل الذي بالكاد يكفيه ثمناً لشرابه، حتى لو اشترى أرخص أنواع الجن في السوق.

كان يرتدي على الدوام برنساً رمادياً دون إزار وأزرار، ورغم أنه تظاهر بالحياء لكنه في الواقع لم يكن يهتم، لذا فقد كان برنسه دوماً مفتوحاً على وسعه لترى الشعر الكثيف والعظام من تحته. للسيد هيلفريك عينان حمراوان، فقد كان ينام عند الأصيل في الوقت الذي تضرب فيه الشمس الجانب الغربي من الفندق، ورأسه خارج النافذة وجسده وساقاه في الداخل.

(1) جوريس كارل هايزمنز: (1848-1907) روائي فرنسي.

كان يدين لي بخمسة عشر سنتاً من يومي الأول في ذلك الفندق، لكن بعد محاولات عقيمة لاسترداده، فقدت الأمل إلى الأبد باستعادة نقودي. هذا أدى إلى نقض للعهد فيما بيننا لذا كنت متفاجئاً عندما ظهر رأسه عند بابي.
نظر شزراً بشكل تكتمي، ضاغطاً إصبعه على شفتيه، وقال لي صَه لأبقى هادئاً رغم أنني لم أقل كلمة. أردته أن يعرف خصومتي، لأذكره بأنني لا أحترم رجلاً يتلكأ عن القيام بواجباته. أغلق الباب بهدوء ومشى على أطراف أصابعه في الغرفة، وبرنسه مفتوح تماماً.
" هل تحب الحليب؟" همس.
أحبه بلا شك، وقلت له ذلك. ثم كشف عن خطته. كان الرجل الذي يقود حِمل الحليب في بنكر هيل صديقه. كل صباح في الساعة الرابعة يركن هذا الرجل شاحنة الحليب خلف الفندق ويصعد الدرج الخلفي إلى غرفة هيلفريك ليشرب الجن، قال:" وأيضاً، إذا كنت تحب الحليب، فكل ما عليك فعله هو أن تمتع نفسك."
هززت رأسي.
" هذا محتقر تماماً هيلفريك" وعجبت للصداقة التي تجمع هيلفريك وعامل الحليب. " إذا كان صديقك، كيف لك أن تسرق الحليب؟ إنه يشرب الجن عندك. لم لا تطلبه منه؟"
قال هيلفريك:" لكنني لا أشرب الحليب، أنا أفعل هذا من أجلك."
بدا الأمر وكأنه محاولة لرد الدين الذي يدين لي به. هززت رأسي.
" لا. شكراً هيلفريك، لا أحب أن أفقد احترامي لنفسي."
هز كتفيه، لف نفسه بالبرنس، وقال: " حسناً يا ولد، كنت أحاول فقط أن أقدم معروفاً."
أكملت رسالتي لهاكموث، بدأت استطعم الحليب في الحال تقريباً. بعد برهة لم أستطع تحمل ذلك. استلقيت على السرير في ظلمة جزئية مستسلماً للغواية. خلال وقت قصير فقدت المقاومة، وطرقت باب هيلفريك. كانت

twitter @baghdad_library

غرفته جنوناً، مجلات غربية (ويسـترن) رخيصـة منتشرة على الأرض، سرير بأغطية متسـخة، الثيـاب مبعثرة في كل مكان، وعلاّقـات الثياب على الجدار فارغة بوضوح مثل سن مكسور في جمجمة. كان هناك صحون على الكراسي وأعقاب سـجائر محشـورة على عتبات النافذة. كانت غرفتـه مثل غرفتي فيما عـدا أنـه كان لديه فـرن غاز صغـير في زاوية ورفـوف للقدور والمقـالي. لقد حصل على سـعر خـاص من مالكة البيت، لذا فقد قـام هو بتنظيف وترتيب سريره بنفسـه، باستثناء ذلك لم يفعل شيئاً. جلس هيلفريك على كرسي هزاز مرتديـاً برنسـه، وزجاجات الجن حول قدميه. كان يـشرب من قنينة في يده. كان يـشرب دومـاً ليلاً نهاراً، لكنه لم يثمل أبـداً قلت له: « لقد غيرت رأيي»، ملأ فمه بالجن، تمضمض بالمشروب، وابتلعه منتشـياً، وقال: « الأمر سهل»، ثم نهض وعبر الغرفة نحو بنطاله المفرود. فكرت للحظة بأنه كان على وشك أن يعيد لي النقود التي استدانها مني، لكنه لم يفعل أكثر من أنه تحسس الجيوب بغموض، ثم عاد خالي الوفاض إلى الكرسي، وقفت هناك وقلت:

« لقد تذكرت، أتساءل إذا ما كنت تستطيع أن تعيد لي النقود التي أقرضتك إياها.»

« لا أملكها» قال.

« هل يمكنك أن تدفع لي جزءاً منها، لنقل عشرة سنتات؟»

هز رأسه.

« نيكل؟»

« أنا مفلس يا ولد.»

جرع جرعة أخرى. كانت زجاجة جديدة ممتلئة تقريباً.

« لا يمكنني إعطاؤك نقوداً يا ولد. لكنني سـأعمل على أن تحصل على كل ما تحتاجه من حليب.» ثم شرح لي، سيصل عامل الحليب حوالي الساعة الرابعة. كان عليَّ أن أبقى مسـتيقظاً لأستمع إلى صوت قرعه، سيبقي هيلفريك عامل الحليب محتجزاً على الأقل عشرين دقيقة، كانت رشوة، ووسائل للتهرب من دفع الدين، لكنني كنت جائعاً.

« لكن عليك أن تدفع ديونك يا هيلفريك، ستكون في مكان سيئ لو كنت أعيرك الاهتمام.»

قال:»سأدفع لك يا ولد، سأدفع لك حتى آخر بنس، فقط حالما أتمكن من ذلك.»

صفقت باب هيلفريك بغضب، عدت إلى غرفتي. لم أتمنّ أن أبدو عديم الشفقة بهذا الشأن، لكن هذا كان شططاً. عرفت أن الجن الذي يشربه يكلفه على الأقل ثلاثين سنتاً للباينت[1] الواحد. بالتأكيد كان باستطاعته أن يتحكم في رغبته بشرب الكحول وقتاً كافياً لتسديد ديونه فقط.

جاء الليل على مضض، جلست إلى النافذة، ألفّ بعض السجائر بتبغ خشن ومربعات من مناديل المرحاض الورقية، كان هذا التبغ نزوة من نزواتي في أوقات أكثر يسراً، اشتريت علبة منه، وكان الغليون مجانياً مرفقاً بالعلبة برباط مطاطي، لكنني أضعته. كان التبغ بالغ الخشونة ونتج عنه دخاناً هزيلاً في ورق السجائر العادي، لكن لكونه ملفوفاً مرتين بورق مناديل المرحاض كان فعالاً ومرصوصاً، فرقع أحياناً باللهب.

حل الليل بطيئاً، أولاً شذاه البارد ثم الظلمة. ترامت المدينة خلف نافذتي كبيرةً، مصابيح الشارع ولمبات النيون الحمراء والزرقاء والخضراء مفعمة بالحياة مثل زهور الليل المضيئة. لم أكن جائعاً، كان هناك الكثير من البرتقال تحت السرير، وذلك الضحك الغامض في حفرة معدتي لم يكن شيئاً أكثر من غيوم كبيرة من دخان التبغ المخلف هناك، محاولاً باهتياج أن يجد طريقاً للخروج.

أخيراً، قد حدث: كنت على وشك أن أصبح لصاً، سارق حليب رخيص. ها هنا كان لحمك في المقلاة العبقرية، كاتبك ذو القصة الوحيدة لصّ. أمسكت رأسي بيدي وأرجحته جيئة وذهاباً. يا أم يسوع! عناوين في الصحف، ألقي القبض على كاتب واعد وهو يسرق الحليب، المحسوب الشهير على ج.س. هاكموث تم جره إلى المحكمة في قضية سرقة صغيرة، يحتشد الصحفيون من حولي، تفرقع الفلاشات، أعطنا تصريحاً يا بانديني، كيف حدث؟ حسناً

(1) وحدة لقياس السوائل وتساوي 0.473 من الليتر في أميركا.

twitter @baghdad_library

يـا رفاق، كان على الشـكل التـالي: كما ترون، لدي حقيقـة الكثير من النقود، مبيعـات كبيرة للمخطوطات وكل ذلـك، لكنني كنت أكتب قصة عن رجل يـسرق ربع جالون من الحليب، وأردت أن أكتـب من خلال التجربة، وهذا مـا حصل يـا رفاق. انتظروا القصة في البريد، أنا أسـمّيها «سـارق الحليب». اتركوا لي عناوينكم وسأرسل لكم النسخ مجاناً.

لكنـه لـن يحدث على هـذا النحو، لأنـه ما من أحـد يعرف آرتـورو باندينى، وسيحكم عليك بالسجن ستة أشهر، سيأخذونك إلى سجن المدينة بوصفك مجرمـاً، ومـاذا ستقول أمك؟ وماذا سيقول أبوك؟ وهل يمكنك أن تسـمع هـؤلاء الرفـاق في محطـة الوقـود في مدينـة بولدر، كولـورادو، هـل يمكنك سماعهم يتنـدرون على الكاتـب العظيم الـذي قُبض عليه وهـو يسرق ربع جالـون من الحليـب؟ لا تفعلها آرتورو! إذا كان لديك قدر قليل من اللياقة، لا تفعلها!

نهضت عن الكرسي ومشـيت ذهاباً وإياباً. أيهـا الإله الجليل، امنحني القوة! امنـع هذه الرغبة الإجرامية! إذن ومرة واحدة، بدت الخطة بكاملها رخيصة ومغفلـة، لأنه في تلك اللحظة فكرت بشيء آخر أكتبه في رسـالتي لهاكموث العظيـم، كتبت مدة سـاعتين إلى أن آلمني ظهري. وعندمـا نظرت من نافذتي إلى السـاعة الكبـيرة في فندق القديـس بولس، كانت تقـارب الحادية عشرة. كانت رسـالتي إلى هاكموث رسـالة طويلة جداً، الآن لدي عشرون صفحة، قـرأت الرسـالة، بـدت سـخيفة. شـعرت بالدم يصعـد إلى وجهـي خجلاً، سيظنني هاكموث أحمق لكتابتي مثل هذا الهراء الصبياني. جمعت الصفحات وطوحتهـا في سـلة المهمـلات. غـداً يوم آخر وقـد أحصل على فكـرة لقصة قصيرة. في هذه الأثناء سآكل برتقالتين وأذهب إلى النوم.

كان برتقالاً بائساً. غرزت أظافري في القشرة وأنا جالس على السرير. تغضن لحمـي، كان فمـي مليئـاً بالبصاق، وحرفـت تفكيري عنهـا. عندما مضغت اللـب ضربني مثل حمام ماء بارد. أوه، باندينى متحدثاً إلى الانعكاس في مرآة

الخزانة، أي قرابين تقدمها للفن! ربما كنت قبطاناً في الصناعة، أو أمير تجارة، أو لاعب فريق كرة كبير، أو مسدد ضربات قيادي في الفريق الأمريكي، بمعدل 415.، لكن لا! ها أنت هنا، تزحف على طول الأيام، عبقرياً جائعاً، مخلصاً لندائك المقدس. أي شجاعة تملك!

استلقيت على السرير يقظاً في الظلمة. ما الذي قد يقوله هاكموث الجليل حول كل هذا؟ ربما يصفق، قلمه القوي قد يطري عليَّ بجمل محكمة. وفي النهاية لم تكن الرسالة إلى هاكموث سيئة. نهضت، نزعتها من سلة المهملات، وأعدت قراءتها، هي رسالة لافتة، خفيفة الظل على نحو حذر. قد يجدها هاكموث ممتعة جداً. ربما قد تؤكد له حقيقة أنني من كتبت قصة «ضحك الجرو». كان هناك قصة من أجلك! فتحت الدرج الممتلئ بنسخ من المجلة التي احتوت القصة مستلقياً على السرير قرأتها ثانية ضاحكاً كثيراً على نباهتها، مهمهماً ومتعجباً من أنني كتبتها، ثم رحت أقرؤها بصوت عال، وأنا أنظر في المرآة. عندما انتهيت كانت دموع البهجة في عيوني، وقفت أمام صورة هاكموث شاكراً له، لأنه أدرك عبقريتي.

جلست أمام الآلة الكاتبة وواصلت كتابة الرسالة. اشتد الليل، وتراكمت الصفحات. آه، لو كانت كل الكتابات بسهولة الرسالة إلى هاكموث! تكومت الصفحات، خمس وعشرون، ثلاثون، إلى أن نظرت إلى سرّتي واكتشفت حلقة من اللحم. يا للسخرية! كنت ازداد وزناً، كنت محشواً بالبرتقال! قفزت في الحال ونفذت عدداً من تمرينات المعدة. تلويت وتقلبت وتدحرجت. تدفق العرق وتنفست بصعوبة، كنت عطشاناً ومتعباً، رميت نفسي على السرير، كأس حليب بارد سيكون رائعاً الآن.

في تلك اللحظة سمعت طرقاً على باب هيلفريك ثم صوت هيلفريك لدى دخول أحدهم. لن يكون أحداً سوى عامل الحليب. نظرت إلى الساعة، كانت الرابعة تقريباً. لبست بسرعة بنطالي وحذائي دون جوارب وسترة. كان الرواق فارغاً مشؤوماً في الضوء الأحمر لمصباح كهربائي قديم. مشيت

twitter @baghdad_library

بتأنٍ دون تسلل مثل رجل ذاهب إلى الحمام في الصالة. مررت بسلسلتين من أدراج تئن نزقاً وكنت في الطابق الأرضي. كانت شاحنة حليب آلدن[1] الحمراء والبيضاء مركونة بالقرب من جدار الفندق في زقاق منقوع بضوء القمر. وصلت إلى الشاحنة وحصلت على زجاجتين ملآنتين حتى عنقيهما. بدتا باردتين ولذيذتين في قبضتي. عدت إلى غرفتي خلال وقت قصير، بدت زجاجتا الحليب على الطاولة تملآن الغرفة. كانتا مثل أشياء بشرية. جميلتين جداً، بدينتين وعامرتين.

أنت محظوظ يا آرتورو! قلت، ربما بفضل صلوات أمي، وربما لأن الله ما يزال يحبك رغم عبثك مع الملحدين، لكن أياً كان السبب، فأنت محظوظ.

من أجل الأيام الماضية، فكرت، ومن أجل الأيام الماضية ركعت وتلوت صلاة المائدة، كما اعتدنا أن نفعل في المدرسة الابتدائية، كما علمتنا أمي في البلاد: باركنا يا رب، وهذه نعمك التي على وشك أن نتلقاها من أيد كريمة، من المسيح نفسه، يا رب، آمين. وتلوت صلاة أخرى. بعد وقت طويل من مغادرة عامل الحليب غرفة هيلفريك كنت ما أزال راكعاً على ركبتي، نصف ساعة من الصلاة إلى أن صرت نهماً لطعم الحليب، إلى أن آلمتني ركبتاي وخفق ألم في عظام كتفي.

عندما نهضت ترنحت من تشنج العضلات، لكنها كانت ستصبح جديرة بالتعب المبذول. أخذت فرشاة الأسنان من كأسي، فتحت واحدة من الزجاجات، وملأت الكأس حتى حافته. استدرت مواجهاً صورة ج. س. هاكموث على الحائط.

« في صحتك هاكموث! إلى الأمام!»

وشربت بشراهة، إلى أن تقلصت حنجرتي واختنقت فجأة وطعم رهيب هزني. كان نوعاً من حليب أكرهه. كان مخيضاً، بصقته، غسلت فمي بالماء، وهرعت لأنظر في الزجاجة الأخرى. كانت مخيضاً أيضاً.

---

(1) علامة تجارية.

الفصل الرابع

وصلت إلى شارع سبرينج، دخلت حانة تقع وسط الشارع بعد متجر المواد المستعملة. ذهبت إلى هناك وبحوزتي آخر نيكل أملكه لأحتسي فنجاناً من القهوة. كان المكان من الطراز العتيق، نشارة على الأرضية، رسوم غير دقيقة لعراة على الجدران. كانت حانة يجتمع فيها المسنون، حيث البيرة رخيصة تفوح منها رائحة حمضية، والماضي ما زال دون تغيير.
جلست إلى إحدى الطاولات تجاه الجدار. أتذكر أنني جلست ورأسي بين يدي، سمعت صوتها دون أن أرفع بصري. أتذكر أنها قالت: "هل يمكنني أن أقدم لك شيئاً؟"، أذكر أنني طلبت قهوة بالقشدة. جلست هناك إلى أن قُدّم إليّ الفنجان، جلست على ذلك الحال وقتاً طويلاً، أفكر بمصيري اليائس.
كانت قهوة رديئة جداً، عندما مزجتها بالقشدة أدركت أنها لم تكن قشدة على الإطلاق، لأن لونها تحول إلى رمادي، وكان طعمها يشبه طعم أسمال مغلية. ذلك كان آخر نيكل أملكه، وهذا ما جعلني أشعر بالغضب. نظرت حولي باحثاً عن الفتاة التي قدّمت إلي القهوة. كانت على بعد ست أو سبع طاولات تقدّم البيرة من صينية، مديرة لي ظهرها، رأيت نعومة أكتافها المشدودة تحت رداء أبيض، وأثراً ضعيفاً لعضل في ذراعيها، والشعر الأسود لامع وكثيف، مبعثر على أكتافها.
أخيراً، التفتتْ فلوّحتُ لها. كانت مذهولة بعض الشيء، تفتح عينيها باتساع تعبيراً عن برود ملول. فيما كان جمالها يكمن في استدارة وجهها وبريق أسنانها، في تلك اللحظة ابتسمت لأحد زبائنها، ورأيت صفاً من البياض تحت شفتيها. كان أنفها يشبه شكل أنوف شعب المايا، مفلطحاً بمنخرين عريضين. تضع كمية كبيرة من أحمر الشفاه مع ما للشفاه الزنجية من ثخانة. كانت نموذجاً عرقياً وجميلة كما هي، لكنها كانت غريبة جداً بالنسبة إلي،

twitter @baghdad_library

لعينيها ميل حاد، بشرتها داكنة لكنها ليست سوداء، عندما تمشي كان نهداها يتحركان بطريقة تظهر تماسكهما.

تجاهلتني بعد تلك النظرة الأولى، ذهبت إلى البار وطلبت المزيد من البيرة وانتظرت الساقي النحيل أن يسحبها، كانت تصفّر وهي تنتظر، نظرت إليَّ نظرة مبهمة وواصلت التصفير. توقفتُ عن التلويح، لكنني أوضحت أنني أردتها أن تأتي إلى طاولتي. فجأة فتحت فمها وهي تنظر إلى السقف وضحكت ضحكة أكثر غموضاً، حتى الساقي تعجب من ضحكها. ثم رقصت وهي تؤرجح الصينية برشاقة، تسير بحرص عبر الطاولات نحو مجموعة في مؤخرة الصالون. تبعها الساقي بعينيه، وما يزال مشوشاً من ضحكها. لكنني فهمت ضحكها، لقد كان من أجلي. كانت تضحك مني. كان هناك شيء ما في مظهري ووجهي وجلستي، شيء ما في بجلوسي هناك أضحكها، وأنا أفكر بذلك شددت قبضتي وشعرت بغضب ذليل على نفسي. لمست شعري، كان مُسرّحاً، تحسست رقبتي وربطة عنقي، كانتا نظيفتين وفي مكانهما. بسطت نفسي نحو مرآة البار، حيث رأيت ما كان بالتأكيد وجهاً شاحباً ومهموماً، لكن ليس وجهاً مضحكاً، وكنت شديد الغضب.

بدأتُ بالسخرية، وأنا أراقبها عن كثب ساخراً. لم تقترب من طاولتي، تنقلت بالقرب منها نحو الطاولة المحاذية، لكنها لم تتجاسر على الاقتراب أكثر. في كل مرة كنت أرى الوجه الداكن، كانت العينيان الواسعتان السوداوان تبرقان بضحكهما، كنت ألوي شفتي كناية عن السخرية. تحولت إلى لعبة، فترت القهوة وبردت، تجمع غثاء الحليب على السطح، لكنني لم أمسَّه. تحركت الفتاة كراقصة، جمعت ساقيّها القويتين الحريريتين شذرات النشارة لدى انزلاق حذاؤها الممزق على الأرضية الرخامية.

كان الحذاء صندلاً مكسيكياً، سيوره الجلدية ملفوفة عدة مرات حول كاحليها. صندل مهترئ للغاية، لم يعد ممكناً حل السيور الجلدية المضفورة. عندما رأيته كنت شديد الامتنان، لأنه كان عيباً فيها يستحق النقد. كانت

طويلة، لها أكتاف مستقيمة، ربما كانت في العشرين من عمرها، لا غبار عليها إلا فيما يخص صندلها البالي. وأنا أثبت نظري عليه، أراقبه بجدية وإصرار، أدور في كرسيي وألوي عنقي لأحملق به متهكماً وأضحك بيني وبين نفسي. بكل بساطة كنت أحظى بمتعة أكبر من المتعة التي حصلت عليها هي من رؤية وجهي، أو أياً كان ما أضحكها. هذا كان له وقع كبير عليها، تدريجياً همد دورانها ورقصها وكانت تسرع جيئةً وذهاباً، ومطولاً كانت تسلك طريقها خلسة. كانت محرجة، خلال بضع دقائق لم تعد تضحك وبدلاً من ذلك كان هناك تجهم في وجهها، وأخيراً كانت تنظر إليَّ بكره شديد.

في ذلك الوقت كنت جذلاً سعيداً ومرتاحاً بشكل غريب. كان العالم مليئاً بأناس مضحكين على نحو صاخب. نظر الساقي النحيل نحوي فغمزته بتحية رفاقية. رفع رأسه بإيماءة اعترافية. تنهدت واستندت إلى الوراء، خالي البال. لم تستوف النيكل ثمناً للقهوة. ينبغي لها فعل ذلك إلا إذا تركته على الطاولة وخرجت. لكنني لم أكن أريد المغادرة. انتظرت، بعد نصف ساعة أسرعتْ إلى البار طلباً للمزيد من البيرة، لم تعد تنتظر على الحاجز بمرأى من الجميع. التفت نحو القسم الخلفي للبار. لم تنظر نحوي أبداً، لكنني عرفت بأنها تعرف بأنني أراقبها.

أخيراً، توجهتْ مباشرة إلى طاولتي. مشت بفخر، ذقنها مائل، يداها معلقتان على جنبيها. أردت أن أحدق بها، لكنني لم أستطع المواصلة. أشحت بنظري مبتسماً طوال الوقت.

سألتني: "هل تريد شيئاً آخر؟"

كان رداؤها الأبيض يعبق برائحة النشاء.

قلت: "هل تسمين هذا الشيء قهوة؟"

فجأة ضحكت مجدداً، كانت زعقة وضحكة مجنونة مثل قرقعة صحون، انتهت بالسرعة نفسها التي انفجرت بها. نظرت إلى قدميها ثانية. استشعرت شيئاً في داخلها ينكفئ، أردت أن أؤذيها.

twitter @baghdad_library

قلت:» ربما هذه ليست قهوة على الإطلاق، ربما هي ليست سوى ماء سُلق فيه حذاؤك القذر»، رفعت نظري إلى عينيها السوداوين المتقدتين، وتابعت: «ربما لا تعرفين أفضل من هذا، ربما لست سوى مستهترة بطبيعة الحال. لكن لو كنتُ فتاة لم أكن لأظهر في الشارع الرئيس بهذا الحذاء.» كنت ألهث عندما انتهيت. ارتجفت شفتاها الثخينتان وكانت قبضتاها في جيوبها تتلويان تحت الصلابة المنشاة، قالت: « أكرهك»، شعرت بكراهيتها. استطعت أن أشمها وأسمعها وهي تخرج منها، لكنني تهكمتُ ثانية، وقلت:» آمل ذلك، لأنه لا بد من أن يكون هناك ما هو ممتاز في رجل ليستحق كراهيتك.»، ثم قالت أمراً غريباً، أتذكره بوضوح. « أتمنى أن تموت بالسكتة القلبية، هنا على هذا الكرسي.»

بعد أن قالت جملتها بدت شديدة الرضى رغم أنني ضحكت. ابتعدت مبتسمة، ووقفت عند البار ثانية، تنتظر المزيد من البيرة، وعيناها مثبتتان عليّ، متّقدتان بأمنيتها الغريبة، وكنت غير مرتاح لكنني ما زلت أضحك، الآن هي ترقص ثانية، تنزلق من طاولة إلى أخرى بصينيتها، وكل مرة أنظر إليها كانت تبتسم بأمنيتها إلى أن أحدثت بداخلي أثراً غامضاً، وأصبحت واعياً لكينونتي الداخلية من ضربات قلبي وارتعاد معدتي. شعرت بأنها لن تعود إلى طاولتي مجدّداً، وتذكرت أنني كنت سعيداً بذلك، وانتابني ذلك التململ الغريب، لذا كنت متشوّقاً إلى الخروج من ذلك المكان بعيداً عن ابتسامتها المتواصلة. قبل أن أغادر فعلت شيئاً أسعدني كثيراً. أخذت خمسة سنتات من جيبي ووضعتها على الطاولة ثم سكبت نصف القهوة عليها. ستضطر إلى مسح ما انسكب بفوطتها. انتشرت البشاعة البنية في كل مكان على الطاولة، كانت تسيل على الأرض حين نهضت لأغادر. عند الباب توقفت لأنظر إليها مرة أخرى، ابتسمت الابتسامة نفسها، وأشرتُ إلى القهوة المسكوبة ثم رفعت أصابعي على سبيل تحية وداع وخرجت إلى الشارع. مرة أخرى شعرت بالارتياح وكان الحال كما كان من قبل، العالم مليء بأشياء مسلية.

لا أتذكر ماذا فعلت بعد مغادرتي الحانة، ربما ذهبت إلى غرفة بيني كوهين في

السوق المركزي الكبير، لديه ساق خشبية فيها فتحة صغيرة يخفي فيها سجائر الماريجوانا. يبيع الواحدة بسعر خمسة عشر دولاراً، كما كان يبيع الصحف أيضاً، الاكزامينر والتايمز. تكومت أكداس من نسخ «الجماهير الجديدة» في غرفته. ربما أحزنني كما دوماً بنظرته المتجهمة الفظيعة لعالم الغد. ربما لكز بأصابعه الملوثة تحت أنفي وشتمني لخيانة البروليتاريا التي أنتمي إليها. ربما كما في كل مرة أرسلني مرتجفاً خارج غرفته إلى الدرج المغبر نحو الشارع الذي يغشاه الضباب وأصابعي متشوقة إلى خنق الامبريالي. ربما وربما لا. لا أذكر. لكنني أتذكر أنه في تلك الليلة في غرفتي رمت أضواء فندق القديس بولس نقاطاً حمراء وخضراء على سريري. وأنا مستلق أرتعش وأحلم بغضب تلك الفتاة، بطريقة رقصها من طاولة إلى أخرى، ونظرة عينيها السوداوين. أتذكر أيضاً لأنسى أنني فقير و ليس بحوزتي فكرة لكتابة قصة.

بحثت عنها في وقت مبكر حوالي الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي، كنت في شارع سبرينج أحمل نسخة من قصة «ضحك الجرو» في جيبي. ستفكر بطريقة مختلفة إذا ما قرأت تلك القصة. كانت النسخة التي أحملها موقعة بخط يدي، كانت في جيبي الخلفي جاهزة لتُقدم عند أدنى التفاتة. لكن مقصف كولومبيا كان مغلقاً في تلك الساعة المبكرة، ضغطت أنفي على النافذة ونظرت إلى الداخل، كانت الكراسي مكومة على الطاولات، ورجل عجوز يرتدي حذاء مطاطياً يمسح الأرض. مشيت في الشارع مسافة مبنى أو اثنين، كان الهواء الرطب مزرقاً سلفاً بغاز أول أوكسيد الكربون. تناهت إلى رأسي فكرة رائعة، أخرجت المجلة ومحوت التوقيع وكتبت مكانه «إلى أميرة المايا، من أجنبي تافه» بدا صحيحاً، الروح الصحيحة بالضبط، عدت إلى مقصف كولومبيا ولكزت النافذة الأمامية، فتح العجوز الباب بأيدٍ مبللة، والعرق يسيل من رأسه.

قلت: « ما اسم الفتاة التي تعمل هنا؟»

« هل تقصد كاميلا؟»

twitter @baghdad_library

« الفتاة التي كانت تعمل هنا ليلة البارحة.»
قال:» إنها هي، كاميلا لوبيز.»
« هلا تعطيها هذه؟ فقط أعطها إياها. وقل لها إن شخصا أتى وقال ذلك.»
مسح يديه المبللتين بمريلته ونظر إلى المجلة، قلت: « اعتنِ بها جيداً، إنها ثمينة.»
أغلق العجوز الباب، رأيته من خلال الزجاج يتقدم متثاقلاً عائداً إلى ممسحته ودلوه، وضع المجلة على البار وواصل عمله، قلبت بعض النسمات صفحات المجلة، وأنا أمشي مبتعداً كنت أخشى أن ينسى كل شيء وعندما وصلت إلى مركز المدينة أدركت أنني ارتكبت خطأ شنيعاً، لن يؤثر التوقيع على القصة أبداً بفتاة من نوعها. أسرعت عائداً إلى مقصف كولومبيا وقرعت النافذة ببراجم أصابعي، سمعت العجوز يتبرّم ويشتم وهو يتحسس القفل. مسح العرق عن عينيه المسنتين ورآني مجدداً، قلت له: « هل يمكنني أن آخذ تلك المجلة؟ أريد أن أكتب شيئاً عليها» لم يستطع العجوز أن يفهم أي شيء مما قلت. هز رأسه بتنهيدة وسمح لي بالدخول، وقال: « أحصل عليها بنفسك، اللعنة، لدي عمل يجب أن أنهيه.»
بسطت المجلة على البار ومحوت التوقيع المهدى إلى أميرة المايا، وكتبت مكانه:
عزيزي الحذاء الممزق، ربما لا تعرف، لكن الليلة السابقة أهنت كاتب هذه القصة، هل يمكنك القراءة؟ إذا كنت قادراً، فاستثمر خمس عشرة دقيقة من وقتك ومتع نفسك بتحفة. وفي المرة القادمة كن حذراً. ليس كل من يأتي إلى هذه الحانة الرديئة يكون متسكعاً.
آرتورو بانديني
ناولت المجلة للرجل العجوز، لكنه لم يرفع عيونه عن عمله، قلت له: « أعط هذه للآنسة لوبيز، واحرص أن تتسلمها شخصياً.» رمى العجوز قبضة الممسحة، رشح العرق من وجهه المتغضن، أشار إلى الباب الأمامي قائلاً « أخرج من هنا!»، وضعت المجلة على البار مجدداً ومشيت بروية مبتعداً، عند الباب التفتُّ ملوحاً.

الفصل الخامس

لم أكـن أعدم الطعـام، ما زال عندي بعض البرتقال تحت السرير. أكلت تلك الليلـة ثـلاث أو أربـع منهـا ومع حلـول الظلام نزلـت بنكر هيل إلى وسـط المدينـة. وقفـت إلى جانـب الشـارع الـذي يقع فيـه مقصف كولومبيـا، عند المدخل الظليل وقفت وراقبت كاميلا لوبيز. كانت كما تركتها، ترتدي الرداء الأبيض ذاته. ارتعشـتُ عندما رأيتها واعتراني شعور غريب بالحر في حلقي، بعد بضع دقائق زال ذلك الشعور ووقفت في الظلمة حتى آلمتني قدماي.

رأيـت شرطيـاً يتهادى نحوي فابتعـدت. كانت ليلة حارة، هبـت فيها رمال مـن صحراء موهافي على المدينة، كلما كنت ألمس شيئاً كانت تتشبث بأناملي حبيبـات رملية بنيـة اللون صغـيرة، وعندما عدت إلى غرفتـي وجدت آلتي الكاتبـة الجديـدة مغمورة بالرمال. كانت الرمال في أذني وفي شـعري. عندما خلعـت ملابـسي تسـاقطت كالمسـحوق عـلى الأرض. لقد كانـت أيضاً بين مـلاءات السريـر. اسـتلقيت في العتمـة والضـوء الأحمر من فنـدق القديس بولس يومض بشـكل متقطع على سريري، الآن هو مزرقّ، لون شبحي يقفز في الغرفة ويخرج ثانية.

في صباح اليوم التالي لم أستطع أن آكل أي برتقالة، فمجرد التفكير بها يجعلني أجفـل. بحلول الظهـر، بعد تجوالي على غير هدى وسـط المدينة، كنت عليلاً مـن رثائي الـذاتي، غير قادر على التحكـم بلوعتي. عندما عـدت إلى غرفتي رميت نفسي على السرير وبكيت من أعماق صدري. تركت الدمع ينصب من كل عضو من أعضائي، وبعد أن توقفت عن البكاء شعرت بالارتياح مجدداً. شـعرت بالصدق والطهر. جلسـت وكتبت إلى أمي رسـالة صادقة. قلت لها إنني كنت أكذب على مدى أسـابيع، وطلبت منها راجياً أن ترسـل إليَّ بعض المال، لأني أرغب في العودة إلى البيت.

twitter @baghdad_library

بينما كنت أكتب دخل هيلفريك، لم يكن يرتدي بنطالاً هذه المرة بل برنساً، في البداية لم أتعرف إليه. وضع على الطاولة خمسة عشر سنتاً دون أن ينبس بكلمة، ثم قال:» أنا رجل صادق يا ولد، أنا صادق وجدير بالثقة» وخرج. فركت القطع النقدية بيدي، قفزت من النافذة وركضت في الشارع إلى محل البقالة. كان الياباني الصغير قد جهز كيس البرتقال سلفاً. كان مصعوقاً لرؤيتي أتجاوزه وأدخل قسم السلع الرئيسة. اشتريت دزينتين من الكعك المحلى. ابتلعتها وأنا جالس في السرير بأسرع ما يمكن، ثم شربت جرعات من الماء. شعرت بتحسن من جديد. كانت معدتي ممتلئة، وما يزال لدي نيكل واحد. مزقت رسالة أمي واستلقيت منتظراً حلول الليل، فبوجود النيكل أصبح باستطاعتي العودة إلى مقصف كولومبيا، انتظرت متخماً بالطعام ومثقلاً بالرغبة.

رأتني عند دخولي، كانت مسرورة لرؤيتي، استطعت أن أعرف ذلك من اتساع عينيها. أشرق وجهها وعاد ذلك الشعور بالضيق إلى حنجرتي. فجأة شعرت بسعادة غامرة، كنت واثقاً من نفسي، نقياً وأشعر بشبابي. جلست إلى الطاولة نفسها. كانت موسيقا البيانو والكمان تُعزف في الحانة هذه الليلة، ثمة امرأتان سمينتان لهما وجهان ذكوريان قاسيان وتسريحتا شعر قصيرتين تعزفان فالس over the waves[1]. تا دي دا دا، رأيت كاميلا ترقص وفي يدها صينية البيرة. كان شعرها حالك السواد، داكناً جداً ومخصّلاً مثل عناقيد العنب، منسدلاً على عنقها. كانت الحانة مقدسة، كل شيء فيها كان مقدساً، الكراسي، الطاولات، تلك الخرقة في يدها والنشارة تحت قدميها. كانت أميرة من المايا والحانة قلعتها. راقبت الصندل البالي ينزلق عبر الأرضية، أردت ذلك الصندل وددت أن أمسكه بيدي وأضمه إلى صدري عندما أنام، تمنيت أن أمسك به وأتنفس عطره.

---

(1) Sobre las olas: وهو الفالس الأكثر شهرة للمؤلف المكسيكي جيوفينتينو روساس (1868-1894).

لم تجرؤ على الاقتراب من طاولتي، لكني كنت مسروراً. لا تأتِ بسرعة كاميلا، دعيني أجلس هنا فترة وأروّض نفسي على هذه الإثارة النادرة، دعيني وشأني عندما يطوف عقلي بالجمال غير النهائي لمجدك الرائع، دعيني فترة لأتشوق فقط وأحلم بعينين يقظتين. أخيراً، أتت تحمل فنجان القهوة في صينيتها، القهوة نفسها، والفنجان المكسور المتسخ نفسه، أتت وعيناها أكثر سواداً واتساعاً مما كانت في المرة السابقة، تمشي نحوي بخفة وتبتسم بغموض، وقد ظننت أنه سيغمى عليّ من شدة خفقان قلبي. أحسست وهي تقف إلى جانبي بعطر خفيف من عرقها يختلط بالنظافة اللاذعة لردائها المنشى. لقد استحوذ علي وجعلني أحمق، تنفست من فمي كي لا أشمه. ابتسمتْ كي أعرف أنها لم تعترض على القهوة المسكوبة في الأمسية السابقة، فضلاً عن ذلك شعرت بأنها أعجبت بالأمر، وكانت مسرورة به وممتنة.

قالت: " لم أعرف بأن لديك نمشاً"

قلت: " إنه لا يعني شيئاً"

قالت" أنا آسفة بشأن القهوة، الجميع يطلب البيرة، ليس لدينا طلبات كثيرة على القهوة."

" لهذا السبب تماماً ليس لديك طلبات كثيرة عليها، لأنها سيئة جداً. سأشرب بيرة أيضاً، إذا استطعت دفع ثمنها."

أشارت إلى يدي بقلم، وقالت: " أنت تقضم أظافرك، يجب عليك عدم فعل ذلك."

أقحمت يدي في جيوبي، وقلت: " من أنت لتقولي لي ماذا أفعل؟"

" هل تريد بعض البيرة؟ سأجلب إليك القليل، ليس عليك أن تدفع ثمنها."

" ليس عليك أن تجلبي لي شيئاً، سأشرب هذه القهوة المزعومة وأخرج."

مشت إلى البار وطلبت بيرة، رأيتها تُخرج من ردائها قبضةً من القطع النقدية، دفعت ثمنها وحملتها إليّ ووضعتها تحت أنفي، هذا جرحني، قلت: " خذيها، خذيها من هنا. أريد قهوة، وليس بيرة."

نادى شخص من الخلف باسمها فأسرعت مبتعدة، ظهرت نقرتا ركبتيها

twitter @baghdad_library

وهي تنحني على الطاولة وتجمع أكواب البيرة الفارغة. تحركت على كرسيّ، أركل بقدمي مبصقة كانت تحت الطاولة. رأيتها عند البار مجدداً، تومئ نحوي مبتسمة ومشيرة إلى أنه يجب عليَّ أن أشرب البيرة. بدوت شريراً وخبيثاً. أثرت انتباهها وسكبت البيرة في المبصقة. عضت بأسنانها البيضاء على شفتها السفلى واحمرّ وجهها وتوقّدت عيناها، اعتراني شعور بالسرور والرضا، استندت إلى الخلف وابتسمت للسقف.

اختفت خلف حاجز رفيع يستعمل كمطبخ ثم ظهرت مجدداً مبتسمة. كانت يداها خلف ظهرها، وكأنها تخفي شيئاً. تقدم الرجل المسن الذي رأيته ذلك الصباح من خلف الحاجز. كشَّر مترقباً. لوّحت لي كاميلا، كان الأسوأ على وشك الحدوث، استطعت أن أستشعر قدومه. ظهرت من خلف ظهرها المجلة الصغيرة التي تضم قصة "ضحك الجرو"، لوّحتْ بها في الهواء، لم تكن في مرمى النظر، إذ كان ظهورها فقط من أجل العجوز ومن أجلي. راقبتُ بعينين كبيرتين، جف فمي وأنا أراها تبلل أصابعها وتقلب الصفحات إلى المكان الذي طبعت فيه القصة، لوت شفتيها وهي تشد المجلة بين ركبتيها وتمزق الصفحات، وضعتها فوق رأسها، لوّحت بها مبتسمة، هز العجوز رأسه باستحسان.

تحولت ابتسامة وجهها إلى إصرار وهي تمزق الصفحات إلى قطع صغيرة ثم إلى قطع أصغر، بإيماءة حاسمة تركت القطع تتساقط من بين أصابعها وتدلف نحو المبصقة الميتة عند قدميها، حاولت أن أبتسم، نفضت يديها بنفحة من التبرم مثل شخص ينفض الغبار عن راحتيه، ثم وضعت يداً على وركها، وأمالت كتفها، وخطرت مبتعدة. وقف العجوز هناك بعض الوقت، هو الوحيد الذي رآها. الآن بعد انتهاء العرض، اختفى خلف الحاجز.

جلست أبتسم مبتئساً، قلبي يبكي على "ضحك الجرو"، على كل جملة جميلة، على ما فيها من إشارات شعرية، كانت قصتي الأولى وأفضل شيء استطعت أن أقدمه طوال حياتي، كانت سجلاً لأفضل ما في داخلي، معتمدة ومطبوعة

من قبل العظيم ج. س. هاكموث، ولقد مزقتها ورمتها في المبصقة.
بعـد فـترة دفعت الكرسي ونهضت أنـوي المغادرة. رأتني أغـادر وهي واقفة عنـد البار، تعلو وجهها الشـفقة وابتسـامة صغـيرة من ندم على مـا اقترفته، لكننـي أبقيـت عينـي بعيـدة عنهـا وخرجـت إلى الشـارع سـعيداً بصخـب السيارات الشنيع، وضجيج المدينة الغريب يسحق أذني ويدفنني في كمّ هائل من التصادمات والصراخ. وضعت يدي في جيوبي ومضيت مبتعداً.
على بعد خمسـين قدم من الحانة سـمعت شـخصاً ينادي، التفتّ، كانت هي، تركض بخفة، والقطع النقدية تجلجل في جيوبها، نادت: " أيها الشـاب! أوه يا ولد!"
انتظرت، أتت تلهث وتتحدث بسرعة ولين: "أنا آسفة، لم أكن أقصد شيئاً–صدقاً."
قلت:" حسناً، لا يهم."
ظلـت تنظر باتجاه الحانة، قالت:" يجب عليَّ أن أعود، سـيفتقدونني. عُدْ غداً ليـلاً، هل سـتفعل؟ رجاء! يمكننـي أن أكون لطيفة. أنا آسـفة للغاية بشـأن الليلة. أرجوك تعال، أرجوك! وعصرت ذراعي." هل ستأتي؟"
" ربما."
ابتسمت. " سامحتني؟"
" بالتأكيد."
وقفت وسط الرصيف، رأيتها تعود مسرعة. بعد بضع خطوات التفتت، رمت قبلـة ونـادت:" غداً ليلاً، لا تنسـى!"، قلـت:" كاميلا! انتظـري دقيقة فقط!"
ركضنا نحو بعضنا، والتقينا في منتصف الطريق، قالت:" أسرع! سيطردونني."
،نظرت إلى قدميها، استشـعرتْ قدومه وشـعرتُ بأنهـا تحجم عني. الآن سرى شعور جيد في داخلي، برودة، جدة مثل جلد جديد. تحدثت ببطء.
" ذلـك الصندل–هل عليـك انتعاله يا كاميلا؟ هل عليك أن تؤكدي أنك كنت دائماً وستكونين مزيتة[1] قذرة صغيرة؟»

(1) تعبير مهين بالعامية يوجه عادة إلى من هم من أصول شرق أوسطية ولاتينية كالإيطاليين

twitter @baghdad_library

نظـرت إلي برعب، وفمها مفتوح. شـبكت كلتا يديها عـلى فمها، وهرعت إلى الحانة. سـمعت تأوهاتها.» أوه، أوه، أوه»، طوحت بكتفي وتبخترت مبتعداً، أصفّـر بمتعـة. رأيت في البالوعة عقب سـيجارة طويـل. التقطته دون خجل، أشـعلته وأنـا واقف وإحـدى قدمـي في البالوعـة، دخنته ونفثـت دخانه نحو النجـوم. كنـت أمريكيـاً، وفخـوراً لعيناً بذلك. هـذه المدينة العظيمـة القهارة والمباني الشامخة، كانت صوت أمريكتي. نحتنا -نحن الأمريكيين- من الرمل والصبـار امبراطورية. نال شـعب كاميلا فرصتهم وفشـلوا، نحن الأمريكيين قمنا بما يلزم فعله. شكراً لله على بلدي، شكراً لله لأنني ولدت أمريكياً!

والمكسيكيين.

الفصل السادس

مضيت إلى غرفتي، صاعداً درجات بنكر هيل المغبرَّة، مجتازاً المباني الخشبية المكسوّة بالسخام على امتداد ذلك الشارع المظلم، رمل وزيت وشحم يخنق أشجار النخيل العقيمة الواقفة مثل سجناء محتضرين، مقيدة إلى بقعة صغيرة من الأرض برصيف أسود يخفي أقدامها. غبار ومبانٍ قديمة ومسنون جالسون إلى النوافذ، مسنون يترنحون خارجين من الأبواب، مسنون يتحركون بألم على امتداد الشارع المظلم. كبار القوم من إنديانا وايوا وإلينوي، من بوسطن ومدينة كنساس وديموينس، يبيعون بيوتهم ومتاجرهم، ويأتون إلى هنا بواسطة القطار والسيارات إلى أرض الشمس المشرقة كي يموتوا في الشمس، مع مبلغ من المال يكفي كي يعيشوا إلى أن تقتلهم الشمس، اقتلعوا أنفسهم من الجذور في أواخر أيامهم، هجروا الرخاء المعتد بنفسه لمدينة كنساس وشيكاجو وبيوريا كي يجدوا لهم مكاناً في الشمس.

وعندما وصلوا إلى هنا وجدوا أن لصوصاً آخرين كثر كانوا بالفعل قد تملّكوا، وأن الشمس أيضاً تعود لسواهم، سميث الصيدلي وجونز الصيدلي وباركر الخباز، غبار شيكاجو وسينسيناتي وكليفلاند على نعالهم، محكوم عليهم بالموت في الشمس، بضعة دولارات في المصرف تكفي للاشتراك بصحيفة لوس أنجلس تايمز، تكفي لإبقاء وهمهم بكونها الجنة على قيد الحياة، وأن بيوتهم الصغيرة المصنوعة من عجينة الورق كانت قلاعاً. المقتلعون من جذورهم، القوم الحزانى الفارغون، شيبهم وشبانهم، القوم من الموطن. هؤلاء كانوا مواطنيَّ، هؤلاء كانوا الكاليفورنيين الجدد. بقمصانهم البولو[1] الزاهية ونظاراتهم الشمسية، كانوا في الجنة يشعرون بالانتماء.

لكن في الشارع الرئيس هناك في وسط المدينة وسان بيدرو، على بعد ميل

---

(1) نوع من القمصان القطنية بياقة مربعة وفتحة بأزرار عند العنق.

twitter @baghdad_library

أسفل الشارع الخامس يوجد عشرات الآلاف من الذين لم يتمكنوا من تحمل تكاليف شراء النظارات الشمسية أو قميص البولو برقعه الأربع، يختفون في الأزقة نهاراً وينسلون خلسة نحو الفنادق الرخيصة ليلاً. لن يقبض عليك الشرطي بتهمة تشردك في لوس أنجلس إذا كنت ترتدي قميص البولو المزين والنظارات الشمسية. لكن إذا كان الغبار على حذائك وتلك السترة التي ترتديها سميكة مثل الستر التي يرتدونها في البلاد المثلجة، فسيمسك بك. لذا فاحصلوا لأنفسكم على قميص بولو أيها الفتية، ونظارات شمسية وحذاء أبيض، إذا استطعتم كونوا جامعيين، ستنال منكم بأي حال.

بعد فترة من الوقت، بعد جرعات كبيرة من صحيفتي التايمز والإكزامينر، أنتم أيضاً ستتشيدون بصوت عال بالجنوب المشمس. ستأكلون الهامبرغر سنة بعد أخرى وتعيشون في شقق وفنادق مغبرَّة موبوءة بالهوام، لكن كل صباح سترون الشمس القوية والزرقة الأبدية للسماء، وستكون الشوارع مزدحمة بنساء ناعمات لن تحظوا بهنَّ أبداً، وستعبق الليالي الحارة الشبه مدارية بقصص رومانسية، لن تحظوا بها أبداً، لكنكم ستظلون في الجنة أيها الفتية، في أرض الشمس المشرقة.

أما بالنسبة إلى الناس الذين هم في البلاد، فيمكنكم أن تكذبوا عليهم، لأنهم يكرهون الحقيقة كيفما كانت، لا يريدون معرفتها، لأنهم عاجلاً أم آجلاً سيرغبون في المجيء إلى الجنة أيضاً. لا يمكنكم خداع الناس في الوطن أيها الفتية. هم يعرفون كيف هي كاليفورنيا الجنوبية، فهم يقرؤون الصحف، وينظرون إلى المجلات المصورة التي تغرق الأكشاك في جميع أنحاء أمريكا. لقد رأوا صور بيوت نجوم السينما، لا يمكنكم أن تقولوا لهم أي شيء عن كاليفورنيا. فكرت بهم وأنا مستلقٍ في سريري، وقد رأيت لطخ الضوء الأحمر من فندق القديس بولس تقفز دخولاً وخروجاً من غرفتي، كنت بائساً، فالليلة يجب أن أحذو حذوهم.

سميث وباركر وجونز، لم أكن يوماً واحداً منهم. آه، يا كاميلّا! عندما كنت

ولداً في بلدي كولورادو كان سميث وباركر وجونز هم من يتسببون لي بالأذى بأسمائهم المخيفة، ويدعونني بووب [1] وداجو [2] وجريزر، أطفالهم فعلوا مثلهم أيضاً، آذوني كثيراً كما آذيتك الليلة، ولم أستطع أن أصبح واحداً منهم إطلاقاً، ساقوني إلى الكتب وإلى نفسي، دفعوني إلى الهرب بعيداً عن بلدة كولورادو، أحياناً يا كاميلا، عندما أرى وجوههم أشعر بالأذى من جديد، الألم القديم هناك، وأحياناً قسوتهم، الوجوه نفسها، المجموعة نفسها، أفواه متيبسة، وجوه من بلدتي، يستكملون خواء حياتهم تحت شمس متأججة.

أراهم في أروقة فنادقي، يتشمسون في المتنزهات، ويترنحون خارجين من الكنائس القبيحة الصغيرة، وجوههم باردة بتقربهم من آلهتهم الغريبة، أنا خارج معبد آيمي [3]، خارج كنيسة: الرب العظيم. رأيتهم يترنحون خارجين من قاعاتهم السينمائية ويغمزون بعيونهم الفارغة في وجه الواقعية مرة أخرى، ويترنحون ذاهبين إلى بيوتهم ليقرؤوا التايمز، ليعرفوا ما الذي يجري في العالم. لقد سئمت من صحفهم ومن قراءة أدبهم وملاحظة عاداتهم وأكل طعامهم ومن رغبتي في نسائهم، كنت مدهوشاً من فنهم لكنني فقير، واسمي ينتهي بحرف صوتي ناعم، وهم يكرهونني ويكرهون أبي وجدي، وقد يرغبون في إسالة دمي وإذلالي، لكنهم الآن مسنون، يموتون في الشمس وفي غبار الطريق الحار، وأنا شاب مفعم بالأمل وبالحب لبلادي وأحوالي، وعندما أصفك بالـ« مزيتة» فأنا لا أقول ذلك من قلبي، بل أرتجف من جرح قديم، وأشعر بالعار من شيء رهيب اقترفته.

(1) Wop: وهو تعبير عن الازدراء كان يوصف به الإيطاليون عادة في أمريكا.

(2) داجو: وهو تعبير من تعابير التمييز العنصري ضد الإيطاليين، من « دييجو».

(3) ايمي سمبل ماكفيرسون (1890-1944): مبشرة مسيحية ومؤسسة «كنيسة البشرى الملائكية».

twitter @baghdad_library

الفصل السابع

أفكـر بفنـدق آلتا لومـا، وأتذكر الناس الذين عاشـوا فيه، أتذكـر أول أيامي هنـاك عندما دخلـت إلى البهو المظلم حاملاً حقيبتين، إحداهما مملوءة بنسـخ مـن «ضحـك الجرو». مرَّ زمـن طويل، لكننـي أتذكـره جيداً. لقـد قدمت بالحافلـة، مغبراً حتى الجلـد، غبار وايومنغ ويوتاه ونيفادا في شـعري وأذني.

« أريد غرفة رخيصة « قلت.

كان شـعر صاحبة الفندق أشـيب، تحيط بعنقها ياقة عالية شـبكية مشـدودة بإحكام كالمشَّـد، في السـبعينيات مـن عمرها، امرأة طويلـة زادت من طولها بالوقوف على رؤوس أصابعها والتحديق بي من فوق نظَّارتها.

قالت:» هل تعمل؟»

« أنا كاتب، انظري، سأريك.»

فتحـت حقيبتي وأخرجت نسـخة، وقلت:» كتبت هذا»، كنت متحمسـاً في تلك الأيام وفخوراً جداً، قلت: « سأعطيك نسخة، وسأوقعها لك.»

أخـذت قلم حـبر من المكتـب، كان جافـاً وينبغـي لي أن أغمسـه في الدواة، كـورت لسـاني مفكراً بشيء ظريف أقوله، سـألتها:» ما اسـمك؟»، قالت لي على مضض:» السيدة هارجريفز، لماذا؟»، كنت أكرمها ولم يكن لدي الوقت للإجابة عن الأسـئلة، كتبت فوق القصة « لامرأة لها سـحر يفوق الوصف، وعينان زرقاوان جميلتان وابتسامة سخية، من الكاتب آرتورو بانديني.»

افترت عن ابتسامة بدا أنها تكاد تؤذي وجهها، تشقّه بتجاعيد طاعنة فصلت اللحـم الجاف حول فمها وخديها، قالت:» أكره قصص الكلاب»، وضعت المجلـة جانباً ونظرت إليَّ من مستوى أعلى من فوق نظارتهـا، وقالت: « أيها الشاب، هل أنت مكسيكي؟» أشرت إلى نفسي وضحكت.

« أنـا مكسـيكي؟» هازاً رأسي. « أنا أمريكي يا سـيدة هارجريفز. وهذه ليسـت

قصة عن كلب، إنها عن رجل، إنها جيدة جداً، ليس هناك كلب في القصة كلها.»
قالت:» نحن لا نسمح بالمكسيكيين في هذا الفندق»
« أنا لست مكسيكياً. وضعت ذلك العنوان على غرار الأسطورة، تعلمين: « ضحك الجرو لملاقاته هذا القدر من التسلية.»
قالت:» ولا اليهود»
دوَّنتْ. كنت أوقع توقيعاً جميلاً في تلك الأيام، كان متشابكاً، نفيساً، غير مقروء، بشرْطةٍ هائلة تحته، كان أكثر تعقيداً من توقيع هاكموث العظيم. وبعد التوقيع كتبت « بولدر، كولورادو.»
تفحصت الكتابة كلمة كلمة.
قالت بفتور: « ما اسمك أيها الشاب؟»
وكنت خائباً، لأنها كانت قد نسيت كاتب «ضحك الجرو» رغم أن اسمه مطبوع بالخط العريض على المجلة. قلت لها اسمي. طبَعتهُ بعناية على التوقيع ثم تجاوزت الصفحة إلى نص آخر.
قالت وهي تنظر إلي ببرود: «سيد بانديني، بولدر ليست في كولورادو.»
قلت « إنها كذلك! قدمت للتوّ من هناك. كنت هناك منذ يومين.»
كانت حازمة ومصممة، قالت: « بولدر في نبراسكا. مررت أنا وزوجي ببولدر، نبراسكا، منذ ثلاثين عاماً في طريقنا إلى هنا. ستغير ذلك لطفاً، إذا سمحت.»
« لكنها في كولورادو! أمي تعيش هناك وأبي، ذهبت إلى المدرسة هناك!»
مدت يدها تحت المكتب وسحبت المجلة، ناولتني إياها.
« هذا الفندق ليس مكاناً لأمثالك أيها الشاب. لدينا أناس ممتازون هنا، أناس شرفاء.»
لم أقبل المجلة، كنت متعباً للغاية من الرحلة الطويلة بالحافلة، قلت:» حسناً، إنها في نبراسكا.» وكتبت ذلك، خربشت على كولورادو وكتبت نبراسكا فوقها. كانت راضية ومسرورة جداً مني، ابتسمت وتفحصت المجلة، قالت:» إذن أنت كاتب! كم هذا لطيف!»، ثم وضعت المجلة جانباً مرة ثانية، وقالت:» أهلا بك في كاليفورنيا! « ستحب المكان هنا!».

twitter @baghdad_library

السيدة هارجريفز تلك! كانت وحيدة وبائسة جداً ومع ذلك فخورة. صحبتني في أحد الأصائل إلى شقتها في الطابق الأعلى. كان كالمشي في قبر منفوض عنه الغبار جيداً. زوجها متوفى منذ ثلاثين عاماً، لديه متجر للأدوات في بريدجبورت، كونيكتيكت. كانت صورته معلقة على الحائط، رجل رائع، لم يكن يدخن أو يشرب، توفي إثر إصابته بذبحة قلبية، وجه حاد في صورة مؤطرة حزينة، ما يزال يحتقر التدخين والشراب. هنا سريره حيث مات، سرير مرتفع بأربعة أعمدة شاقولية من خشب الماهوغاني، ها هنا ملابسه في الخزانة وحذاؤه على الأرض، مقدمته مقلوبة للأعلى منذ زمن. هنا على الرف كان كوب حلاقته، كان دوماً يحلق بنفسه، كان اسمه بيرت. بيرت ذاك! بيرت، كانت تقول، لماذا لا تذهب إلى الحلاق، وبيرت سيضحك، لأنه يعلم أنه حلاق أفضل من الحلاقين الرسميين.

اعتاد بيرت أن ينهض في الساعة الخامسة صباحاً. ينتمي إلى عائلة مكونة من خمسة عشر طفلاً. لقد كان بارعاً بالأدوات، وقد نفذ كل أعمال الإصلاح في الفندق مدة سنوات. استغرق ثلاثة أسابيع لطلاء المبنى من الخارج. كان يقول إنه يطلي بشكل أفضل من الدهانين الرسميين. ظلت تتحدث عن بيرت ساعتين، ويا رب! كم أحبت ذلك الرجل! حتى وهو ميت، لكنه لم يكن ميتاً على الإطلاق، كان في تلك الشقة، يراقبها، يحميها، يتحداني أن أجرؤ على أذيتها. لقد أخافني، وجعلني أرغب في الهرب. شربنا الشاي. كان الشاي قديماً والسكر أيضاً كان قديماً ومتكتلاً. فناجين القهوة كانت مغبرة، وبشكل ما كان للشاي مذاق قديم وللكعكات الصغيرة الجافة مذاق الموت. عندما نهضت للمغادرة، تبعني بيرت عبر الباب وإلى الصالة، يتحداني أن أفكر به بطريقة ساخرة. تعقبني ليلتين، هددني، وحثني أيضاً على ترك السجائر.

أتذكر ذلك الولد من ممفيس. لم أسأل يوماً عن اسمه ولم يسألني بدوره. تبادلنا التحية، لم يمكث هناك وقتاً طويلاً، بضعة أسابيع فقط. كان دائماً يغطي وجهه المليء بالبثور بيديه الطويلتين وهو جالس على الشرفة الأمامية

للفندق، كان يجلس على الشرفة في وقت متأخر من كل ليلة، الثانية عشرة والواحدة والثانية، لدى عودتي إلى البيت كنت أجده يتأرجح جيئةً وذهاباً على الكرسي المصنوع من الأملود[1]، أصابعه المتوترة تنسل من وجهه، منقبة في شعره الأسود غير المقصوص، كنت أقول: « مرحباً» ويجيب:» مرحباً».

أثاره غبار لوس أنجلس الذي لا يهدأ، كان يبزني في التجوال، باحثاً طوال النهار عن حب ضال في المتنزهات. لكنه كان بالغ القبح ولم يجد ضالته قط، برَّحته الليالي الدافئة بنجومها الخفيضة والقمر الأصفر بعيداً عن غرفته حتى مطلع الفجر. ذات ليلة تحدث إليّ، تركني متقززاً وتعيساً في حين كان يتمتع بذكريات ممفيس، تينيسي، التي منها يأتي الناس الحقيقيون، حيث كان هناك أصدقاء وأصدقاء. يوماً ما سيترك هذه المدينة البغيضة، يوماً ما سيعود إلى حيث للصداقة معنى، ورحل بالتأكيد وتلقيت بطاقة بريدية موقعة بـ» فتى ممفيس» من فورتورث، تكساس.

كان هناك هيلمان، المنتسب إلى نادي كتاب الشهر. رجل ضخم بذراعين كزنود الخشب وساقين محشورتين في البنطال. كان يعمل أميناً للصندوق في مصرف. له زوجة في مولين، إلينوي وابن في جامعة شيكاجو. كان كرهه للجنوب الغربي ظاهراً على وجهه، صحته سيئة، وكان محكوماً عليه بالبقاء هنا أو الموت. سخر من كل شيء غربي. كان يعتلّ كلما هُزم الشرق في مباراة كرة محلية، عندما أشرت مرة إلى فريق « الطروادين»[2] تسبب ذلك بمشاحنة معه، يكره الشمس، ويشتم الضباب، ويندد بالمطر، ويحلم دوماً بثلوج الغرب الأوسط. كان يصله مرة في الشهر طرد كبير. دائماً أراه في البهو يقرأ، لم يكن يعيرني كتبه، ويقول:» مسألة مبدأ»، لكنه أعطاني «أخبار نادي كتاب الشهر»، مجلة صغيرة عن أخبار الكتب، كان يضعها كل شهر في صندوق رسائلي.

والفتاة ذات الشعر الأحمر من سانت لويس التي تسأل باستمرار عن

---

(1) القصب أو الخيزران المجدول.

(2) The Trojans: نادي رياضي يمثل جامعة كاليفورنيا الجنوبية.

twitter @baghdad_library

الفلبينين، أين يعيشون؟ كم عددهم هناك؟ هل أعرف أحدهم؟ الفتاة ذات الشعر الأحمر النحيلة، بنمش بني تحت خط ياقة فستانها، جاءت إلى هنا من سانت لويس. كانت ترتدي اللون الأخضر طوال الوقت، رأسها النحاسي اللون مريع جداً بالنسبة إلى جمالها، عيناها رمادية جداً نسبة إلى وجهها، حصلت على عمل في حجرة لغسل الملابس، لكن المرتب كان قليلاً جداً، لذا تركته. كانت تتجول أيضاً في الشوارع الدافئة. أقرضتني مرة نيكلاً، ومرة أخرى طوابع بريدية. تتحدث بلا نهاية عن الفلبينيين، تشفق عليهم، تفكر بأنهم بالغو الشجاعة في مواجهة الأذى. رحلت ذات يوم، وفيما بعد رأيتها ثانية، تذرع الشوارع، شعرها النحاسي يعكس أشعة الشمس، وفليبيني قصير يمسك بذراعها. كان فخوراً جداً بها. أكتافه المحشوة وبزته ذات الخصر المشدود كانت أحدث صيحات تيندرلوين[1]، لكن حتى مع الكعب الجلدي العالي كانت تفوقه طولاً بارتفاع قدم.

من بين النزلاء جميعهم قرأ واحد فقط قصة «ضحك الجرو». في تلك الأيام الأوائل وقعت عدداً كبيراً من النسخ، أخذت إلى غرفة الانتظار في الأعلى خمس أو ست نسخ، ووضعتها في كل مكان بشكل باد للعيان، على طاولة المكتبة، وعلى الأريكة، وعلى الكراسي العميقة الجلدية فإذا كنت تريد أن تجلس كان عليك أن ترفعها. شخص واحد فقط قرأها. بعد أسبوع كانت قد تبعثرت، لكنها لم تكد تُمسّ، وعندما نفض الفتى الياباني غبار تلك الغرفة بالكاد رفعها من المكان الذي كانت فيه. اعتاد النزلاء على لعب البريدج[2] هناك في الأماسي، ثمة مجموعة من الزوار الكبار تجمعوا للحديث والاسترخاء. دخلت متسللاً، وجدت كرسياً، وراقبت. كان مثبطاً للهمم. جلست امرأة ضخمة على واحد من الكراسي العميقة فوق واحدة من النسخ، لم تكلف نفسها عناء إزاحتها. إلى أن جاء اليوم الذي كوّم فيه الياباني

(1) حي من أحياء سان فرانسيسكو، كاليفورنيا.

(2) واحدة من ألعاب الورق.

النسخ بإتقان على طاولة المكتبة، وتجمع عليها الغبار.
بين الحين والآخر، كل بضعة أيام، كنت أمسحها بمنديلي وأنفض الغبار عنها، لكنه يعود دائماً، لم يمسّوا الكومة المرتبة على طاولة المكتبة، ربما عرفوا بأنني كتبتها وتجنبوها عمداً. ربما ببساطة لم يهتموا جميعهم حتى هيلمان القارئ ومالكة الفندق. هززت رأسي: كانوا شديدي الحمق، كانت قصة عن غربهم الأوسط، عن كولورادو والعاصفة الثلجية، هناك كانوا بأرواحهم المقتلعة ووجوههم المحروقة بالشمس، يموتون في صحراء متأججة، في حين أن الأوطان الباردة التي أتوا منها كانت قريبة جداً في متناول اليد، لامعة هناك على صفحات تلك المجلة الصغيرة. وفكرت، آه، حسناً، لطالما كانوا كذلك- بو[1]، وايتمان[2]، هيني[3]، دريسر، والآن بانديني، لم يكن الأذى كبيراً عندما فكرت على ذلك النحو، فلم أكن وحيداً تماماً.
كان اسم الشخص الذي قرأ قصتي جودي، واسمها الثاني بالمر. طرقت بابي ذلك الأصيل، وفتحته، رأيتها. كانت تمسك بنسخة من المجلة في يدها. كانت في عمر الرابعة عشرة فقط، شعرها بني ومجعد، وشريطة حمراء مربوطة على شكل قوس فوق جبهتها.
« هل أنت السيد بانديني؟» قالت.
استطعت أن أعرف من عينيها أنها قرأت « ضحك الجرو»، قلت لها: « قرأتِ قصتي، أليس كذلك؟ كيف وجدتها؟»، قرّبتها من صدرها وابتسمت، قالت: « أظن أنها رائعة، أوه، رائعة جداً! قالت لي السيدة هارجريفز إنك كتبتها، كما أخبرتني أنك قد تعطيني نسخة»، ارتعش قلبي في حنجرتي، قلت لها: « تعالي! أهلاً بك! اجلسي! ما اسمك؟ بالتأكيد يمكنك الحصول على نسخة. بالتأكيد! لكن رجاء ادخلي!»، ركضت عبر الغرفة وحصلت على أفضل

(1) إدجار آلان بو.
(2) والت وايتمان.
(3) شيموس هيني.

twitter @baghdad_library

كرسي. جلسـت بلطف شـديد، فسـتان الطفلة الذي ترتديه يغطي ركبتيها، قلت لها:» هل تريدين كأساً من الماء؟ إنه يوم حار، ربما أنت عطشى.»
لكنهـا لم تكن كذلك، كانت متوترة فقط. أدركـت أنني أرعبتها، حاولت أن أكـون أكثر لطفاً، لأني لم أرغب في إخافتها. حـدث ذلك في الأيام التي كنت فيهـا أملـك القليل من المال، قلت: « هل تحبين الآيـس كريم؟ هل تودين أن أجلب لك حليباً أو شيئاً ما؟»
قالت:» لا يمكنني البقاء، أمي ستغضب.»
« هـل تعيشـين هنا؟ هل قـرأت أمك القصة أيضاً؟ ما اسـمك؟»، ابتسـمتُ بفخر وتابعتُ: « بالتأكيد أنت تعرفين اسمي، أنا آرتورو بانديني.»
« أوه، نعم!» لهثت، وعندما اتسعت عيناها بذلك الإعجاب أردت أن أرمي نفـسي تحت قدميها وأبكي. اسـتطعت أن أحس بـه في حنجرتي، ذلك الحافز الحساس للبدء بالنشيج.
« هل أنت واثقة من أنك لا تريدين بعض الآيس كريم؟»
كانـت تتـصرف بطريقة جميلة، جالسـة هنـاك وذقنها الزهري اللـون مائل، يداها الصغيرتان تمسكان بالمجلة. « لا شكراً لك يا سيد باندينى.»
«ما رأيك بمشروب غازي؟» قلت.
« شكراً لك» ابتسمت.» لا.»
" بيرة دون كحول؟"
" لا، من فضلك. شكراً لك."
" ما اسمك؟ اسمي..." لكنني توقفت في الحال.
" جودي" قالت.
" جودي!" قلت، مراراً وتكراراً." جودي، جودي! إنه رائع! إنه اسم يليق بنجمة، إنه أكثر الأسماء التي سمعتها جمالاً!"
" شكراً لك!" قالت.
فتحت درج الخزانة الذي يحتوي على نسخ قصتي. كان محشواً جيداً، ما يزال

هنـاك خمس عشرة نسـخة، قلت لها: " سـأوقعها لك بـشيء لطيف، شيء ما شديد الخصوصية!"
اكتسى وجهها بلون البهجة. هذه الفتاة الصغيرة لم تكن تمزح، كانت متحمسة حقاً، وكان فرحها مثل ماء بارد يجري تحت وجهي، قلت:" سأعطيك نسختين، وسأوقعهما لك!"
" أنت رجل لطيف" قالت. كانت تتفحصني وأنا أفتح دواة الحبر، تابعت:" يمكنني أن أعرف من خلال قصتك."
" أنا لست رجلاً، لست أكبر منك بكثير يا جودي. " لم أرغب في أن أبدو كبيراً أمامها. أردت أن أنقص عمري قدر الإمكان، " أنا في عمر الثامنة عشرة" كذبت.
" فقط، حقاً؟" كانت مذهولة.
" سأبلغ التاسعة عشرة بعد شهرين."
كتبت شيئاً مميزاً على النسختين. لا أتذكر الكلمات لكنها كانت جيدة، كتبت ما نبع من قلبي، لأنني كنت شديد الامتنان. لكنني رغبت في المزيد، أردت أن أسمع صوتها الصغير جداً واللاهث، أن أبقيها في غرفتي قدر استطاعتي. قلت:" ستشرفيني بشرف عظيم، ستسعدينني أيّما سعادة جودي، إذا قرأت قصتي بصوت عالٍ، فهذا لم يحدث من قبل قط، وأود أن أسمعها."
قالت:" أحب ذلك!"
انتصبت في جلستها، تشدها الحماسة. رميت نفسي على السرير، دفنت وجهي في المخدة، وقرأت الفتاة الصغيرة قصتي بصوت حلو ناعم جعلني أبكي بعد أول مئة كلمة. كان صوتها كالحلم، كالملاك يملأ الغرفة، وبعد قليل كانت تنشج أيضاً، متوقفة عن القراءة بين الحين والآخر تبلع ريقها وتزدرد، وتحتج: " لم يعد بإمكاني قراءة المزيد، لا يمكنني."، ألتفتُ وتضرعت إليها:" لكن لا بد أن تفعلي ذلك جودي، أوه، لابد أن تفعلي!"
فجأة، وعند ذروة انفعالنا، دخلت امرأة طويلة ذات فم لاذع الغرفة دون

twitter @baghdad_library

أن تقـرع البـاب. عرفت أنهـا والدة جـودي. تفحصتني بعينيها الشرسـتين، وجودي من بعدي. أمسـكت بيد جودي وساقتها بعيداً دونما كلمة. ضمت الفتـاة الصغيرة المجلتـين على نهديها، ومن فوق أكتافهـا طرفت بوداع دامع. أتـت ورحلت بالسرعة نفسـها، ولم أرها مجدداً قطّ. كان غامضاً بالنسـبة إلى المؤجرة أيضاً، لأنهما وصلتا ورحلتا في اليوم نفسه، ولم تبيتا الليلة.

الفصل الثامن

كان هناك رسالة في صندوق بريدي. عرفت أنها من هاكموث. يمكنني أن أعرف رسائله عن بعد ميل. استطعت أن أشعر برسالة هاكموث، كانت مثل كتلة من الجليد تنزلق على عمودي الفقري. ناولتني السيدة هارجريفز الرسالة، اختطفتها من يدها. قالت:» هل من أخبار جيدة؟»، لأني أدين لها بكثير من نقود الإيجار. قلت:» لا يمكنك أن تعرفي قطّ،» لكنها من رجل عظيم قد يرسل صفحات سوداء، وستكون أخبار جيدة بالنسبة إلي.»

كنت على علم بأنها ليست أخباراً جيدة بالمعنى الذي قصدته السيدة هارجريفز، لأنني لم أكن قد أرسلت للسيد هاكموث قصة. تلك كانت مجرد رد على رسالتي الطويلة التي أرسلتها منذ عدة أيام. كان محفزاً جداً، يبهرك هاكموث بسرعته. تضع الرسالة في صندوق البريد عند الناصية، وعندما تعود إلى الفندق، تجد الرد. آه، أنا، لكن رسائله كانت مختصرة جداً. رسالة من أربعين صفحة، وقد رد عليها برسالة مكونة من فقرة صغيرة واحدة. وذلك رائع كما هو، لأن ردوده كانت سهلة للاستظهار والحفظ عن ظهر قلب، كان له أسلوب وطريقة، لديه الكثير ليعطيه، حتى فواصله والفواصل المنقوطة كان لها طريقة في التراقص جيئةً وذهاباً. كنت أنتزع الطوابع عن مغلفاته، أقشرهم بلطف، لأرى ما يوجد تحتهم.

جلست على السرير وفتحت الرسالة. كانت رسالة موجزة، لا يتجاوز عدد كلماتها الخمسين كلمة. كانت تقول:

عزيزي السيد بانديني

من بعد إذنك سوف أمحو السلام والختام من رسالتك الطويلة وأطبعها كقصة قصيرة في مجلتي. يبدو لي بأنك أنجزت عملاً ممتازاً، أظن أن « التلال الطويلة الضائعة» قد يكون عنواناً ممتازاً. الشيك المصرفي مرفق.

تحياتي لك

ج.س. هاكموث.

twitter @baghdad_library

انزلقت الرسالة من بين أصابعي وتهاوت بشكل متعرج على الأرضية، وقفت ونظرت في المرآة بفم مفتوح على اتساعه، مشيت باتجاه صورة هاكموث على الحائط المقابل ووضعت أصابعي على الوجه الحازم الذي ينظر إليّ. التقطت الرسالة وقرأتها مجدداً، فتحت النافذة وخرجت، استلقيت على العشب المتألق إلى جانب التلة. خمشت العشب بأصابعي، انقلبت على معدتي، وغار فمي في الأرض، جذبت الأعشاب من جذورها بأسناني، ثم انفجرت بالبكاء. أوه يا الله، هاكموث! كيف يمكنك أن تكون هذا الرجل الرائع؟ كيف يمكن هذا؟ صعدت النافذة عائداً إلى غرفتي ووجدت الشيك في داخل المغلف، كان بقيمة 175 دولاراً، أصبحت غنياً مرة ثانية. 175 دولاراً! آرتورو بانديني، كاتب ضحك الجرو والتلال الطويلة الضائعة.

وقفت أمام المرآة مرة ثانية، هازاً قبضتي بتحدٍ. أنا هنا يا قوم. ألقوا بنظرة على كاتب عظيم! انظروا في عيني أيها القوم، عيني كاتب عظيم. انظروا إلى فكي أيها القوم، فك كاتب عظيم. انظروا إلى هاتين اليدين أيها القوم، اليدين اللتين أبدعتا ضحك الجرو والتلال الطويلة الضائعة. أشرت بسبابتي بشراسة. أما أنت يا كاميلا لوبيز، أريد أن أراك الليلة، أريد أن أتحدث إليك يا كاميلا لوبيز، وأحذرك يا كاميلا لوبيز، تذكري أنك لا تقفين أمام أحد سوى آرتورو بانديني، الكاتب. تذكري ذلك، من فضلك.

صرفت السيدة هيرجريفز الشيك، دفعت الإيجار المتأخر وإيجار شهرين مقدماً، كتبت إيصالاً بالمبلغ كاملاً. وضعته جانباً وقلت: «أرجوك، لا تنزعجي يا سيدة هيرجريفز، أنا أثق بك تمام الثقة»، لكنها أصرَّت، وضعت الإيصال في جيبي، ثم وضعت خمسة دولارات إضافية على المكتب «من أجلك يا سيدة هيرجريفز، لأنك كنت غاية في اللطف»، رفضتها وأبعدتها قائلة: «سخيف!»، لكنني لم آخذها، خرجت وهرعتْ خلفي، طاردتني في الشارع.

«سيد بانديني، أنا أصر على أن تأخذ هذه النقود.»، قلت: «أوف، ليست سوى خمسة دولارات، شيء تافه»، هززت رأسي وتابعت: «سيدة هيرجريفز، أنا

أرفض استعادتها قطعاً»، تفاوضنا ونحن واقفان في وسط الرصيف تحت الشمس الحارة وتجادلنا، كانت عنيدة، رجتني أن أستعيدها، ابتسمت بهدوء وقلت: « لا سيدة هيرجريفز، أنا آسف، أنا لا أغير رأيي أبداً.»

سارت مبتعدة، ممتقعة غضباً، تمسك بورقة الخمسة دولارات بين أصابعها كما لو أنها تحمل فأراً ميتاً. هززت رأسي، خمسة دولارات! مبلغ تافه بالنسبة إلى آرتورو بانديني، كاتب العديد من القصص لصالح ج.س هاكموث.

تمشيت وسط المدينة، ناضلت أشق طريقي عبر الشوارع الحارة الضيقة نحو قبو شركة مايو. كانت أفضل بدلة اشتريتها في حياتي، بخطوط بنية وسروالين، الآن يمكنني أن أكون أنيقاً طوال الوقت. اشتريت زوجين من الأحذية واحد من درجات اللون البني والآخر أبيض، والكثير من السراويل القصيرة والجوارب، وقبعة، قبعتي الأولى، ذات لون بني داكن من لباد أصلي وبطانة بيضاء حريرية. كان عليهم تعديل السراويل، قلت لهم أن يسرعوا، فعدّلوها في وقت قصير. غيّرت ملابسي خلف حجيرة من ستارة، ارتديت كل شيء جديد، بالإضافة إلى القبعة. طوى الموظف ثيابي القديمة ووضعها في علبة. لم أكن راغباً فيها. قلت له أن يتصل بجيش الخلاص[1]، ويعطيهم إياها، وأن يرسل المشتريات الأخرى إلى فندقي.

في طريقي اشتريت نظارات شمسية، وأمضيت بقية ما بعد الظهر في التسوق أقتل الوقت، اشتريت سجائر وحلوى وفواكه مجففة، اشتريت ماعونين من ورق ثمين وأربطة مطاطية ومشابك ورقية ومفكرات وصندوقاً صغيراً لحفظ الأوراق وثقابة للورق. كما اشتريت أيضاً ساعة رخيصة ومصباحاً جانبياً ومشطاً وفراشي أسنان ومعجون أسنان وغسولاً للشعر ومعجون حلاقة وغسولاً للجلد وعدة إسعافات أولية. توقفت عند متجر لربطات العنق واشتريت بعضاً منها! كما اشتريت حزاماً جديداً وسلسلة ساعة

(1) جيش الخلاص: جماعة مسيحية بروتستانتية دولية مستقلة عن الكنائس تقوم بأعمال خيرية لمساعدة الفقراء.

twitter @baghdad_library

ومناديـل وبرنسـاً وخفـاً لغرفة النوم. حل المسـاء، ولم يعد باسـتطاعتي حمل المزيد. طلبت سيارة أجرة وأقلتني.

كنـت متعباً جـداً. بلل العرق بدلتي الجديدة، وزحف على سـاقي وكاحلي، لكن هذا كان مسلياً. اغتسلت، مسحت الغسول على بشرتي، ونظفت أسناني بالفرشاة ومعجون الأسنان الجديدين، ثم حلقت بمعجون الحلاقة الجديد وبللت شعري بالغسول، جلست فترة في خف غرفة النوم وبرنس الحمام، وضعت جانباً أوراقي الجديدة والأدوات، دخنت سجائر جيدة وطرية وأكلت الحلوى.

جلب لي عامل التوصيل من شركة مايو بقية مشترياتي في صندوق كبير. فتحته ولم أجد الأشياء الجديدة فحسب لكن أيضاً ملابسي القديمة، فطوحت بها في سلة المهملات. حان وقت التهندم من جديد. ارتديت سروالاً قصيراً جديداً وقميصاً مـن علامة تجارية جديدة، وجوارب، وبنطالاً آخر، بعدئذٍ وضعت ربطـة العنـق وانتعلت حذائي الجديد. وقفت أمام المـرآة، وأملت قبعتي على إحـدى عينـي، وتفحصت نفسي، بـدت الصـورة في المرآة مألوفـة على نحو غامـض. لم أحب ربطة عنقي الجديدة، لذا خلعـت معطفي وجربت آخر، لم يعجبني التغيير أيضاً، وفجأة بدأ كل شيء يضايقني.

كانت الياقة المشدودة تخنقني، قرصَ الحذاء الجديد قدمي، للبنطال رائحة قبو متجر الملابس وكان ضيقاً جداً عند منطقة الأعضاء التناسـلية، اندلع العرق من صدغي فقد عصر شريط تلك القبعة جمجمتي. فجأة بدأت أحكّ، وكان كل شيء يطقطـق مثـل كيـس ورقـي عندما أتحـرك. التقط منخـري الرائحة القوية للغسول، وتجهمت. يا أمَّنا في السماء، ما الذي حصل لبانديني الكبير، كاتب قصة «ضحك الجرو»؟ هل يمكن لهذا المهرج المخنوق المقيد أن يكون مؤلف التلال الطويلة الضائعة؟ خلعت كل شيء، وغسـلت شـعري لأزيل عنـه الرائحـة، وارتديت ثيـابي القديمة، كانت في غاية السـعادة لاسـتعادتي مجدداً، تشـبثت بي ببهجة منعشـة، وانزلقت قدماي المتألمتان في الحذاء القديم كما لو في نعومة عشب الربيع.

الفصل التاسع

ذهبت إلى مقصف كولومبيا مستقلاً سيارة أجرة، توقف السائق عند حافة الرصيف أمام الباب المفتوح مباشرةً. ترجلت وناولته ورقة من فئة العشرين دولار، لم يكن يملك فكة ليعيد لي الباقي، سررت عندما وجدت أخيراً ورقة من فئة أصغر وسددت له كامل الأجرة، كانت كاميلا واقفة على العتبة، لم يكن عدد سيارات الأجرة التي تتوقف أمام مقصف كولومبيا كثيراً. أومأت لكاميلا دون اكتراث ودخلت وجلست إلى أول طاولة. كنت أقرأ رسالة هاكموث عندما تكلّمت.

قالت:» هل أنت غاضب مني؟»

قلت:» ليس على حد علمي»

وضعت يديها خلف ظهرها ونظرت إلى قدميها. « ألا أبدو مختلفة؟» كانت ترتدي حذاءً أبيض جديداً ذي كعب عال.

قلت:" ظريف جداً"، عدت إلى رسالة هاكموث ثانية، راقبتني باستياء، رفعت بصري وغمزت.

" اعذريني، إنه عمل."

" هل تود أن تطلب شيئاً؟"

" سيجار من نوع ثمين من هافانا."

جلبت العلبة، وقالت:" ثمن الواحد ربع دولار."

ابتسمت وأعطيتها دولاراً.

" احتفظي بالباقي."

رفضت البقشيش، وقالت:" ليس منك، أنت فقير."

" لطالما كنت كذلك،" قلت، أشعلت السيجار، وتركت الدخان ينهال من فمي وأنا مستند إلى الخلف محدقاً بالسقف." ليس سيجاراً سيئاً بالنسبة إلى

twitter @baghdad_library

ثمنه" قلت.
كانت العازفات في المؤخرة ما زلن يعزفن فالس over the waves. وبوجه واثـق دفعـت ما بقي من ثمن السـيجار نحـو كاميلا، وقلـت: "قولي لهن أن يعزفن شتراوس، شيئاً من فيينا."
تناولـت ربعـاً، لكنني جعلتهـا تأخذها جميعاً. دُهشـت العازفات، أشـارت كاميلا إليّ، لوحن وافترت شـفاههن عن ابتسامة. أومأتُ بوقار. بدأن عزف مقطوعة" حكايات من غابات فيينا."، كان الحذاء الجديد يؤلم قدمي كاميلا، لم تكن تنتعل صندلها القديم، جفلت وهي تمشي، وصرَّت على أسنانها.
" هل تريد بيرة؟" سألت.
" أريد كأساً طويلاً من الويسكي، من نوع سانت جيمس."
تكلمـت مـع السـاقي، وعـادت" ليس لدينـا سـانت جيمـس، لكـن لدينا Ballantine's. إنه غالي الثمن، بسعر أربعين سنتاً."
طلبـت واحداً لنفسي وكأسـاً لكل من السـاقيين، قالـت لي:" ليس عليك أن تبذر نقودك بهذا الشـكل"، تبادلت الأنخاب مع السـقاة ثم ارتشفت كأسي، ولويت وجهي قائلاً:" شراب رخيص"
وقفت ويداها في جيوبها، قالت:" ظننت أن حذائي الجديد سوف يعجبك"
واصلت قراءة رسالة هاكموث، وقلت: " يبدو حسناً جداً"
تقدمـت ببـطء نحو طاولـة خلَت لتوهـا والتقطت أكـواب البـيرة الفارغة، كانت متألمة، وجهها حزين ومغتم، ارتشـفتُ الكأس وواصلتُ قراءة رسالة هاكموث، بعد وقـت قصير عادت إلى طاولتي، وقالت: "لقد تغيرت، تبدو مختلفاً. سابقاً كنت تعجبني أكثر."
ابتسـمتُ وربَّـت على يدها. كانت دافئة، ملسـاء، سـمراء، بأصابـع طويلة، قلت: " أيتها الأميرة المكسيكية الصغيرة، أنت ساحرة جداً، وبريئة جداً."
سحبت يدها وشحب وجهها.
" لست مكسيكية، أنا أمريكية."

هززت رأسي، وقلت:" لا، بالنسبة إلي ستكونين دوماً تلك الكادحة الحلوة الصغيرة، زهرة من المكسيك القديمة."
" أيها الإيطالي ابن الزانية!" قالت.
لقد أبهرتني، لكنني واصلت الابتسام، خبطتْ الأرض بقدميها مبتعدة، آلمها الحذاء، كبح ساقيها الغاضبتين، كنت معتلاً من الداخل، كما لو أن ابتسامتي مثبتة بمسامير. كانت تمسح الطاولة القريبة من العازفات، تحركت ذراعها بعنف واهتياج، وجهها مثل لهب داكن. عندما نظرت إلي فرَّ البغض من عينيها عبر الغرفة، لم تعد رسالة هاكموث تثير اهتمامي، وضعتها في جيبي وجلست مخفضاً رأسي. كان شعوراً قديماً، تتبعته وتذكرت أنه كان شعوري عندما جلست في المكان لأول مرة. اختفت خلف الحاجز، وعندما عادت تحركت برشاقة، قدماها خفيفتان وواثقتان، لقد خلعت الحذاء الأبيض وارتدت الصندل القديم.
" أنا آسفة،" قالت.
" لا، إنه خطئي يا كاميلا."
" لم أعنِ ما قلته."
" كنت على حق، كان خطئي."
نظرت إلى قدميها.
" ذلك الحذاء الأبيض كان جميلاً، لديك ساقان جميلتان وكان يلائمهما تماماً"
تخللت أصابعها شعري، ودفء استمتاعها انهمر عبرها وعبري، وكانت حنجرتي حارة، سرت سعادة عميقة في جسدي.
توارت خلف الحاجز وخرجت ترتدي الحذاء الأبيض، تقلصت عضلات فكيها الصغيرة وهي تمشي، لكنها ابتسمت بشجاعة. راقبتها وهي تعمل، رؤيتها تجعلني أسمو، عمتُ كما يعوم الزيت على الماء. بعد مدة سألتني عما إذا كنت أملك سيارة، أجبتها بالنفي، أخبرتني أنها تملك واحدة مركونة في ساحة انتظار السيارات القريبة، وصفتها لي، اتفقنا على اللقاء في الساحة

twitter @baghdad_library

لننطلـق إلى الشـاطئ. عندمـا نهضت أنـوي المغـادرة، نظر السـاقي الطويل بوجهه الأبيض نحوي نظرة خبيثة، خرجت، متجاهلاً إياها.
كانت سيارتها من ماركة فورد 1929 مكشوفة وشعر ذيل الفرس يندلع من التنجيـد، رفاريف العجلات بالية ودون مقدمة. جلسـت في داخلها وعبثت بـالأدوات، نظرت إلى شـهادة الملكية. كانت مسـجلة باسـم كاميلا لومبارد وليس كاميلا لوبيز. كانت برفقة شـخص ما عندما دخلت السـاحة، لكن لم أستطع أن أميزه لشدة الظلمة، ما من ضوء قمر وغشاء سميك من الضباب. عندما اقتربا أكثر، رأيته، كان السـاقي الطويل. قدمته إلي، اسـمه سامي، كان هادئاً لا مبالياً. أوصلناه إلى البيت، عبر شـارع سـبرينج نحو الشارع الأول، وعلى السكة الحديدية إلى حي السود الذي التقط أصوات السيارة المجلجلة، وردد الصدى في منطقة المنازل الخشـبية القذرة والأسـيجة الخشـبية الكليلة. ترجل في مكان حيث سـفحت أشـجار الفلفل المحتـضرة أوراقها البنية على الأرض، ثـم عندما مشـى نحـو الشرفة كنت تسـمع وقـع أقدامه تخوض في الأوراق المتساقطة المهسهسة.
" من يكون؟" قلت.
كان مجـرد صديـق، على حد قولهـا، ولم ترغب في التحدث عنـه، لكنها كانت قلقـة عليه، تعلو وجهها مسـحة من الانشـغال تلك التـي تصيب من هو في حالة قلق على صديق مريض. أقلقني هذا الأمر وجعلني أغار دفعة واحدة، لاحقتهـا ببضعة أسـئلة، طريقتها المتشـدقة في الإجابة جعلتني أزداد سـوءاً. سـلكنا طريق العودة فوق السـكك وعبر منطقة وسـط المدينة. لم تكن تقف عند الإشـارة الحمراء إذا لم يكن هناك سـيارات في الأرجاء، وعندما يعترض شـخص مـا طريقها كانت تخبط راحتهـا على الزمور الصـارخ وتبقيها عليه. ارتفـع الصـوت كصوت طلـب النجدة في وهـاد المباني. اسـتمرت على هذا الحال، سواء كان ضرورياً أم لا. نبهتها مرة، لكنها تجاهلت ذلك، وقالت: " أنا من يقود هذه السيارة".

وصلنا إلى ويلشاير حيث تم تحديد السرعة ب 35 كم/ سا كحد أدنى. لم يكن باستطاعة سيارة الفورد السير بهذه السرعة، لكنها تشبثت بالممر الأوسط وانطلقت السيارات الكبيرة السريعة من حولنا، اغتاظوا منها وقد هزت قبضتها في وجوههم. بعد مسافة ميل اشتكت من قدمها وطلبت مني أن أمسك بالعجلة المتوقفة، وفي هذه الأثناء مدت يدها وخلعت حذاءها ثم استلمت العجلة مجدداً وألقت قدمها على جانب السيارة انتفخ فستانها في الحال لاطماً وجهها، طوته تحتها لكن مع ذلك كان فخذاها مكشوفين حتى ظهر سروالها التحتي القرنفلي. مما لفت الكثير من الانتباه. انطلق سائقو السيارات بمحاذاتنا متوقفين لوقت قصير ورؤوسهم خارج النوافذ لمشاهدة ساقها السمراء العارية. وهذا ما جعلها غضبى. راحت تصرخ على المتفرجين وتزعق بأنه عليهم أن ينصرفوا إلى شؤونهم. جلست إلى جانبها مسترخياً محاولاً أن أستمتع بسيجارة احترقت بحماسة شديدة في مهب الريح.

وصلنا إلى إشارة توقف رئيسة عند تقاطع الحي الغربي وويلشاير. كان تقاطعاً مزدحماً، توجد صالة سينما ونواد ليلية وصيدليات ينهمر منها السابلة في الشارع. لم تستطع أن تتجاوز تلك الإشارة، لأن الكثير من السيارات الأخرى كانت تتقدمنا، ونحن ننتظر أن تفتح الإشارة. استنفدتْ إلى الوراء، نافذة الصبر، متوترة، تؤرجح ساقها. راحت الوجوه تتلفت صوبنا، صفرت الزمامير بمرح، ومن خلفنا انبعث هتاف لافت من مركبة خفيفة مزينة بنفير شيطاني. نظرت حولها، عيناها مضطرمتان، هزت قبضتها نحو الطلاب في المركبة. في هذا الوقت كانت جميع العيون علينا، وابتسم الجميع. وكزتها.

" اسحبيها على الأقل عند الإشارة الحمراء."

" أوه، اخرس!" قالت.

تناولت رسالة هاكموث والتجأت إليها، كان الشارع مناراً جيداً، استطعت أن أقرأ الكلمات، لكن السيارة رفست مثل بغل، جلجلت وانتفضت وقرقرت. كانت فخورة بتلك السيارة.

twitter @baghdad_library

« لها محرك رائع» قالت.
" تبدو جيدة" قلت معلقاً.
" عليك أن تشتري سيارة" قالت.
سألتها عن اسم كاميلا لومبارد المكتوب على شهادة ملكيتها. سألتها إذا ما كانت متزوجة.
"لا" قالت.
" ولماذا لومبارد؟"
" للتسلية، أحياناً أستعمله بحرفية."
لم أفهم.
" هل يعجبك اسمك؟» سألت.» ألا تتمنى لو كان جونسون، أو ويليام، أو شيء ما؟»
أجبتها بلا، وبأني كنت راضياً.
« أنت لست كذلك» قالت. « أعلم.»
« لكني راضٍ!» قلت.
« لا لست كذلك.»
عند بيفرلي هيلز انقشع الضباب، انتصب النخيل الأخضر على طول الطريق في الظلمة المزرقة، وقفز أمامنا الخط الأبيض في الرصيف مثل فتيل محترق. تهادت بعض غيوم وتطوحت، لكن لم يكن هناك نجوم. مررنا بتلال منخفضة، على جانبي الطريق كان هناك أسيجة عالية وكرمة ريانة مع نخيل بري وأشجار سرو متناثرة هنا وهناك.
وصلنا الجروف الصخرية صامتين، منطلقين على امتداد قمة الجرف العالي المطل على البحر، ضربتنا الريح الباردة من الجانبين. ترنحت السيارة العتيقة، وارتفع هدير البحر من الأسفل، زحف ضباب البحر نحو اليابسة، وجيش من الأشباح زحفت على بطونها. سلخت الموجات المتكسرة البر بقبضات بيضاء. انكفأت وعادت لتحلق مجدداً. وعند كل انكفاءة لموجة، كان خط

الشاطئ يكشر بتكشيرة عريضة جداً.
انزلقنا سريعاً نحو طريق لولبي، والرصيف الأسود يرشح، وألسنة الضباب تلعقه. كان الهواء نظيفاً جداً. استنشقناه بامتنان. لم يكن هناك غبار.
انطلقتْ بالسيارة نحو امتداد لا نهائي من الرمل الأبيض. جلسنا وراقبنا البحر، كان دافئاً تحت المنحدرات. لمست يدي، وقالت: « لم لا تعلمني السباحة؟»
" ليس هناك" قلت.
كانت الأمواج طويلة والزبد مرتفع، وقد أتت مسرعة، تشكلت على بعد مئة ياردة وأتت من كل ناحية. راقبناها تندلع أمام الشاطئ، زركشة رغوية تتفجر مثل الرعد.
« تتعلمين السباحة في مياه هادئة» قلت.
ضحكت وراحت تتعرى، كانت سمراء، لكنه سمار طبيعي وليس ناجماً عن التعرض إلى الشمس، كنت أبيض وشبيه الشبح. كان هناك كتلة من الثقل عند معدتي، ابتلعتها كي أخفيها. نظرت إلى البياض، إلى سوءتي وساقي، وابتسمت. كنت مسروراً عندما مشت نحو الماء. كان الرمل ناعماً ودافئاً، جلسنا مقابل البحر وتحدثنا عن السباحة. عرضت عليها المبادئ الأساسية، استلقت على بطنها، جدفت بيديها ورفست برجليها، تناثر الرمل على وجهها وقلدتني دون حماسة. جلست، قالت:» لا أحب تعلم السباحة».
خضنا في الماء يداً بيد، اكتست طلعتنا بالرمل، كان بارداً ثم مناسباً تماماً. كنت للمرة الأولى في المحيط، قاومت الأمواج حتى غمر الماء أكتافي، ثم جربت أن أسبح، رفعتني الأمواج، رحت أغوص تحت الأمواج القادمة، انهمرت فوقي دون أذية، كنت أتعلم. عندما ظهرت الأمواج الكبيرة، رميت نفسي عند قممها ورمتني على الشاطئ.
أبقيت عيني على كاميلا. انغمرتْ حتى ركبتيها، رأت الموجة قادمة فركضت نحو الشاطئ ثم عادت تصرخ بابتهاج. ضربتها موجة فصرخت واختفت، بعد لحظة ظهرت مجدداً، ضاحكة وتصرخ. هتفت لها ألا تجازف، لكنها

twitter @baghdad_library

تهادت لملاقاة ذروة بيضاء صعدت وأوقعتها بعيداً عن مرمى النظر. راقبت تدحرجها مثل سلة موز. خاضت نحو الشاطئ، جسدها يلمع، يداها في شعرها. سبحت حتى التعب، ثم خضت خارجاً من المياه. عيناي ملسوعتان من الماء المالح. استلقيت على ظهري ولهثت. بعد بضع دقائق استعدت قوتي ونهضت وشعرت برغبة في تدخين سيجارة. لم تكن كاميلا في مرمى بصري. مشيت إلى السيارة ظناً مني أنها هناك. لكنها لم تكن، ركضت نحو حافة الماء وبحثت في الاضطراب الرغوي. وناديتها.

سمعت صرختها آتية من البعيد، خلف الموج المندفع وفي كوم الضباب على الماء المتلاطم. بدا أنها على بعد مئات من الياردات. صرختْ ثانية: «النجدة!» خضت في الماء ضارباً أولى الموجات بأكتافي، وبدأت أسبح، ثم فقدت الصوت في هدير البحر، صرخت: «أنا قادم!»، وصرخت مراراً وتكراراً، إلى أن كان عليَّ أن أتوقف لأستعيد قوتي. كانت الأمواج الكبيرة سهلة، غطست تحتها، لكن الأمواج الصغيرة شوشتني، صفعت وجهي وصدمتني. أخيراً كنت في الماء المتلاطم. الأمواج الصغيرة تتقافز على وجهي. توقف صراخها. مخضت الماء بيدي، منتظراً صرخة أخرى، ولم تأت. صرخت، كان صوتي ضعيفاً مثل صوت تحت الماء.

فجأة أصابني الإنهاك، تقافزت الأمواج الصغيرة فوقي، ابتلعت الماء، كنت أغرق. صليت، تأوهت وصارعت المياه، وعرفت أنه ليس عليَّ مصارعته، لأن البحر كان هادئاً هنا. سمعت هدير الأمواج في الداخل. ناديت، انتظرت، ناديت مجدداً، ما من جواب ينجي وحل ذراعي وصوت الأمواج الصغيرة المتلاطمة. بعدئذٍ حدث أمر لساقي اليمنى، لأصابع القدم، بدا أنها التوت، عندما رفست امتد الألم إلى الفخذ، أردت أن أعيش. يا الله، لا تأخذني الآن! سبحت على غير هدى نحو الشاطئ.

ثم شعرت أنني في موجات كبيرة مرة ثانية، سمعتها تدوي بصوت أعلى، بدا أنها تأخرت كثيراً. لم أستطع السباحة، كانت ذراعي منهوكة القوى،

آلمتنـي سـاقي اليمنى ألماً كبيراً. كان كل ما يهمني هـو أن أتنفس. اندفع التيار مـن تحت الماء يدحرجني ويسـحبني. هـذه كانت نهاية كاميـلا، وهذه كانت نهايـة آرتورو باندينـي، لكن حتى في ذلك الحين كنت أكتب كل شيء، وأرى الكتابـة عبر الصفحة في الآلة الكاتبة، أكتبهـا وأنزلق على طول الرمل الحاد، واثقـاً تمـام الثقـة بأنني لن أخرج حياً. ثـم كنت في الماء حتى خـصري، بطيئاً تـارة وسريعـاً تارة أخرى لأفعل أي شيء بشـأنه، أتخبط يائسـاً بعقل صاف، أؤلف كل شيء، قلقاً بشـأن صيغ المبالغة. دفعتني الموجة التالية نحو الأسفل مرة ثانية، سـحبتني نحو ماء بعمق قـدم، وزحفت على يدي وركبتي خارجاً منه، متسائلاً إذا ما كان باستطاعتي ربما أن أكتب قصيدة حول ذلك. فكرت أن كاميلا هناك ونشـجت وانتبهت إلى أن دموعي كانت أكثر ملوحة من ماء البحـر، لكن لا يمكنني أن اضطجع هناك، يجـب أن أطلب النجدة في مكان ما، نهضت على قدمي وترنحت متثاقلاً نحو السيارة، كنت أشعر ببرد شديد وأسناني تصطك.

التفت ونظرت إلى البحر، كانت كاميلا على بعد خمسين قدماً تخوض نحو البر، والمـاء يغمرها حتى الخصر. كانـت تضحك، تختنق من الضحك، هذه دعابة هائلـة لعبتها، وعندما رأيتها تغوص متقدمة الموجة التالية بكل رشـاقة متقنة الطابع، لم أفكر أنها كانت مسلية على الإطلاق. تقدمت نحوها، شعرت بأنني أسـتعيد قوتي مع كل خطوة، وعندما وصلت إليها حملتها على كتفي ولم أهتم لصراخها، خدشت جلدة رأسي بأصابعها وشدت شعري، رفعتها بأقصى ما اسـتطعت من قوة ورميتها في بركة من الماء بعمق بضعة أقدام، سقطت بهبدة قطعت أنفاسـها، خضت خارجاً من الماء، أخذت شـعرها بيدي، ومسحت وجههـا وفمهـا بالرمل الموحل، تركتهـا هناك، تزحف على يديهـا وركبتيها، تـصرخ وتئن، وعدت إلى السـيارة، كانت قد أشـارت إلى وجود بطانيات في المقعد، سحبتها، غطيت نفسي واضطجعت على الرمل الدافئ.

بعـد وقـت قصير تقدمتْ عبر الرمل العميق ووجدتني جالسـاً تحـت البطانيات.

twitter @baghdad_library

وقفت أمامي، وهي مبللة ونظيفة، تستعرض نفسها، فخورة بعريها، تدور وتدور.
« ألا زلت أعجبك؟»
استرقت النظر إليها، كنت صامتاً، أومأت وابتسمت، داست على البطانية وطلبت مني أن أفسح مكاناً. أفسحتُ وانزلقتْ، جسدها أملس وبارد. طلبت مني أن أضمّها، حضنتها، قبلتني بشفاه رطبة وباردة. اضطجعنا طويلاً، كنت قلقاً وخائفاً ودون عاطفة، كأن زهرة رمادية نمت بيننا، تجسدت فكرة وتكلمت عن الفجوة التي فصلتنا، لم أعرف كنهها، شعرت بها تنتظر. مررت يدي على بطنها وساقيها، شعرت برغبتي، تبحث بحماقة عن عاطفتي، بذلت جهدي في حين كانت تنتظر، تلف شعري وتشده وتستجديه، لكن لم يكن من شيء، لم يكن هناك شيء على الإطلاق ماعدا الانسحاب نحو رسالة هاكموث وأفكار ظلت لتكتب، ليست رغبة، بل خوف منها وعار وخزي. ثم بدأت ألوم نفسي وألعنها، أردت أن أنهض وأمشي نحو البحر. شعرت بانكفائي، نهضت بسخرية وبدأت تجفف شعرها على البطانية، قالت:» ظننت أنني أعجبك».
لم أتمكن من الإجابة، هززت كتفي ونهضت، ارتدينا ملابسنا وعدنا إلى لوس أنجلس، لم نتحدث، أشعلت سيجارة ونظرتْ إليّ بغرابة، بشفاه مزمومة. نفخت دخان سيجارتها في وجهي، أخذت السيجارة من فمها ورميتها في الشارع. أشعلت سيجارة أخرى نفثتها بفتور، لاهية وهازئة. كرهتها في ذلك الحين.
اعتلى الفجر الجبال الشرقية، سبائك ذهبية من النور تضرم السماء مثل الكشافات. أخرجت رسالة هاكموث وقرأتها ثانية. في هذه الأثناء في شرق نيويورك سيكون هاكموث داخلاً لتوّه مكتبه. في مكان ما في ذلك المكتب كانت قصتي التلال الطويلة الضائعة. لم يكن الحب أهم الأشياء، ولم تكن النساء الأهم أيضاً، على الكاتب أن يصون طاقته، عندما وصلنا إلى المدينة أخبرتها عن عنواني، قالت ضاحكةً: « بنكر هيل؟ إنه مكان يناسبك.»،

قلت: « إنه مثالي، في فندقي لا يسمحون بالمكسيكيين»
تسبب ذلك بالتقزز لكلينا. قادت نحو الفندق وأوقفت المحرك، جلست أتساءل إذا ما كان هناك شيء يمكن أن يقال، لكن لم يكن من شيء. خرجت، أومأت، ومشيت نحو الفندق. شعرت بين عظمي كتفي بعينيها كالسكاكين. وأنا أصل إلى الباب نادتني، عدت إلى السيارة.

« ألن تقبلني قبلة ما قبل النوم؟»

قبلتها.

« ليس بهذه الطريقة.»

زلقت ذراعيها حول عنقي. جذبت وجهي للأسفل وغرزت أسنانها في شفتي السفلى، لدغتني وصارعتها حتى تحررت. جلست بذراع واحدة على المقعد، تبتسم وتراقبني وأنا أدخل الفندق. أخرجت منديلي ومسحت شفتي. كان على المنديل بقعة من الدم. سرت في الصالة الرمادية متجهاً إلى غرفتي. شعرت وأنا أغلق الباب بكل تلك الرغبة التي لم تأتِ في الفترة السابقة، لقد استولت عليّ، سحقت جمجمتي ووخزت أصابعي، رميت نفسي على السرير ومزقت الوسادة بيدي.

twitter @baghdad_library

الفصل العاشر

لم تبرح تفكيري طوال ذلك اليوم، تذكرت عريها الأسمر وقبلتها، طعم فمها وهي تخرج باردة من البحر، ورأيت نفسي أبيض وبتولياً، مبتلعاً بطني السمين، واقفاً في الرمل ويدي على سوءتي. ذرعت الغرفة جيئةً وذهاباً. أصابني الإنهاك في وقت متأخر من الأصيل وكان شكلي في المرآة لا يطاق، جلست إلى الآلة الكاتبة وكتبت عنه، مفرغاً إياه كما كان من المفترض أن يحدث، أطرق عليها بعنف حتى أن الآلة الكاتبة المحمولة راحت تتحرك مبتعدة عني عبر الطاولة، نقشتها على الورقة كنمر وضربتها على الأرض أخضعتها بقوتي التي لا تهزم، انتهى الأمر بها زاحفة تلاحقني، في الرمل، الدموع تسيل من عينيها، تتوسلني الرحمة. رائع! ممتاز! لكن عندما أعدت قراءة ما كتبت وجدته قبيحاً وباهتاً، مزقت الصفحات ورميتها.

طرق هيلفريك الباب. كان شاحباً ويرتجف، جلده مثل ورقة مبللة. كان قد توقف عن تعاطي الخمر، لن يمس قطرة منه أبداً، جلس على حافة السرير واعتصر أصابعه الهزيلة، تحدث عن اللحم بلهفة، عن شرائح اللحم اللذيذة في الماضي التي كنت تتناولها في مدينة كنساس، عن القطع الرائعة من لحم الضأن الطري. لكن ليس هنا في أرض الشمس الأبدية، حيث لا تأكل الماشية شيئاً سوى الأعشاب الضارة والشمس الساطعة، حيث اللحم مليء بالديدان، إذ يجب عليهم أن يصبغوه ليعطوه منظراً دامياً وأحمر. وهل سأقرضه خمسين سنتاً؟

أعطيته المال ونزل إلى محل الجزارة في شارع أوليف، لم يتأخر في العودة إلى غرفته، كان الطابق السفلي في الفندق يعبق بالنكهة المميزة للبصل والكبدة، ذهبت إلى غرفته، رأيته جالساً أمام طبق الطعام، فمه منتفخ، فكاه النحيلان يعملان بجد. هز الشوكة في وجهي، وقال: « سأصنع معروفاً معك يا ولد، سأعيد لك المبلغ مضاعفاً ألف مرة.» جعلني جائعاً. نزلت إلى المطعم قرب

آنجل فلايت وطلبت الطبق نفسه الذي كان يتناوله. أخذت وقتي في تناول العشاء. لكن مهما طال تأجيلي لشرب القهوة فقد كنت أعلم بأني في آخر الأمر سأهبط الدرج المؤدي إلى مقصف كولومبيا. كنت بمجرد أن أمسَّ الورم على شفتي أشعر بالغضب ثم باللهفة.

عندما وصلت إلى المقصف كنت أخشى الدخول، عبرت الشارع وراقبتها من خلال النوافذ، لم تكن ترتدي الحذاء الأبيض، ولم تكن مختلفة، بدت سعيدة ومشغولة بصينية البيرة.

راودتني فكرة، مشيت مسرعاً مسافة كتلتين سكنيتين إلى مكتب البرقيات. جلست أمام ورقة البرقية بقلب يخفق، تلوت الكلمات عبر الصفحة. أحبك كاميلا أريد أن أتزوجك آرتورو بانديني. عندما دفعت رسومها نظر الموظف إلى العنوان وقال إنها ستصل خلال دقائق، أسرعت عائداً إلى شارع سبرينج، وقفت في العتبة الظليلة أنتظر ظهور الساعي.

في اللحظة التي رأيته فيها قادماً من الزاوية عرفت أن البرقية كانت هفوة، ركضت في الشارع وأوقفته، قلت له إنني كتبت البرقية ولا أرغب في إرسالها، قلت: «خطأ»، لم يصغ، كان طويلاً بوجه مغطى بالبثور، أعطيته عشرة دولارات، هز رأسه وابتسم مشدداً، عشرون دولاراً، ثلاثون، قال:» ليس مقابل عشرة ملايين».

عدت إلى الظلال وراقبته وهو يوصل البرقية. كانت مدهوشة عند استلامها. رأيتها تشير بإصبعها إلى نفسها، تعلو وجهها علامات التشكك، بعد أن وقعت على الاستلام وقفت وهي تمسك بها في يدها، تراقب عامل البرقيات وهو يبتعد. عندما فضّتها أغلقت عيني بشدة. عندما فتحتها رأيتها تقرأ البرقية وتضحك. مشت إلى البار وناولت البرقية للساقي صاحب الوجه الشاحب، الساقي الذي أوصلناه إلى البيت في الليلة السابقة، قرأها دون إفصاح ثم ناولها إلى الساقي الآخر الذي لم يبد متأثراً أيضاً شعرت بامتنان لذلك، لكن عندما أخذتها إلى الطاولة حيث يجلس جمع من الرجال يشربون، فغر فاهي ببطء

twitter @baghdad_library

وشعرت باضطراب. تردد ضحك الرجال في الشارع، ارتجفت وابتعدت بسرعة، انعطفت عند تقاطع الشارع السادس ونزلت الشارع الرئيس.

تجولت عبر حشود من المنبوذين الجائعين العليلين دون هدف، توقفت في الشارع الثاني قبالة قاعة رقص فيلبينية مأجورة[1]. تحدثت الكتابات على الجدران ببلاغة عن أربعين فتاة جميلة وعن موسيقا لوني كيلولا الحالمة وألحانه من هاواي، صعدت سلسلة واحدة من الدرجات الصائتة إلى الكشك واشتريت بطاقة. كانت النساء الأربعين في الداخل مصطفات أمام الجدار المقابل، ناعمات في فساتين السهرة الضيقة، أغلبهن شقراوات. لم يكن أحد يرقص. على المنصة قرعت الفرقة الموسيقية الخماسية لحناً غاضباً. وقف بعض الزبائن مثلي خلف سياج قصير من الخيزران أمام الفتيات، لوحن لنا، عاينت المجموعة، وجدت شقراء أعجبني فستانها، اشتريت بعض بطاقات الرقص، ثم لوحت للشقراء، وقعت بين ذراعي مثل عاشق قديم وخبطنا بأقدامنا على خشب البلوط في رقصتين.

تحدثنا بهدوء وخاطبتني بحبيبي، لكنني لم أكن أفكر إلا بتلك الفتاة التي على بعد شارعين، أفكر بنفسي مستلقياً معها في الرمل جاعلاً من نفسي موضع سخرية. كان عديم جدوى. أعطيت للشقراء المتخمة حفنة بطاقاتي وخرجت من الصالة إلى الشارع ثانية. استشعرت حالة الانتظار بداخلي، وعندما واصلت النظر إلى ساعات الشارع عرفت مشكلتي، كنت أنتظر ساعة إغلاق مقصف كولومبيا في الحادية عشرة.

في الساعة الحادية عشرة إلا ربع، كنت في ساحة انتظار السيارات، توجهت إلى سيارتها، جلست على قماش التنجيد النافر وانتظرت. كان هناك سقيفة في جانب من زوايا الساحة يحتفظ فيها الحارس بحساباته، وفوق السقيفة ساعة من النيون الأحمر. ابقيت عيني على الساعة، مراقباً عقرب الدقائق

(1) نوع من صالات الرقص توفر للراقصين الذين هم عادة من الرجال، الراقصات والموسيقى ومكان الرقص مقابل أجر.

وهـو يجري نحو الحادية عشرة، كنت أخشـى رؤيتها ثانية وبينما كنت مرتبكاً أتلـوى في المقعـد وقعت يدي على شيء ناعم، كانت إحدى قبعاتها، قلنسـوة صوفيه، سوداء بعقدة صوفية صغيرة في القمة، تحسستها بأصابعي وشممتها بأنفـي، كانـت لها رائحتها. وهـذا ما أردته، دسسـتها في جيبي وخرجت من السـاحة، صعدت درج آنجل فلايت متوجهاً إلى الفندق. عندما وصلت إلى غرفتـي أخرجت القبعة ورميتها على السرير، خلعت ثيابي، أضأت المصباح، واحتويت القبعة بين ذراعي.

يوم آخر، شعر! اكتبْ لها قصيدة، اسكبْ قلبك لها في ايقاعات حلوة، لكنني لا أتقـن كتابة الشـعر. قافية سـيئة، وشـعور متخبـط. أوه يا يسـوع الذي في السـماوات، أنا لست كاتباً! لا أسـتطيع حتى أن أدون رباعية صغيرة، لا نفع لي في هـذا العالم. وقفـت إلى النافذة ولوحت بيدي إلى السـماء، بلا فائدة على الإطلاق، محض زائف رخيص، لا كاتب ولا عاشق، لست سمكة ولا طائر. ما الخطب؟

تناولـت الفطور وذهبت إلى الكنيسـة الكاثوليكية الصغـيرة عند طرف بنكر هيل. كان مسـكن القسـيس خلف مبنى الكنيسـة، قرعت الجـرس، فتحت البـاب امرأة في مريلة مربية، كانت يداهـا مغطاتين بالطحين والعجين، قلت لها:» أريد أن أرى الكاهن».

كان للمـرأة فك مربع وعينـان رماديتان حادتان و عدائيتـان، قالت:» الأب آبوت مشغول، ماذا تريد؟»

« لابد أن أراه»

« قلت لك إنه مشغول.»

قـدم الكاهن إلى الباب. كان قصيراً، قوياً، يدخن سـيجاراً، في الخمسـينيات من عمره، سـأل: « ماذا هناك؟»، قلت له إنني أريد أن أراه على انفراد، لدي مشـكلة تشـغلني. ازدرت المرأة باسـتهزاء واختفت في الصالة. فتح الكاهن الباب وقادني إلى غرفة مكتبه، كانت غرفة صغيرة محشوة بالكتب والمجلات،

twitter @baghdad_library

جحظت عيناي، ففي إحدى الزوايا توجد كومة كبيرة من مجلة هاكموث، توجهت إليها في الحال، وسحبت العدد الذي يحتوي على «ضحك الجرو».
جلس الكاهن على المقعد، قلت: « إنها مجلة عظيمة، أعظم المجلات.» صالب الكاهن ساقيه، أزاح سيجاره، وقال: « إنها فاسدة، فاسدة كلياً.»
قلت:» أنا أعترض، سأصبح واحداً من المساهمين الرئيسين فيها.»
سألني» أنت؟ وبم تساهم؟»
بسطت» ضحك الجرو» أمامه على المكتب، نظر إليها، دفعها جانباً، وقال: « قرأت تلك القصة، إنها كلام تافه. وإشارتك إلى القربان المقدس كانت كذبة رذلة ودنيئة. لابد أن تشعر بالعار من نفسك.»
كان مستنداً إلى الخلف في مقعده، كان واضحاً أنني لم أعجبه، تركزت عيناه الغاضبتان على جبهتي، تدحرج سيجاره في فمه من جانب إلى آخر، قال:
« الآن، ما الذي كنت ترجو رؤيتي من أجله؟»
لم أجلس، كان واضحاً من أسلوبه أنه لم يكن عليَّ استعمال أي من قطع الأثاث في الغرفة، قلت: « إنه عن فتاة»
« ما الذي فعلته لها؟»
« لا شيء،» قلت. لكن لم يعد باستطاعتي المزيد من الكلام، لقد خلع قلبي. كلام تافه! كل تلك الفوارق الدقيقة، وذلك الحوار البديع، وتلك الغنائية الرائعة–وقد اعتبرها كلاماً تافهاً. من الأفضل أن أغلق أذني وأذهب إلى مكان بعيد حيث ما من كلمة منطوقة. كلام تافه!
قلت:» غيرت رأيي! لا أود الحديث عنه الآن.»
نهض ومشى نحو الباب، قال:
« حسناً جداً، نهار سعيد.»
خرجت، أبهرتني الشمس الحارة. تلك القصة القصيرة تعد الأروع في الأدب الأمريكي، وهذا الشخص، هذا الكاهن وجدها كلاماً تافهاً. ربما ذلك الكلام عن القربان المقدس لم يحدث حقيقة، لكن يا إلهي، أي قيم

نفسية! أي نثر! أي جمال بهيج!
حال وصولي إلى غرفتي جلست إلى الآلة الكاتبة وخططت لانتقامي بكتابة مقالة فيها هجوم مرير على حماقة الكنيسة. التقطت العنوان: الكنيسة الكاثوليكية هالكة. نضدتها بغضب، صفحة تلو صفحة إلى أن كتبت ست صفحات، ثم توقفت لقراءتها. كانت المادة مريعة وسخيفة. مزقتها ورميت نفسي على السرير. فكرت بأنني لم أكتب قصيدة لكاميلا بعد. وأنا مستلق هناك، جاءني الإلهام، كتبتها من الذاكرة:
نسيت الكثير كاميلا! زهور نائية ذهبت مع الريح، زهور ترقص صاخبة مع الجمع لتبعد الزنابق الشاحبة الضائعة عن البال، لكنني كنت مهجوراً وسقيماً بشغف قديم، نعم، طوال الوقت، لأن الرقص استمر طويلاً، كنت مخلصاً لك كاميلا، كما عادتي.
آرتورو بانديني
أرسلتها كبرقية، فخوراً بها، راقبت موظف البرقيات وهو يقرأها، قصيدة جميلة، قصيدتي إلى كاميلا، قليل من الخلود من آرتور إلى كاميلا، دفعت رسوم البرقية ونزلت إلى مكاني في العتبة المعتمة وانتظرت هناك. جاء الفتى نفسه على دراجته. رأيته يسلمها الرسالة، راقبت كاميلا تقرأها وسط المكان، راقبتها تهز أكتافها وتمزقها مزقاً، رأيت القصاصات ترفرف نحو النشارة على الأرض. هززت رأسي وابتعدت، حتى شعر إرنست دوسون[1] لم يكن له تأثير عليها، حتى دوسون.
آه، حسناً، فلتذهبي إلى الجحيم يا كاميلا. يمكنني نسيانك، لدي المال، هذه الشوارع ملأى بأشياء لا يمكنك أن تقدميها لي، لذا أنزل الشارع الرئيس والشارع الخامس نحو الأحجار الطويلة الداكنة وقبو الملك ادوارد حيث توجد فتاة شعرها أصفر وابتسامتها سقيمة، اسمها جين، كانت نحيلة ومسلولة، لكنها كانت صلبة أيضاً، متشوقة جداً للحصول على نقودي،

(1) ارنست كريستوفر دوسون (1867-1900): شاعر إنجليزي وروائي وكاتب قصة قصيرة.

twitter @baghdad_library

فمها الواهن نحو شفاهي، أصابعها الطويلة عند بنطالي، عيناها المحببتان المريضتان تراقب كل دولار.

قلت لها:» إذن اسمك جين، حسناً، حسناً، حسناً، اسم جميل.» سنرقص يا جين، سننثني هنا وهناك، وأنت لا تعرفين الرقص، أنت غانية في فستان أزرق، لكنك ترقصين مع مخبول طريد من عالم البشر، لا سمكة ولا طائراً ولا فكرة مضللة جيدة. شربنا ورقصنا وشربنا ثانية، رفيق جيد بانديني، لذا دعت جين الرئيس، وعرفتني إليه « هذا السيد بانديني، هذا السيد شوارتز.» جيد جداً، تصافحنا «لديك مكان جميل يا شوارتز، فتيات لطيفات».

مشروب، اثنان، ثلاثة. ما هذا الذي تشربينه يا جين؟ تذوقته، تبدو مادته الضاربة إلى السمرة كالويسكي، لا بد أنها ويسكي، يا لقسمات وجهها! وجهها الحلو شديد الالتواء. لكنها ليست ويسكي، بل شاياً، شاياً عادياً، أربعون سنتاً ثمناً للكوب. جين، كاذبة صغيرة، تحاول خداع كاتب عظيم. لا تخدعيني يا جين. ليس بانديني، عاشق الانسان والحيوان على السواء. لذا خذي خمسة دولارات، أبعديها، لا تشربي جين، اجلسي فقط ودعي عيني تتفحص وجهك، لأن شعرك أشقر وليس داكناً، أنت لا تشبهينها، أنت مريضة ومن تكساس ولديك أم كسيحة عليك مساعدتها، لا تكسبين الكثير من المال، عشرون سنتاً فقط لقاء المشروب، لكن عليك أن تكسبي عشرين دولاراً من آرتورو بانديني الليلة، أيتها الفتاة الفقيرة الصغيرة، فتاة صغيرة فقيرة تتضور جوعاً بعينين حلوتين لطفل وروح لص. اذهبي إلى فتيتك من البحارة يا حبيبتي. ليس لديهم عشرة دولارات لكنهم يملكون ما لا أملك، أنا بانديني الذي لا هو سمكة ولا طائر ولا فكرة مضللة جيدة، تصبحين على خير جين، تصبحين على خير.

وها هنا مكان آخر وفتاة أخرى. أوه، كم كانت وحيدة! من مينيسوتا. من عائلة صالحة أيضاً. بالتأكيد حبيبتي. حدّثي أذنيّ التعبتين عن عائلتك الصالحة. تملك الكثير من الممتلكات ثم حلت الكآبة. حسناً، كم هو محزن!

كـم هو مأسـاوي! والآن أنت تعملين هنا في حانة رديئة في الشـارع الخامس واسمك إيفلين، إيفلين المسكينة، والأقارب هنا أيضاً، ولديك أخت لطيفة، ليست مثل المتشردين الذين تلتقينهم هنا، فتاة ممتازة، لم لا؟ جلبت أختها.
عـبرت إيفلـين البريئـة الصغيرة الغرفـة وسـحبت أختها الصغيرة المسـكينة فيفيـان من بين هـؤلاء البحّارة الحقراء وأتت بهـا إلى طاولتنا. مرحباً فيفيان، هـذا آرتورو. مرحباً آرتورو، هذه فيفيان. لكن ماذا حصل لفمك يا فيفيان؟ مـن حفره بسـكين؟ وماذا حدث لعينيـك المحتقنتين، ولنفسـك الحلو الذي يعبـق برائحـة المجارير؟ أطفال مسـاكين، كلهـم من مينوسـوتا المجيدة. أوه لا، هم ليسـوا من السـويد، مـن أين أتيت بهـذه الفكرة؟ كان اسـم عائلتهما مورتينسن، لكنه لم يكن سويدياً، لأن عائلتهما كانت أمريكية منذ أجيال.
بالتأكيد، مجرد اثنتين من فتيات الوطن، هل تعلم شيئاً؟ تخبرني إيفلين: تعمل فيفيـان الصغيرة المسـكينة هنا منذ سـتة أشـهر ولم يطلب لها أحـد من هؤلاء الأوغـاد زجاجة شـمبانيا، وأنا هناك يا باندينى، أبـدو كرجل ممتاز، ولم تكن فيفيـان ظريفة، ولم يكن هذا عار، إنها بريئة جداً، وهل سأشـتري لها زجاجة شـمبانيا. عزيـزتي الصغـيرة فيفيان، من الحقـول النظيفة في مينوسـوتا تماماً، وليست سويدية أيضاً، وتكاد تكون عذراء أيضاً، فض بكارتها بعض الرجال فقط. من يمكنه أن يرفض هذه الهدية؟ لذا هاتوا الشمبانيا، شمبانيا رخيصة، زجاجة من قياس الباينت فقط، يمكننا أن نشربها جميعاً، ثمانية دولارات ثمناً للزجاجة فقط، ويا هذا ألم يكن النبيذ رخيصاً هنا؟ لماذا هناك في دولوث كان ثمن زجاجة الشمبانيا 12 دولاراً؟
آه، إيفلين وفيفيان، أحبكما، أحبكما لحياتكما الحزينة، لتعاستكما العابثة في عودتكما إلى البيـت فجراً. أنتـما أيضاً وحيدتان، لكنكما لستما مثل آرتـورو باندينى الذي ليـس سـمكة أو طيراً أو فكرة مضللـة جيدة، لذا اشربا الشـمبانيا، لأنني أحبكما أنتـما الاثنتان، وأنت أيضاً يـا فيفيان، حتى ولو كان فمك كما لو أنه محفور بأظافر قاسية وعيناك الطفوليتان المسنتان تسبحان في دم مكتوب مثل سوناتات مجنونة.

twitter @baghdad_library

الفصل الحادي عشر

كان ذلك مكلفاً. على رسلك آرتورو، هل نسيت البرتقال؟ عددت ما بقي من نقود، كانوا عشرين دولاراً وبعض سنتات. كنت مرعوباً. أجهدت عقلي بالأرقام، مضيفاً كل ما صرفته. بقي عشرين دولاراً، مستحيل! لقد سُرقت، صرفت المال في غير محله، هناك خطأ في مكان ما. بحثت في الغرفة، فتشت في الجيوب والأدراج، لكن هذا كان كل ما تبقى، وكنت مرعوباً وقلقاً وعازماً على كتابة نص سريع آخر، شيء ما مكتوب بسرعة كبيرة لابد أن يكون جيداً. جلست إلى آلتي الكاتبة وهبط خواء كبير فظيع عظيم، ضربت رأسي بقبضتي، وضعت مخدة تحت عجيزتي المتألمة وأثرت ضجة صغيرة من الكرب. كانت بلا فائدة. كان لا بد أن أراها، ولا أهتم كيف فعلت ذلك.

انتظرتها في ساحة السيارات. ظهرت في الساعة الحادية عشرة عند تقاطع الطريق، وكان سامي الساقي معها. رأياني كلاهما من بعيد فأخفضت صوتها، وعندما وصلت إلى السيارة قال سامي:» مرحباً»، أما هي فقالت:» ماذا تريد؟»

« أريد أن أراكِ»

« لا يمكنني رؤيتك الليلة»

« في وقت متأخر من الليل.»

« لا يمكنني، أنا مشغولة.»

« لست مشغولة. يمكنك أن تريني.»

فتحت باب السيارة لأخرج، لكني لم أتحرك، قالت: « أخرج رجاء.»

« لن أفعل شيئاً» قلت.

ابتسم سامي، وتوقد ووجهها

« اخرج، اللعنة!»

« أنا باقٍ» قلت.
« هيّا كاميلا» قال سامي.
حاولت أن تشدني من السيارة، أمسكت بسترتي ونفضت وجرَّت.
قالـــت:» لمـاذا تتصرف هكـذا؟ لم لا يمكنك أن تفهم أنني لا أريد أن أفعل شيئاً معك؟»
« أنا باق» قلت.
« أنت أحمق!» قالت.
ســار سامي باتجاه الشارع. لحقت به وابتعدا، وكنت هناك بمفردي مذعوراً، أبتســم بوهــن على ما فعلته. حالمـا تواريا عن النظر خرجـت وصعدت درج آنجـل فلايت وهبطت إلى غرفتي. لم أتمكن من فهم سـبب فعلتي، جلسـت على السرير وحاولت أن أبعد ما حدث من تفكيري.
ســمعت صوت طرق عـلى بابي، لم تسـنح لي الفرصة لأقول ادخـل، فالباب انفتح، التفتّ فوجدت امرأة تقف على العتبة، ترمقني بابتسامة غريبة. ليست امـرأة ضخمـة ولا جميلة، لكنها بـدت جذابة وناضجة، لها عينان سـوداوان عصبيتـان تبرقـان، ذلك النوع مـن العيون الـذي تحصل عليه النسـاء نتيجة شرب الكثـير من الويسـكي، كانتـا شـديدتي اللمعان وكامدتـين وماجنتين للغاية. وقفت عند الباب دون أن تتحرك أو تنبس ببنت شـفة. كانت ترتدي ببراعة: معطفاً أسـود وقطعة من الفراء، حذاء أسـود، تنورة سـوداء، قميصاً أبيض وحقيبة صغيرة.
« مرحباً» قلت.
« ماذا تفعل؟»
«جالس فحسب.» قالت
كنت خائفاً. فمنظر تلك المرأة واقترابها أصاباني بالشـلل، ربما كانت الصدمة مـن رؤيتها بشـكل مفاجئ جـداً، أو ربـما كان بؤسي في تلـك اللحظة، لكن دنوها ببريق عينيها الكامد المجنون جعلني أرغب في أن أقفز وأضربها، وكان

twitter @baghdad_library

لا بـد مـن أن أهدئ نفسي. استمر الشـعور لحظة واحدة ثـم رحل. دخلت الغرفـة بتلك العينـين الداكنتين ترقبني بوقاحـة، أدرت وجهي نحو النافذة، غـير مهتـم لوقاحتها بـل للشـعور الذي عـبرني كالرصاصة. فاحـت رائحة عطرهـا في الغرفـة، العطر الـذي كان يعوم خلف النسـاء في أروقـة الفنادق الفخمة، والأمر برمته جعلني متوتراً وحائراً.

عندما اقتربت مني لم أنهض بل جلسـت سـاكناً، أخذت نفساً عميقاً، وأخيراً نظـرت إليهـا ثانية. كان طرف أنفهـا ممتلئاً لكنه لم يكن قبيحـاً وكان لها أيضاً شـفاه ثخينة دون حمـرة، لذا فقد كانتا ورديتان، لكن مـا نال مني هما عيناها، بريقهما، بهيميتهما، واستهتارهما.

مشـت نحو مكتبي وسحبت صفحة من الآلة الكاتبة، لم أعرف ما الذي كان يحدث، لم أكن قد قلت شـيئاً بعد، لكنني اسـتطعت أن أشـم رائحة الخمر في نفَسـها ثم رائحة عفنة مميزة جداً، لكنها فارقة حلـوة ومفعمة، رائحة القِدَم، رائحة هذه المرأة أثناء تقدمها في العمر.

ألقت بنظرة على النص فحسـب، كدَّرها فرمته من فوق كتفها ونزل متعرجاً على الأرض، قالت:

« ليست جيدة، لا يمكنك الكتابة، لا يمكنك الكتابة على الإطلاق.»

« شكراً جزيلاً» قلت.

بادرت بسـؤالها عـما تريد، لكنها لم تبدُ من النوع الذي يقبل الأسـئلة، قفزت من السرير وقدمت إليها الكرسي الوحيد في الغرفة، لم تكن راغبة بالجلوس. نظـرت إلى الكـرسي ثـم إليّ نظـرة تأملية، تبتسـم لعدم اكتراثهـا في الجلوس فحسـب، مشت حول الغرفة تقرأ بعض الأشياء التي ألصقتها على الجدران، كانـت بعـض المقتطفـات التـي طبعتها مـن منكـن وإمرسـون[1] ووايتمان. تهكمـت عليهم جميعاً. هراء، هراء، هراء، مومئة بأصابعها ومجعدة شـفاهها. جلسـت على السريـر، خلعت المعطف حتـى المرفقين، ووضعـت يديها على

(1) رالف والدو إمرسون (1803-182): كاتب مقالات أمريكي وشاعر.

شفتيها ونظرت إليّ بازدراء لا يطاق.
بروية وبشكل مسرحي بدأت تتلو:
ماذا ينبغي لي أن أكون سوى نبي وكاذب،
من كانت أمه جنية خبيثة، وأبوه راهباً؟
نبتت أسنانه على صليب وتربى تحت الماء،
ماذا ينبغي لي أن أكون سوى ابنة بالمعمودية لشيطان؟

كانت الأبيات لميلاي[1]، عرفت هذا في الحال، واستمرت في قراءتها، لقد عرفت ميلاي أكثر من ميلاي نفسها. أخيراً، انتهت، رفعت رأسها ونظرت إليّ قائلة: « هذا أدب! أنت لا تعرف شيئاً عن الأدب. أنت أحمق! »، وقعت في فحوى الأبيات وعندما توقفت فجأة لتندد بي كنت على البحر ثانية.

حاولت أن أجيب لكنها قاطعتني وانفجرت على طريقة باريمور[2] تتحدث بعمق ومأساوية، تغمغم بإشفاق على كل شيء، حماقة كل شيء، عبثية الكاتب السيء الميؤوس منه مثلي مدفون في فندق رخيص في لوس أنجلس، كاليفورنيا، من بين كل الأماكن، أكتب أشياء تافهة، لن يقرأها العالم أبداً ولن يكون هناك فرصة لينساها أبداً.

استلقت، عقدت أصابعها تحت رأسها، وتكلمت على نحو حالم إلى السقف:
« ستحبني الليلة، أنت أيها الكاتب الأحمق، نعم، الليلة ستحبني. »
قلت: « قولي، ما هذا، بأية حال؟ »
ابتسمت.
« هل يهم؟ أنت لا أحد، وقد أكون شخصاً ما، وطريق كل منا هو الحب. »
كان عطرها قوياً، أشبع الغرفة كلها حتى بدت أنها لها وليست غرفتي، وكنت غريباً فيها، وفكرت أنه من الأفضل أن نخرج حتى تتمكن من الحصول على

---

(1) ادنا سانت فنسنت ميلاي(1892–1950): شاعرة غنائية أمريكية.

(2) جون باريمور (1882–1942): ممثل مسرحي، سينمائي وإذاعي أمريكي. عضو من أعضاء أسرة درو وباريمور المسرحية.

twitter @baghdad_library

بعض من هواء الليل. سألتها إذا ما كانت تود أن نتمشى حول المبنى.
استقامت في جلستها بسرعة، وقال: « انظر! لدي المال، المال! سنذهب إلى مكان ما ونشرب»
قلت:»أمر محتوم! فكرة سديدة.»
ارتديت سترتي. وعندما التفت كانت تقف إلى جانبي، تضع أطراف أصابعها على فمي. كان ذلك العطر الغامض الحلو قوياً جداً على أصابعها ومرافقاً لي وأنا أمشي نحو الباب، أبقيته مفتوحاً وانتظرت مرورها من خلاله.
صعدنا الدرج ومررنا بالبهو. سررت عندما وصلنا إلى المكتب الأمامي، لأن صاحبة الفندق قد أوت إلى النوم، لم يكن هناك سبب لذلك، لكنني لم أرغب في أن تراني السيدة هارجريفز مع هذه المرأة. طلبت منها أن تمشي على أطراف أصابعها في البهو، وفعلت، استمتعت بذلك بشكل رهيب، كمغامرة مثيرة في أشياء صغيرة، طوت أصابعها حول ذراعي.
كان هناك ضباب على بنكر هيل، لكن ليس في وسط المدينة. كانت الشوارع فارغة، تردد صوت كعبها على الرصيف عبر المباني القديمة. شدت ذراعي وانحنيت لأسمع ما كانت تود أن تهمس به.
قالت:» ستكون رائعاً جداً! رائعاً جداً!»
قلت:» لننس ذلك الآن. حسبنا أن نمشي.»
أرادت شراباً، أصرت عليه، فتحت محفظتها ولوحت بورقة من فئة العشرة دولارات قائلة: « انظر، نقود! لدي الكثير من المال!»
نزلنا إلى بار سليمان عند الناصية حيث لعبت ألعاب البولينج. لم يكن هناك أحد سوى سليمان الذي وقف سانداً ذقنه بيديه، منشغلاً على العمل. مشينا نحو ظِلة أمام النافذة الأمامية، وانتظرتها لتجلس، لكنها أصرت بأن أجلس أولاً. جاء سليمان ليأخذ طلباتنا.
قالت:» ويسكي! الكثير من الويسكي.»
قطب سليمان.

« كوب قصير من البيرة لي» قلت.
كان سليمان يراقبها بجفاء متفحصاً، صلعته تتجعد عند الجبهة. استطعت أن أحس بالصلة الوثيقة، وعرفت فيما بعد أنها كانت يهودية أيضاً. ذهب سليمان إلى الخلف من أجل المشروبات وجلست هناك بعينيها المتأججتين، تضم يديها على الطاولة، تعقد أصابعها وتحلها. جلست أحاول أن أفكر بطريقة لمراوغتها.
« سوف يصلح الشراب مزاجك.» قلت.
قبل أن أعرفه كانت عند حنجرتي، لكن ليس بقسوة، أظافرها الطويلة وأصابعها القصيرة أمام لحمي وهي تتحدث عن فمي، فمي الرائع، أوه يا إلهي! أي فم لي!
قالت:» قبلني!»
قلت:» بالتأكيد، لنشرب أولاً.»
كزّت على أسنانها، وقالت:
« إذن، أنت أيضاً تعرف بأمري! أنت كالبقية، تعرف عن جروحي، ولهذا السبب لن تقبلني، لأنني أثير فيك القرف!»
فكرت، إنها مجنونة، عليَّ الخروج من هنا. قبّلتني، لفمها طعم السجق على خبز الشوفان. استندتْ إلى الخلف، تتنفس بارتياح. أخرجتُ منديلي ومسحت العرق عن جبهتي. عاد سليمان بالمشاريب. مددت يدي من أجل بعض المال، لكنها دفعت بسرعة. عاد سليمان ليجلب الباقي، ناديته وناولته ورقة، انفعلت واحتجت، ضاربة بكعبها وقبضتها، رفع سليمان يديه في نظرة يائسة وأخذ نقودها. في لحظة عودته التفتّ وقلت: « سيدتي، هذه حفلتك، عليَّ الذهاب.» سحبتني وطوقتني بذراعيها وقاومت إلى أن فكرت بأنه كان عبثاً، جلست للخلف وحاولت أن أفكر بطريقة أخرى للهرب.
جاء سليمان بالباقي. أخذت ربعاً منها وقلت لها إنني أود أن ألعب البولينج. أفسحت لي طريقاً دون أن تنطق بكلمة ونهضت ومشيت نحو الآلة. راقبتني

twitter @baghdad_library

مثل كلب ثمين، وراقبها سليمان كمجرمة. ومن ثم ربحت بالآلة، وناديت سليمان ليأتي ويتفحص النتيجة.

همست له: « من تكون تلك المرأة سليمان؟» لم يكن يعرف، أخبرني أنها أتت إلى هنا في وقت مبكر من المساء، تشرب قدراً كبيراً. قلت له إنني أريد الخروج من الطريق الخلفي، قال:» إنه الباب الذي على اليمين».

أنهت الويسكي ودقت الطاولة بالكأس الفارغ، تقدمتُ أخذت رشفة من البيرة، وطلبت منها أن تعذرني دقيقة، وأشرت بإبهامي نحو مرحاض الرجال. ربتت على ذراعي. كان سليمان يراقبني وأنا أسلك الباب المقابل لمرحاض الرجال الذي يقود إلى المخزن، كان الباب المؤدي إلى الزقاق على بعد بضعة أقدام في الاتجاه نفسه. وحالما كتم الضباب وجهي شعرت بتحسن، أردت أن أكون أبعد ما يمكن. لم أكن جائعاً لكنني مشيت مسافة ميل نحو كشك للسجق في الشارع الثامن وتناولت كوباً من القهوة لأقتل الوقت. عرفت أنها ستعود إلى غرفتي عندما تفتقدني، لديّ إحساس بأنها مجنونة، ربما لأنها تشرب الكثير من الخمر، لكن لا يهمني، لا أريد أن أراها ثانية.

عدت إلى غرفتي في الثانية صباحاً. كانت ما تزال شخصيتها وتلك الرائحة الغامضة من عصر قديم تستحوذ عليها، وكأنها لم تكن غرفتي على الإطلاق، لأنها كانت المرة الأولى التي تفسد فيها عزلتها الرائعة. كل سر من أسرار غرفتي بدا أنه انكشف. فتحت النافذتين وراقبت الضباب يعوم داخلاً في كتل حزينة متثاقلة. عندما أصبح الجو بارداً جداً أغلقت النوافذ ومع ذلك كانت الغرفة رطبة من الضباب وقد تغشت أوراقي وكتبي بالرطوبة، كان العطر ما يزال واضحاً هناك. بدت قبعة كاميلا تحت المخدة، مبللة أيضاً بالرائحة، وعندما ضغطتها على فمي كان كما لو أن فمي في الشعر الأسود لتلك المرأة. جلست أمام الآلة الكاتبة، أنقر المفاتيح بكسل.

عندما سمعت خطوات في الصالة وعرفت أنها قادمة، اطفأت الأضواء بسرعة وجلست في الظلمة، لكنني تأخرت كثيراً، لأنها لابد قد رأت الضوء

من تحت الباب، طرقت ولم أفتح. طرقت مجدداً، لكني بقيت جالساً ساكناً ونفثت سيجارة، ثم بدأت بالضرب على الباب بقبضتها متوعدة بأنها ستبدأ برفسه، وبأنها سترفس طوال الليل حتى أفتح، ثم بدأت بركله، وأحدثت ضجة هائلة ترددت في الفندق المتداعي، فهرعت وفتحت الباب.

« عزيزي!». قالت وهي تمدّ ذراعيها.

«يا إلهي! ألا تظنين بأن هذا فات عليه الكثير؟ ألا يمكنك أن تفهمي أنني نفرت؟»

« لماذا تتركني؟ لم تفعل ذلك؟»

«لدي ارتباط.»

«عزيزي، لم تكذب علي؟»

« أوه مجنونة.»

دخلت الغرفة وسحبت الصفحة من آلتي الكاتبة مجدداً. كانت تعج بكل أنواع الهراء، فيها بعض الجمل الغريبة، اسمي مكتوب عدة مرات، فضلاً عن بعض الشعر، لكن هذه المرة افترَّ ثغرها عن ابتسامة، وقالت:» يا للروعة! أنت عبقري! عزيزي أنت موهوب جداً.»

قلت:» أنا مشغول للغاية، هلا تخرجين من فضلك؟»

جلست على السرير كما لو أنها لم تسمعني، فكت أزرار سترتها، ودلت أقدامها قائلة:» أحبك، أنت حبيبي وستحبني»

قلت: « في وقت آخر، ليس الليلة، أنا تعب.»

فاحت منها تلك الرائحة الشذية.

« لست أمزح، أظن من الأفضل أن تذهبي. لا أريد أن أطردك.»

«أنا جد وحيدة» قالت.

قصدت ذلك. كان فيها شيء خاطئ ومتشابك، متدفق منها مع تلك الكلمات، وشعرت بالعار لقسوتي البالغة

فقلت،» حسناً، سنجلس هنا ونتحدث لبرهة من الوقت.»

سحبت كرسياً وجلست واضعاً ذقني على مسنده، أنظر إليها وهي مستكينة

twitter @baghdad_library

على السرير. لم تكن ثملة كما ظننت، كان فيها ثمة خطب ولم يكن الكحول وأردت أن أعرف ما هو. ثرثرت كثيراً بجنون، أخبرتني عن اسمها، وحدثتني عن نفسها، كانت مدبرة منزل لدى عائلة يهودية غنية في لونج بيتش، لكنها سئمت من عملها، أصلها من بنسلفانيا، فرت من البلاد، لأن زوجها لم يكن مخلصاً لها. في اليوم الذي أتت فيه إلى لوس أنجلس من لونج بيتش، رأتني في المطعم عند تقاطع شارعي أوليف والثاني، تبعتني وأنا عائد إلى الفندق، لأن» عيني اخترقت روحها». لكنني لم أتذكر أنني رأيتها هناك. كنت واثقاً بأني لم أرها من قبل. بعد معرفتها مكان إقامتي، كانت تذهب إلى بار سليمان وتثمل، تشرب طوال اليوم رغبة منها في أن تصبح متهورة وتذهب إلى غرفتي.

قالت:» أعرف كم أشعرتك بالتقزز، وبأنك تعرف عن جروحي والرعب الذي تخفيه ملابسي، لكن عليك أن تحاول نسيان جسدي القبيح، لأنني أنا جيدة حتى الصميم، أنا جيدة جداً، وأستحق أكثر من اشمئزازك» كنت صامتاً. « اغفر لجسدي!» قالت، طرحت ذراعيها علي، تدفقت الدموع على خديها، تابعت:» فكر بروحي! روحي جميلة جداً، يمكنها أن تجذبك كثيراً! ليست قبيحة مثل جسدي!»

كانت تبكي بشكل هستيري، ممددة على وجهها، يداها تلمس شعرها الداكن، وكنت عاجزاً، لم أعرف عما كانت تتحدث، آه، سيدتي عزيزتي، لا تبكي، ليس عليك أن تبكي، أمسكت بيدها الحارة وحاولت أن أخبرها بأنها كانت تقول وتعيد ما قالته، وأن كل ما قالته كان أخرقاً وجلداً للذات وسخيفاً، تحدثت إليها مومئاً بيدي ومتضرعاً بصوتي.

« لأنك امرأة ممتازة، وجسدك جميل جداً، وكل هذا الكلام هو هاجس ورهاب طفولي وصداع سببه الاكتئاب. لذا يجب ألا تقلقي وألا تبكي، لأنك ستتجاوزينه، أعرف أنك ستفعلين.»، لكنني كنت أخرق، وتسببت في زيادة معاناتها، لأنها كانت في جحيم خلقتها شديدة البعد عني، كما أن دوي

صـوتي جعل النقص يبدو أسـوأ. ثم تحدثت إليها عن أشـياء أخرى، محاولاً إضحاكها على هواجسي. انظري سـيدتي، آرتورو بانديني، لديه بعض منها! وسـحبت مـن تحت المخـدة قبعة كاميـلا والشرابة الصغيرة عليهـا.» انظري سـيدتي! لقـد نلتها أيضاً. هـل تعلمين ماذا أفعل يا سـيدتي؟ آخذ هذه القبعة الصغيرة السوداء معي إلى السرير، وأقربها مني، وأقول:» أوه، أحبك، أحبك أيتهـا الأمـيرة الجميلـة!»، ثم قلـت لها المزيـد، أوه، لم أكن مـلاكاً، في روحي بعض الاعوجاج والمنحنيات، لذا لا تظني أنك وحيدة سيدتي، لديك الكثير من الرفاق، لديك آرتورو بانديني، ولديه الكثير ليخبرك عنه.

استـمعي إلى هـذا: هـل تعرفين ماذا فعلـت ذات ليلة؟ آرتـورو يعترف بكل شيء: هـل تعرفين الأمر الفظيع الذي اقترفتـه؟ ذات ليلة جاءت امرأة جميلة جـداً إلى هـذا العالم على أجنحة من عطر، ولم أسـتطع تحملـه، ولم أكن أعرف مـن تكـون، امرأة في فـراء ثعلب أحمـر وقبعة صغـيرة أنيقة، تبعهـا بانديني، لأنهـا كانت أفضل مـن الأحلام، يراها تدخل «كهف سـمك برنشـتين»[1]، يراقبها بافتتان عبر نافذة تسـبح مع الضفادع والتروت[2]، يراقبها وهي تأكل وحيـدة، وعندمـا كانـت في ذلك، هل تعلمـين ماذا فعلـت؟ لا تبكي فأنت لم تسـمعي أي شيء بعـد، لأني مريـع سـيدتي، وقلبـي مليء بحبر أسـود، أنا آرتورو بانديني، مشـيت في «كهف سمك برنشـتين» وجلست على الكرسي نفسـه الذي جلسـتِ عليه، ارتعدت فرحاً، ولمست المنديل الذي استعملتِه، كان هناك عقب سيجارة عليه أثر لأحمر شفاه، هل تعلمين ماذا فعلت؟ أنت بمشـاكلك الصغيرة المسلية، أكلت عقب السيجارة، ومضغت التبغ والورق وكل شيء، ابتلعتـه وفكـرت بأن طعمه جيد، لأنها كانت جميلة جداً، كما كان

(1) مطعـم أسسـه موريس برنشـتاين في عـام 1912 ليكـون نسـخة من سـفينة كريسـتوف كولومبوس «نينيا»، معروف بمدخله الفريد، كان مقصد السـياح على مدى سنوات، أغلق في عام 1981.

(2) نوع من السمك.

twitter @baghdad_library

هنــاك ملعقة إلى جانب الطبق وضعتهــا في جيبي وكل مرة بين الحين والآخر كنت أخرج الملعقة من جيبي وأتذوقها، لأنها كانت جميلة جداً.

الحب بحســب الميزانية، بطلة مجانية مقابل لا شيء، وكل شيء من أجل قلب آرتورو باندينى الأســود، لتذكر عبر نافذة تســبح مع سمك التروت وأرجل الضفادع. لا تبكي يا ســيدتي، صوني دموعك من أجل آرتورو باندينى، فهو لديــه مشــاكل عظيمة، ولم أبــدأ بعد بالحديث لكن يمكننــي قول شيء ما لك عن ليلة على الشاطئ قضيتها مع أميرة سمراء، جسدها لا يعني شيئاً، قبلاتها كزهور ميتة، عديمة الرائحة في حديقة حبي.

لكنهــا لم تكــن تســمع، ترنحت عــن السرير وســقطت عــلى ركبتيهــا أمامي وتوســلتني لأقول لها إنها ليســت مقرفة، نشــجت: قل لي! قــل لي إنني جميلة مثل بقية النساء.»، قلت:» بالتأكيد، أنت كذلك! أنت جميلة جداً بالفعل!»

حاولت أن أرفعها، لكنها تشبثت بي باهتياج، ولم أستطع فعل أي شيء سوى محاولــة تهدئتها، لكنني كنت أخرق، شــديد النقــص، ولم تكن في متناولي، بل بعيدة جداً في الأعماق، لكني واصلت المحاولة.

بدأت الحديث ثانية عن جروحها، تلك الجروح الشــنيعة التي هدمت حياتها ودمرت الحب قبل أن يأتي وأبعدت الزوج عنها إلى ذراعي امرأة أخرى، كل هذا الكلام كان خيالاً بالنسبة إليّ وغامضاً، لأنها كانت وسيمة حقاً كما هي، لم تكن عاجزة أو مشوهة، ثمة الكثير من الرجال الذين قد يمنحونها الحب.

ترنحت على قدميها، تناثر شــعرها على وجههــا والتصقت بعض الخصلات عــلى خدودهــا المبللــة بالدموع، كانــت عيناهــا ملطختين، بــدت كمجنونة، مشــبعة بالمرارة، صرخت: «ســأريك، سترى بنفســك، أنت كاذب! كاذب! نفضت بكلتي بيديها متحررة من تنورتها الغامقة اللون وسقطت لتأوي عند كاحليهــا. خطــت فوقها، كانت حقيقــة جميلة في سروال تحتــي أبيض وقلت ذلــك. قلت:» لكنك جميلــة! قلت لك إنك جميلة!»، واصلت النشــيج وهي تفــك إبزيــم القميص، قلت لهــا ليس من الضروري أن تخلــع المزيد، أقنعتني

بلا شك ولم يكن من حاجة لتؤذي نفسها أكثر، قالت: «لا، سترى بنفسك.» لم تستطع حل المشابك في ظهر القميص، تقدمت نحوي وطلبت مني أن أفكها، لوحت بيدي قائلاً:» بحق الله، انسي الأمر، لقد أقنعتني. ليس عليك أن تتعري.»، نشجت بيأس وأمسكت بالقميص النحيل بيديها وشقته عنها بنفضة واحدة.

أدرت ظهري عندما بدأت برفع سروالها وتقدمت نحو النافذة، لأنني أعلم بأنها ستريني شيئاً بغيضاً، بدأت بالضحك مني، صرخت ومدت لسانها على وجهي القلق، وقالت:» نعم، نعم! انظر أنت تعرف سلفاً! أنت تعرف عنها!».

كان لابد من مواجهته، التفت، كانت عارية فيما عدا الجورب والحذاء، رأيت الجراح عند الأعضاء التناسلية، كانت وحمة أو حرقاً أو ما شابه، كان مكانها جافاً ذابلاً يرثى له، مهجوراً لا يوجد لحم فيه، بدت الأشياء فجأة في هذا المكان صغيرة ومجعدة، واللحم بدا ميتاً، أطبقت فكي ثم قلت:» ما هذا؟ هل هذا كل شيء؟ فقط ذلك؟ إنه لا شيء، ترهة فحسب»، لكن كانت تعوزني الكلمات، كان علي أن أقولها بسرعة أو أنها لن تصاغ أبداً، تابعت قائلاً:» إنه سخيف، أنا بالكاد لاحظته، أنت جميلة، أنت رائعة!»

تفحصت نفسها بفضول، غير مصدقة ما قلت، ثم نظرت إليّ ثانية، لكنني أبقيت عيني على وجهها، شعرت بتقزز معدتي العائم، تنفست الرائحة الحلوة السميكة لحضورها، وكررت قولي بأنها جميلة، والعالم انزلق مثل أنين، كانت جميلة جداً، فتاة صغيرة، طفلة عذراء، جميلة جداً ومن النادر أن ترى مثلها، رفعت سروالها ووضعته على رأسها دون أن تنطق بأي كلمة، كانت محمرّة خجلاً مع دندنة ورضا غامق في حلقها.

اعتراها الخجل الشديد دفعة واحدة وبدت مبتهجة جداً، ضحكت، لأنني وجدت الكلمات تأتي بسلاسة الآن، رددت على مسامعها مراراً وتكراراً كلامي عن حسنها وإلى أي درجة كانت سخيفة. لكن قلها بسرعة آرتورو، قلها بسرعة، لأن شيئاً ما كان يسري فيَّ، ويجب عليّ أن أخرج، لذا قلت لها إن

twitter @baghdad_library

علـيَّ أن أنزل الصالة دقيقة، وأن ترتدي ثيابها في هذا الوقت. غطت نفسـها، كانـت عيناها تسـبحان في فرح وهي تراقبني مغـادراً. نزلت إلى نهاية الصالة نحو بسطة مهرب النجاة، وهناك لم أستطع منع نفسي من البكاء، لأن الله كان مجرماً سـافلاً، بغيضاً وضيعاً، أي شيء فعله لتلك المرأة؟ انزل من السـماوات يا الله، انزل وسأطرق وجهك في كل مكان من مدينة لوس أنجلس، أنت أيها المضحـك البائس الذي لا يغفر له. إذا لم يكن من أجلك، لما كانت هذه المرأة مشـوهة، ولا العالم أيضاً، وإذا لم يكن من أجلك كان بإمكاني أن آخذ كاميلا لوبيز إلى الشـاطئ، لكن لا! عليك أن تلعب خدعك: أنظر ماذا فعلت لتلك المرأة، ولحب آرتورو بانديني لكاميلا لوبيز. بدت مأسـاتي أعظم من مأسـاة المرأة، ونسيتها.

عندمـا عدت كانت قد ارتدت ثيابها وسرحت شـعرها أمـام المرآة الصغيرة، ووضعت القميص الممزق في جيب معطفها. بدت متعبة جداً وسعيدة بصفاء أيضـاً، قلت لها إنني سـأرافقها في وسـط المدينـة إلى محطة القطـار الكهربائي حيث ستستقل القطار الذاهب إلى لونج بيتش. لكنها لم تكن راغبة في ذلك، كتبت عنوانها على قصاصة ورقية، قلت لها:

«يوما ما سآتي إلى لونج بيتش»

« سأنتظر وقتاً طويلاً، لكنك ستـأتي.»

عند الباب تودعنا. أخرجت يدها كانت دافئة جداً ومرحة.

قالت:» وداعاً، اعتنِ بنفسك.»

« وداعاً فيرا.»

لم يكن هناك عزلة بعد مغادرتها، لم يكن هناك مهرب من ذلك العطر الغريب. استلقيت، حتى كاميلا التي كانت تحت المخدة مع قبعة صوفية للرأس بدت بعيدة جداً ولم أسـتطع استعادتها. شعرت برغبة وحزن على نحو بطيء، كان بإمكانـك أن تمتلكهـا أيها الأحمق، كان باسـتطاعتك أن تفعل ما يسرك، تماماً مثـل كاميـلا، لكنك لم تفعل شـيئاً. طوال الليل كنت أتلفـت في نومي. كنت

أنهض لأتنفس الحلاوة الثقيلة التي خلفتها وراءها، وألمس الأثاث الذي لمسته، وأفكر بالشعر الذي ألقته. عندما غفوت لم أتذكره، عندما استيقظت كانت الساعة العاشرة صباحاً وما زلت متعباً، أستنشق الهواء وأفكر بلا هوادة بما حصل. ربما قلت لها الكثير، وكانت لطيفة جداً. ربما قلت انظري فيرا كذا وكذا هي الحالة، وحصل كذا وكذا، وإذا ما استطعت فعل كذا وكذا ربما لن يحصل مجدداً، لأنه كذا وكذا شخص يفكر كذا وكذا عني، لكن الكلام وصل إلى نهايته، سأموت وأنا أعيد المحاولة، لكن الكلام انتهى.

جلست طوال اليوم تقريباً أفكر بالأمر، وفكرت ببعض الإيطاليين الآخرين، كازانوفا وسيليني، ومن ثم فكرت بآرتورو بانديني، وكان عليَّ أن ألكم رأسي. فكرت بلونج بيتش، وقلت لنفسي ربما عليَّ أن أزور المكان، وربما فيرا، لأتحدث معها حول مشكلة عظيمة. فكرت بذلك المكان الشاحب، وبالجرح على جسدها، وحاولت أن أجد كلمات تصفه، لأجعلها صالحة على صفحة المخطوط. ثم قلت لنفسي إن فيرا بكل عيوبها قد تصنع معجزة، وبعد أن تحدث المعجزة سيواجه آرتورو باندينى الجديد العالم وكاميلا لوبيز، باندينى والديناميت في جسده ونار بركانية في عينيه يذهب إلى كاميلا لوبيز ويقول: انظري هنا أيتها الشابة، كنت صبوراً معك، لكن الآن اكتفيت من استخفافك، وستتفضلين عليَّ بخلع ملابسك. هذه الأوهام أسرتني وأنا استلقي هناك أراقبها تنتشر على السقف.

بعد ظهيرة أحد الأيام، أخبرت السيدة هارجريفز بأنني سأتغيب يوماً أو أكثر وأن لدي بعض الأعمال في لونج بيتش، انطلقت، عنوان فيرا في جيبي، قلت لنفسي، باندينى، حضر نفسك لمغامرة عظيمة، دع روح الفتح تتملكك. على الزاوية التقيت بهيلفريك، يسيل لعابه لمزيد من اللحم. أعطيته بعض المال وانطلق إلى متجر اللحوم. ثم نزلت إلى محطة القطار الكهربائي وركبت الحافلة الحمراء الذاهبة إلى لونج بيتش.

twitter @baghdad_library

الفصل الثاني عشر

كان صندوق البريد باسم فيرا ريفكن_ وذلك اسمها الكامل_عند رأس لونج بيتش، في الجانب الآخر من الشارع قرب الدوارة المرحة والأفعوانية. توجد قاعة البلياردو في الأسفل، تعلوها بعض الشقق السكنية. لا يمكن أن تكون مخطئاً في العنوان، لأن تلك الأدراج قد تشرّبت رائحتها. كان عمود الدرابزين معوجاً ومقوساً، وطلاء الحائط الرمادي ناتئاً، وبقع منفوخة تصدعت عندما دفعتها بإبهامي. عندما طرقت، فتحت الباب، وقالت:" بهذه السرعة؟".

خذها بين ذراعيك بانديني. لا تجفل من قبلتها، انطلق بلطف، بابتسامة، قل شيئاً." تبدين رائعة،" قلت. لم تتح لي فرصة للكلام، كانت فوقي ثانية، تتشبث مثل عريشة رطبة، لسانها مثل رأس حية مرعوبة، يتفحص فمي. أوه أيها العاشق الإيطالي العظيم بانديني، استجب! أوه أيتها الفتاة اليهودية، لو تكونين لطيفة جداً، ليتك تقاربين هذه الأمور بروية أكثر! ثم تحررت من جديد، أبحث عن النافذة قائلاً شيئاً عن البحر والمنظر في الخلف." إطلالة ظريفة" قلت. لكنها كانت تخلع عني معطفي، وتقودني إلى كرسي في الزاوية، تخلع حذائي." استرح" قالت. ثم رحلت، جلست وأسناني تصر، أنظر إلى الغرفة التي تشبه ملايين الغرف في كاليفورنيا، القليل من الخشب هنا وقليل من الخرق هناك، الأثاث، بيوت العنكبوت في السقف والغبار في الزوايا، غرفتها، وغرفة الجميع، لوس أنجلس، لونج بيتش، سان دييجو، بعض ألواح من الجص والجير للحماية من الشمس.

كانت في جحر صغير أبيض يُسمى مطبخاً، فيه مقالي متناثرة وكؤوس مجلجلة، جلست وتساءلت لمَ تكون شيئاً عندما كنت وحيداً في غرفتي وشيئا آخر في اللحظة التي كنت فيها معها. بحثت عن بخور، تلك الرائحة الحلوة،

لا بـد أنها تـأتي من مكان ما، لكن لم يكن في الغرفـة بخور يحترق، لا شيء في الغرفة سوى أثاث قذر منجد أزرق، طاولة عليها بعض الكتب، ومرآة فوق لوح سرير قابل للطي. خرجت من المطبخ بكأس من الحليب في يدها، قدمته إليّ قائلةً:" تفضل، شراب بارد."

لكنـه لم يكن بارداً على الإطلاق، يكاد يكون سـاخناً، يعلوه غثاء ضارب إلى الصفرة، عندما ارتشـفته تذوقت شفاهها والطعام الحامي الذي أكلته، طعم خبـز الشـوفان والجبن، قلت:" إنـه جيد، لذيذ." كانت جالسـة عند قدمي، يداهـا على ركبتي، تحدق بي بعينين جائعتين، عيون مريعة كبيرة جداً يمكنني أن أضيـع فيهـا. كانت كما رأيتها أول مرة بالملابس نفسـها، كان المكان مقفراً جـداً فعرفـت أنها لا تملك سـواها، لكنني أتيـت قبل أن يتسـنى لها أن تضع المسـاحيق أو حمرة الشفاه، والآن رأيت نحت العمر تحت عينيها وفي خديها. عجبـت مـن أنني لم أنتبه إلى تلك الأشـياء في تلك الليلة، ثـم تذكرت أنني لم أفوتهـم على الإطلاق، رأيتهـم من خلال الحمرة والمسـاحيق، لكنهم تواروا بعـد يومـين من الخيال والحلم فيها، والآن أنا هنـا، وعرفت بأنه لم يكن يجب عليّ أن آتي.

تحدثنا معاً، سألتْ عن عملي، لكنها لم تكن مهتمة بعملي. وعندما أجبت كان جـوابي ادعاء، فأنـا أيضاً لم أكن مهتـماً بعملي، يوجد شيء واحـد فقط يهمنا، وهي تعرفه، لأنني جعلته واضحاً بمجيئي.

لكن أين كانت كل الكلمات؟ وأين كانت كل الرغبات الصغيرة التي جلبتها معـي؟ وأين كانت أحلام اليقظة تلك؟ وأين كانـت رغبتي؟ وما الذي حل بشـجاعتي؟ ولماذا أجلس وأضحك بصوت مرتفع على أشياء ليست ممتعة؟ إذن، هيّـا بانديـني جِد رغبة قلبك، تناولْ لهفتك كما في الكتب. شـخصان في غرفـة، أحدهما امـرأة، والآخر آرتـورو بانديني، الذي ليس سـمكةً أو طيراً أو فكـرة مضللة. خيم صمت طويل آخـر، رأس المرأة في حضني وأصابعي تلعب في العش الداكن، برزت خصل من الشـعر الأبيض. استيقظْ آرتورو!

twitter @baghdad_library

لا بـد أن كاميلا لوبيـز تراك الآن بعيونهـا الكبيرة السـوداء، حبك الحقيقي، أميرتك من المايا.

يـا يسـوع! آرتـورو، أنت رائـع! ربما كتبت ضحـك الجرو، لكنـك لم تكتب ذكريـات كازانوفـا، مـاذا تفعل بجلوسـك هنا؟ تحلـم بتحفة عظيمـة؟ أوه، أيها الأحمق، باندينـي! رفعت بصرها نحوي، رأتني بعيون مغلقة، ولم تعرف أفكاري، لكن ربما عرفت، لذلك قالت: "أنت متعب، لابد أن تأخذ قيلولة"، ربما لهذا سحبت السرير القابل للطي وأصرت على أن استلقي عليه وهي إلى جانبي، رأسها بين ذراعي، ربما تتفحص وجهي، لهذا سألت:

" هل تحب شخصاً آخر؟"

قلت:" نعم، أحب فتاة في لوس أنجلس."

لمست وجهي، وقالت:" أعرف، أفهم."

" لا، لا تفهمـين."، رغبـت في أن أخبرها عن سـبب مجيئي، كان الكلام على طرف لساني، يتقافز لأنطق به، لكنني عرفت بأنني لن أتكلم في ذلك الوقت. استلقت إلى جانبي ونظرنا في فراغ السقف، وعبثت بفكرة إخبارها. قلت: " هناك شيء ما أريد أن أخبرك به، ربما تسـتطيعين مساعدتي"، لكنني لم أضف شـيئاً. لا، لا أسـتطيع أن أقول لها، كنت اسـتلقي هناك آملاً في أنها بطريقة ما ستعرفه بنفسـها، وعندما واصلت السؤال عنه شعرت بالضيق، لأني عرفت أنهـا كانت تديره بطريقة خاطئة، هـززت رأسي وأبديت نفاذ الصبر، قلت:" لا تتحدثي عن الموضوع، إنه شيء لا يمكنني أن أبوح لك به."

قالت:" أخبرني عنها"

لا أسـتطيع أن أكـون مع امـرأة وأتحدث عن عجائب أخـرى، ربما كان ذلك سـبب سـؤالها:" هل هـي جميلـة؟"، أجبت بأنها كذلـك. ربما هذا مـا دفعها لسـؤالي: "هـل تحبك؟"، قلت إنهـا لا تحبني، ثم خفق قلبـي في حلقي، لأنها كانـت تقـترب أكثر وأكثر ممـا رغبـت في سـؤاله، وانتظرت وهـي تلاطف جبهتي. " ولم لا تحبك؟"

وكان هو السؤال، سأجيب عليه وسأكون على بينة، لكنني قلت:" هي لا تحبني فحسب، هذا كل شيء."
" لأنها تحب شخصاً آخر؟"
" لا أعرف ربما."
ربما هذا وربما ذاك، أسئلة، أسئلة، امرأة جريحة متعقلة، تتلمس طريقها في الظلمة، باحثة عن عاطفة آرتورو بانديني، لعبة من السخونة والبرودة، وبانديني متشوق إلى تقديمها.
سألتني: "ما اسمها؟"
أجبت: "كاميلا"
استوت في جلستها، لمست فمي.
"أنا وحيدة جداً، تخيّل أنني هي."
"نعم، هذا هو اسمك، إنه كاميلا."
فتحت ذراعي وغاصت في صدري، وقالت:
"اسمي كاميلا".
"أنت جميلة، أنت أميرة من أميرات المايا."
"أنا الأميرة كاميلا."
"كل هذا البر والبحر لك، لا يوجد كاليفورنيا، ولا لوس أنجلس، لا يوجد شوارع مغبرة، ولا فنادق رخيصة، ولا صحف نتنة، ولا يوجد أناس كسيرون مقتلعون من الشرق، ولا شوارع مزخرفة. هذه أرضك الجميلة مع الصحراء والجبال والبحر. أنت أميرة وتحكمينها جميعها "
قالت وهي تنشج: "أنا الأميرة كاميلا، لا يوجد أميركيون، ولا كاليفورنيا، فقط صحاري وجبال وبحر، وأنا أحكمها كلها."
" أنا قادم."
" تعال."
" أنا نفسي، أنا آرتورو بانديني، أنا أعظم كاتب في العالم أبداً"

twitter @baghdad_library

" آه، نعـم، بالطبع!! آرتورو بانديـني، عبقري الأرض"، دفنت وجهها في كتفـي وانهمـرت دموعهـا الحارة على عنقي، ضممتها بشـدة أكـبر، قالت:" قبّلني آرتورو."

لكننـي لم أقبّلهـا. لم أكـن قد دخلت في الحالـة بعد، كان يجـب أن يحدث على طريقتـي أو لا شيء، قلـت:» أنـا فاتـح، أنـا مثل كورتيـز، أنا إيطـالي فقط»، شـعرت به الآن، كان حقيقياً ومرضياً، وسرى الفرح بداخلي، كانت السـماء الزرقاء عبر النافذة سـقفاً، والعالم برمته شيئاً صغيراً في راحة يدي. ارتعشت مبتهجاً، وقلت:

«كاميلا، أحبك كثيراً!»

لم يكـن هنـاك ندوب أو منطقة متيبسـة. كانـت كاميلا كاملـة ومحبوبة. كانت تنتمي إليّ، وكذلك العالم. وكنت مسروراً بدموعها، أثارتني وجعلتني أسمو، وأخذتها. بعدئذٍ نمت بصفاء متعب، أتذكر بغموض من خلال غشاوة التعب أنهـا كانت تنشـج لكننـي لم أهتم، فهي لم تعـد كاميلا الآن، بل فـيرا ريفكين، وكنت في شقتها وسأنهض لأغادر حالما أحظى بالقليل من النوم.

عندمـا نهضـت كانـت قـد رحلـت، كل شيء في الغرفـة يشـير إلى رحيلهـا، فالنافذة مفتوحة، تهب السـتائر بلطف، باب الخزانة موارب، علاقة المعطف عـلى المقبض، كأس الحليب الممتلئ إلى نصفه في مكانه حيث تركته على ذراع الكرسي. أشياء صغيرة اتهمت آرتورو بانديني، لكن عيناي شعرتا بالانتعاش بعد النوم وكنت جزوعاً للذهاب وعدم العودة مجدداً. كانت الموسيقا تصدح في الشـارع من الدوارة المرحة. وقفـت إلى النافذة، نظرت إلى امرأتين تعبران في الأسفل.

قبـل المغـادرة وقفت عنـد الباب وألقيـت نظرة أخـيرة على الغرفـة. عاينتها جيـداً، لأن هذا هو المكان وهنـا صنع التاريخ، ضحكـت. آرتورو بانديني، رفيق لطيف، واسـع المعرفة، يجب أن تسمع حديثه حول النساء. لكن الغرفة بـدت فقيرة جـداً، تبتهل طالبـة الدفء والفـرح. غرفة فـيرا ريفكن. كانت

لطيفـة مع آرتورو بانديـنـي، وكانت فقيرة. أخرجت لفافة صغيرة من جيبي، وسـحبت منها دولاريـن، ووضعتهما على الطاولة، ثم نزلـت الدرج، رئتاي ملآنتـان بالهواء، ابتهجت، عضلاتي أقوى بكثير مما كانت في أي وقت مضى، لكن كان هناك مسحة من الظلمة في مؤخرة عقلي.

مشيت في الشارع بمحاذاة الدوارة المرحة وتلمست الاعترافات التي بدأت تأتي بقوة، بعض السلام المشوش، شيء ما غامض ينضح في عقلي ولا يمكن وصفـه. توقفت عند بسـطة هامبرجـر وطلبت قهوة. زحفـت فوقي-دونما هوادة، الوحدة. ما المشكلة؟ تفحصت نبضي. كان جيداً. نفخت على القهوة وشربتهـا وكانـت قهـوة جيـدة. بحثت، شـعرت بأصابع عقلي تمتـد لكن لا تمـس تماماً مـا كان يزعجني في المؤخـرة. ومن ثم ضربني مثـل وعيد الرعد، مثـل الموت والدمار. نهضت من النضد وابتعـدت خائفاً، أحث خطاي على الممشـى الخشـبي، أعبر بالناس الذين بدوا غرباء وكالأشـباح: بدا كما لو أن العالم أسطورة وسطحاً شفافاً، وكل شيء فوقه يقيم مدة وجيزة فقط، جميعنا، بانديـنـي وهاكمـوث وكاميـلا وفـيرا، جميعنا هنا لفـترة وجيزة، ثم سـنكون في مـكان آخـر، لم نكن أحيـاء قطّ، اقتربنـا من الحيـاة، لكن لن نبلغهـا أبداً. سنموت، الجميع سيموتون، حتى أنت آرتورو، حتى أنت لابد أن تموت.

عرفـت ما الذي كان يكتسـحني، كان صليباً أبيض عظيماً مصوّباً إلى دماغي يخـبرني بأنني كنت أحمق، لأني كنت على وشـك أن أمـوت، ولم يكن هناك ما يمكننـي فعله بهذا الشـأن. أعترف بالذنب، أعترف بالذنـب، ذنب لا يغتفر آرتـورو. لم يكـن عليـك أن ترتكب الزنا. هـذا ما كان، وهـو متواصل حتى النهاية، يؤكد لي بأنه ليس هناك مهرب مما فعلت، كنت كاثوليكياً، وكان هذا ذنب لا يغتفر بحق فيرا ريفكين.

في نهاية سلسـلة الاعترافات ظهر رمل الشـاطئ وخلفـه الكثيبات. خضت في الرمل إلى المكان الذي تخفي فيه الكثيبات الممشـى الخشـبي. هذا اسـتلزم التفكير، لن أركع، جلسـت وشاهدت الأمواج المتكسرة تأكل الشاطئ. هذا

twitter @baghdad_library

سيء آرتـورو، عليـك أن تقرأ نيتشـه وفولتير، عليك أن تعـرف المزيد، لكن التعقـل لم يكــن مجدياً، يمكننــي أن أكون عاقلاً، لكن هــذا لم يكن دمي، دمي الـذي أبقـاني حياً، كان دمي المصبـوب في داخلي يقول لي إن هــذا كان خطأ. جلسـت هنـاك ومنحت نفـسي لدمـي، تركته يحملني أسـبح عائـداً إلى بحر بدايـاتي العميق. فيرا ريفكن، آرتورو باندينـي لم يكن يقصد ذلك قطّ. كنت عـلى خطأ، لقـد ارتكبت ذنبـاً لا يغتفر، يمكننــي أن أحله رياضياً، فلسـفياً، نفسـياً، يمكنني أن أثبته بطرق عدة، لكنني كنت على خطأ، لأنه لم يكن هناك رفض لدفـء ذنبي بل لتواتره.

بروح مريضة حاولت مواجهة محنة طلب الغفران، ممن؟ أي إله؟ أي مسيح؟ لقد كانا خرافتين آمنت بهما ذات مرة، والآن هما عقيدتان أشعر بأنهما خرافتان. هــذا هو البحـر، وهذا هو آرتـورو، البحر حقيقي، وآرتـورو يؤمن بالواقع. بعدئذٍ أدرت ظهري للبحر، كنت أرى اليابسـة أنّى توجهت بنظري، مشيت ومشـيت، ومـا يزال البر يمتـد مبتعداً عن الأفق. منذ سـنة، خمس سـنوات، عـشر سـنوات، لم أر البحر. قلت لنفـسي، لكن ماذا حـل بالبحر؟ وأجبت، البحـر هناك في الخلف، في مسـتودع الذكريات، البحـر خرافة، لم يكـن هناك من بحر، لكن كان هناك بحر! أقول لك إنني ولدت على الشاطئ! اغتسلت في مياه البحر! منحني الغذاء والسـلام، ومسافاته الآسرة غذّت أحلامي! لا آرتـورو، لم يكن هناك بحر قطّ، أنت تحلم وتتمنى، لكنك تمضي عبر البوادي ولن ترى البحر مجدداً. لقد كان خرافة آمنت بها مرة. - لكن، علي أن أبتسم، لأن ملـح البحر في دمـي، وربما هناك عشرة آلاف من الطرق على البر، لكنها لن تشوشني أبداً، لأن دم قلبي سيعود أبداً إلى مصدره الجميل.

وحينئـذٍ ماذا سـأفعل؟ هل سـأرفع فمي إلى السـماء؟ أتخبط وأهذي بلسـان خائـف؟ هـل علي أن أفتح صـدري وأضربه مثل طبل صاخب، أنشـد لفت انتباه مسيحي؟ أوَ ليس من الأفضل وأكثر عقلانية أن أغطي نفسي وأمضي؟ سـيكون هناك التباسـاً وجوعاً، سـيكون هناك وحدة مـع دموعي فقط مثل

طيور مبللة صغيرة معزية، تهوي كي تحلي شفاهي الجافة. سيكون هناك أيضاً عزاء وجمال مثل حب فتاة ميتة. سيكون هناك بعض الضحك، ضحك مكبوت، ينتظر هادئاً في الليل، سيكون هناك خوف ناعم من الليل مثل قبلة الموت الساخرة المفرطة. وبعدئذٍ سيكون الليل، وزيوت حلوة من شواطئ بحري، مسكوبة على حواسي من قبل القباطنة الذين هجرتهم في اندفاعات شبابي الحالمة. لكن سأكون مسامحاً على هذا وعلى أشياء أخرى من أجل فيرا ريفكين، ومن أجل الخفقان الدائم لأجنحة فولتير، للتوقف وللاستماع ومشاهدة ذلك الطائر الآسر، من أجل كل الأشياء، سيكون هناك غفراناً عندما أعود إلى موطني على البحر.

نهضت واتأدت في مشيتي عبر الرمل العميق نحو الممشى الخشبي. كان المساء قد حلّ، والشمس تبدو ككرة حمراء جسورة وهي تغرق خلف البحر، كان هناك شيء ما لاهث في السماء، توتر غريب، ثمة حشد أسود من النوارس تطوف ساحل البحر الجنوبي القصي، توقفت لأفرغ حذائي من الرمل، متوازناً على قدم واحدة، انحنيت على دكة حجرية، فجأة شعرت بدمدمة ثم هدير. سقطت الدكة الحجرية مبتعدة عني وخبطت في الرمل، نظرت خلف خط أفق لونج بيتش، كانت المباني الطويلة تتأرجح، تراجع الرمل من تحتي، ترنحت، وجدت مقراً أكثر أمناً، كان الزلزال مجدداً.

كان هناك صيحات ثم غبار ومن ثم انهيار وهدير. درت حول نفسي في حلقة، فعلت ذلك، لقد فعلت ذلك. وقفت بفم مفتوح، مشلولاً، أبحث عني. ركضت بضع خطوات نحو البحر. وركضت عائداً.

لقد فعلتها آرتورو. هذا غضب الرب، فعلتها. تواصل الهدير مثل سجادة على الزيت، اصطخب البحر والبر، علا الغبار، سمعت من مكان ما قرقعة الكتل الصخرية، سمعت صراخاً ثم صفارة إنذار، هرع الناس من الأبواب، غيوم عظيمة من الغبار، فعلتها آرتورو. عالياً في تلك الغرفة على ذلك السرير فعلتها، عندئذٍ كانت أعمدة النور تتهاوى، تهشمت المباني مثل بسكويت هش مكسر،

twitter @baghdad_library

صراخ، رجال يصيحون، نساء تصرخ، مئات من الأشخاص هرعوا من المباني، يهرولون هاربين من الخطر، امرأة ممددة تضرب الرصيف بيديها، فتى صغير يبكي، الزجاج يتشظى ويتناثر، أجراس المطافي، صفارات إنذار، أبواق.

عندئذ كانت الهزة الكبرى قد انتهت، ثمة ارتدادات، تواصل الهدير عميقاً في الأرض، تطوحت المداخن، تساقط القرميد وغمر الغبار الرمادي كل شيء. وما زالت الاهتزازات متواصلة، الرجال والنساء يهرعون نحو الساحة الفارغة بعيداً عن المباني.

هرعتُ إلى الساحة، امرأة مسنة تبكي بين الوجوه البيضاء، رجلان يحملان جثة، كلب مسن يزحف على بطنه، يجر ساقيه الخلفيتين، العديد من الأجساد عند زاوية الساحة إلى جانب الأغطية المتناثرة الغارقة بالدماء التي تغطيهم، سيارة إسعاف، طالبتا مدرسة ثانوية، أذرع معقودة، ضحك. نظرت إلى الشارع، كانت المباني الأمامية قد سقطت، أسرة معلقة من الجدران. حمامات مكشوفة، كان الحطام بسماكة ثلاث أقدام في الشارع، والرجال يهتفون بالأوامر. كل زلازل يجلب المزيد من الأنقاض المتهاوية. تنحوا جانباً، انتظروا ثم اندفعوا مجدداً.

كان يجب أن أذهب، مشيت إلى السقيفة، ارتجت الأرض من تحتي، فتحت باب السقيفة، شعرت بما يشبه الدوار. كانت الأجساد مصفوفة في الداخل، تغطيها الملاءات، والدم يرشح منها. دم وموت، خرجت ونزلت. وما زالت الزلازل، واحد بعد الآخر.

أين كانت فيرا ريفكن؟ نهضت ومشيت إلى الشارع، كان قد أغلق، خفرت قوات المارينز بالحِراب المنطقة المغلقة. رأيت من بعيد المبنى حيث تعيش فيرا. كان السرير معلقاً من الجدار مثل رجل مصلوب، لم تكن الأرضية موجودة، بقي جدار واحد منتصباً، عدت إلى الساحة، شخص ما أضرم ناراً وسطها. أحمرت الوجوه في الوهج. تفحصتهم، لم أعرف أحداً، ولم أجد فيرا ريفكن. كانت مجموعة من المسنين يتحدثون. قال الطويل ذو اللحية إنها نهاية

العـالم، كان قـد تنبأ بها منذ أسـبوع. اقتحمت امرأةـ تلوث رأسـها بالقذارة ـالمجموعـة، وقالـت منتحبة: «مات تشـارلي، مات تشـارلي. لم يكن علينا المجيء! قلت له ليس علينا المجيء!» تلقفها مسنٌّ من أكتافها وهزها قائلاً: «ما الذي تقولينه؟»، أغمي عليها بين ذراعيه.

انصرفت وجلسـت على الحاجز الحجري نادماً، انـدم قبل أن يفوت الأوان. تلوت الصلاة، لكن الغبار كان في فمي. ما من صلوات، لكن سيكون هناك بعـض التغيرات في حياتي، عفاف ودماثة من الآن فصاعداً. كانت هذه نقطة التحول من أجلي، تحذيراً لآرتورو بانديني.

أنشـد الناس التراتيل حول النار، جالسـين في حلقة، تقودهم امرأة ضخمة. ارفع عيونك إلى يسوع، لأن يسوع قادم قريباً. كان الجميع ينشدون.

ناولنـي طفـل -كانت أحرف اسـمه الأولى منقوشـة على سـترته- كتاب التراتيل. تقدمـت. لوحـت المـرأة في الحلقـة بيديهـا بحماسـة بالغـة، والأنشـودة تتقلب مع الدخان صاعدة إلى السـماء. تواصلَ حدوث الهزات. اسـتدرت، يا يسـوع، هؤلاء بروتستانت! في كنيستي لا ننشد تراتيل رخيصة، نحن لدينا هاندل[1] وبالسترينا[2].

عندئذ حلت الظلمة وظهرت بضعة نجوم. تواصلت الهزات الأرضية، قادمة كل بضـع ثـوان. هبت ريح من البحر وازدادت بـرودة الجو، تجمع الناس في مجموعات، علت صفـارات الإنذار من كل اتجاه. أزت الطائرات من فوقنا، وتدفقت سرايا البحارة والمارينز في الشوارع، انطلق حمالو النقالات في المباني المدمرة، تحرك الصليب الأحمر. كان هناك مراكز للطوارئ في زاويا الساحات. كانوا يقدمون علباً كبيرة من القهوة. وقفت في طابور، سـمعت الرجل الذي يتقدمني يقول: «إنها أسوأ في لوس أنجلس، هناك آلاف الضحايا.»

آلاف. هـذا يعنـي كاميلا، سـيكون مقصف كولومبيا أول ما سيسـقط، كان قديـماً جداً، وجدرانه القرميدية متصدعة جداً ومتداعية. بالتأكيد، قد ماتت.

(1) جورج فريدريك هاندل (1685-1759): ألماني المولد، بريطاني، مؤلف لموسيقا الباروك.

(2) جيوفاني بالسترينا (1525-1594): كان مؤلفاً إيطالياً للموسيقا الدينية من عصر النهضة.

twitter @baghdad_library

تعمل من الساعة الرابعة حتى الحادية عشرة. لابد أنها عالقة في وسطها. ماتت وأنا حي. يا الله! تخيلتها ميتة، ستستلقي ساكنة هكذا، عيناها مغلقتان هكذا، يداها مشبوكتان هكذا. كانت ميتة وأنا حي. لم نفهم أحدنا الآخر، لكنها كانت جيدة معي على طريقتها. سأظل أتذكرها وقتاً طويلاً. ربما كنت الرجل الوحيد على الأرض الذي سيتذكرها. يمكنني أن أفكر بأشياء كثير ة ساحرة فيها، كمدها، خزيها من أناسها، سيارتها الفورد الصغيرة التافهة.

راجت جميع أنواع الشائعات عبر الساحة، تقول إن التسونامي كان قادماً، التسونامي لن يأتي، ضربت كاليفورنيا برمتها. ضرب لونج بيتش فقط. كانت لوس أنجلس كتلة من الخراب. لم يشعروا بها في لوس أنجلس. قال بعضهم إن عدد الضحايا كان خمسين ألفاً، هذا كان أسوأ زلزال منذ زلزال سان فرانسيسكو، هذا كان أسوأ بكثير من زلزال سان فرانسيسكو. لكن رغم كل شيء، كان الجميع منتظمين وخائفين، لكن لم يكن هناك ذعر. ابتسم الناس هنا وهناك، كانوا شجعاناً وبعيدين جداً عن الوطن، لكنهم جلبوا شجاعتهم معهم. كانوا أشداء، لم يكونوا خائفين من شيء.

نصبت قوات المارينز إذاعة وسط الساحة بمكبرات صوت كبيرة واسعة بين الحشود لتبث التقارير باستمرار ملخصة الكارثة. هدر الصوت العميق بالتعليمات، إنه القانون والجميع يتقبلونه عن طيب خاطر: لم يكن مسموحاً لأحد أن يدخل أو يغادر لونج بيتش حتى إشعار آخر. وضعت المدينة تحت الأحكام العرفية، لن يكون هناك تسونامي، زال الخطر بلا شك. لم يكن الناس يتخوفون من الزلزال المتوقع حدوثه، في هذا الوقت كانت الأرض تستقر من جديد.

قدّم الصليب الأحمر الأغطية والطعام والكثير من القهوة. جلسنا طوال الليل حول مكبر الصوت، نستمع إلى التطورات. ثم جاء التقرير الذي يفيد بأن الضرر الذي أصاب لوس أنجلس كان ضئيلاً. أذيعت قائمة طويلة من أسماء الضحايا، لم يكن من بينها اسم كاميلا لوبيز. تجرعت القهوة طوال الليل ودخنت السجائر، أستمع إلى أسماء الضحايا، لم يكن هناك كاميلا، ولا حتى لوبيز.

الفصل الثالث عشر

في اليـوم التـالي عدت إلى لـوس أنجلس. كانت المدينة كما هـي، لكنني كنت خائفاً. الخطر يتربص في الشـوارع. تشـكل المباني العالية وهاداً سوداء بمثابة فخاخ قاتلة عندما تتزلزل الأرض. قد ينشق الرصيف وتنقلب السيارات في الشـارع. شيء ما حدث لآرتورو باندينى، مشـى في الشوارع من جهة المباني المؤلفة من طابق الواحد، تشـبث بالحواف الحجرية بعيداً عن لافتات النيون المتدلية. كان بداخلي، عميقاً. لم أستطع أن أهزه. رأيت رجالاً يعبرون الأزقة المعتمة العميقة، عجبت من جنونهم، عبرت شـارع هيل وتنفسـت بسـهولة أكـبر عندمـا دخلت سـاحة بيرشـينج حيـث لا يوجد مبـان عاليـة، دخنت السـجائر والعـرق ينضح مـن راحتي. يقع مقصف كولومبيـا على بعد خمس كتل سـكنية، عرفت بأنني لن أذهب إلى هناك، لقد تغيرت وأصبحت جباناً. قلـت لنفسي بصوت مرتفع: أنـت جبان. لم أهتم، كان من الأفضل أن تكون جبانـاً حيـاً عـلى أن تكون مجنونـاً ميتاً. لا بد مـن تحذير أولئـك الناس الذين يروحـون ويغدون من المباني الإسـمنتية الضخمة، فقد تعـود الهزات مجدداً، لابـد أن تعـود مجدداً، قد يضرب المدينة في أي دقيقـة زلزال آخر ويدمرها إلى الأبد، قد يقتل الكثيرين، لكن ليس أنا، لأنني كنت بعيداً عن تلك الشـوارع والأنقاض المتهاوية.

صعـدت بنكر هيل متوجهـاً إلى فندقي، فكرت في كل مبنـى، يمكن للمباني الخشبية أن تتحمل الزلزال، أن تهتز وتتلوى فحسب، لكنها لن تسقط. لكن أنظـر إلى مباني القرميد، تبدو علامـات الزلزال واضحة فيها، جدار قرميدي متدهـور ومدخنـة متهاوية. كانت لـوس أنجلس مدينة متهالكـة ملعونة، لم تدمرهـا هذه الهزة الأرضية، لكن في أي يوم مـن الأيام قد تدكّها هزة أخرى وتسـويها بـالأرض. لن تنال منـي، لن تحاصرني داخل مبنـى قرميدي. كنت

twitter @baghdad_library

جباناً، لكن هذا كان شأني، أنا بلا شك جبان، محدثاً نفسي، بلا شك أنا جبان، لكن أنتم كونوا شجعاناً، أنتم مجانين، تقدموا وكونوا شجعاناً وسيروا تحت تلك المباني الكبيرة، ستقتلكم اليوم أو غداً، أو في الأسبوع القادم، أو في السنة القادمة، ستقتلكم ولن تقتلني.

والآن استمع إلى الرجل الذي شهد الهزة الأرضية، جلست على شرفة فندق آلتا لوما وحدثتهم عما شاهدته هناك، رأيتهم ينتشلون الموتى، رأيت الدم والجرحى. كنت في مبنى مؤلف من ستة طوابق، عندما وقعت كنت أغط في نوم عميق، هرعت في الممر نحو المصعد المحتشد، اندفعت امرأة من أحد المكاتب وكانت مصابة في رأسها بعارضة فولاذية، سلكت طريق العودة جاهداً عبر الدمار، وحملت المرأة على أكتافي، كان المبنى يعلو ستة أدوار عن الأرض، لكني فعلتها. كنت طوال الليل مع المنقذين، غمر الدم والبؤس ركبتي، سحبت امرأة مسنة كانت يداها عالقتين في الأنقاض مثل قطعة من تمثال، قذفت نفسي عبر العتبة التي يتصاعد منها الدخان لأنقذ فتاة مغمى عليها في برنسها. ألبست الجريحة، قدت طوابير المنقذين نحو الأنقاض، أقتحم وأناضل شاقاً طريقي نحو الموتى والمحتضرين. بالتأكيد كنت خائفاً، لكن كان عليَّ أن أفعل ذلك، فالأزمة تستدعي الفعل وليس القول. رأيت الأرض في الشارع المعبد تنفتح مثل فم هائل ثم تنغلق ثانية. ركضت إلى عجوز كانت قدمه عالقة، شجعته وأنا أطرق الرصيف بفأس الإطفائية، لكني كنت متأخراً، فالملزمة شدت وقطعت ساقه من الركبة، حملته. مازالت ركبته هناك وكأنها تذكار دموي التصق على الأرض. رأيت تلك الأحداث وكانت فظيعة. ربما صدقوني، وربما لم يصدقوا، الأمر سيان بالنسبة إليّ.

نزلت إلى غرفتي وبحثت عن التصدع في الجدار، عاينت غرفة هيلفريك، كان واقفاً عند فرن الغاز، يقلي الهامبرجر. لقد شهدتها يا هيلفريك. كنت عند أعلى نقطة في الأفعوانية عندما ضرب الزلزال، توقفت مسارات الأفعوانية عن العمل، كان علينا أن نقفز، أنا وفتاة، على ارتفاع مئة وخمسين قدماً عن

الأرض، حملت الفتاة على ظهري والهيكل يهتز مثل مصاب بمرض الرقاص[1]. ومع ذلك فعلتها. رأيت فتاة صغيرة قدمها مدفونة في الحطام وعجوزاً مثبتة تحت سيارتها ميتة ومهشمة، كانت ترفع يدها لتشير بأنها ستنعطف إلى الجهة اليمنى. رأيت ثلاثة موتى جالسين إلى طاولة القمار. صفّر هيلفريك: هكذا؟ إلى هذا الحد؟ سيء جداً، سيء جداً. وسألني عما إذا كنت سأقرضه خمسين سنتاً. أعطيتها له وتأكدت من خلو جدرانه من التصدعات.

نزلت إلى الصالات، يوجد في المرآب وغرفة الغسيل دلائل على الهزة، ليست خطيرة، لكنها تشير إلى الكارثة التي قد تحطم لوس أنجلس بلا شك. لم أنم في غرفتي تلك الليلة، فلن أنام والأرض ما تزال تهتز. ليس أنا هيلفريك. نظر هيلفريك من النافذة إلى حيث استلقيت على جانب التلة، ملتحفاً الأغطية. كنت مجنوناً على حد قوله. لكن هيلفريك تذكر أنني أقرضته المال، لذا قال ربما أنت محق، أطفأ مصباحه وسمعت صوت جسمه النحيل وهو يستقر على السرير.

كان العالم غباراً وإلى الغبار مآله. بدأت أذهب إلى القداس في الصباح، ذهبت إلى الاعتراف، تناولت القربان المقدس، انتقيت كنيسة صغيرة خشبية، رابضة ومتينة، قريبة من الحي المكسيكي. ها هنا صليت بانديني الجديد. آه، أيتها الحياة! أنت مأساة مريرة عذبة، أنت عاهرة باهرة قدتني إلى الخراب! أقلعت عن التدخين بضعة أيام، اشتريت سبحة صلاة جديدة، أغدقت النيكلات والدايمات[2] في صندوق التبرعات، كنت مشفقاً على العالم.

أمي العزيزة في كولورادو، آه، أيتها المحبوبة مثل مريم العذراء. لا أملك سوى عشرة دولارات، لكني أرسلت لها خمساً منها، لأول مرة أرسل مالاً إلى البلاد. صلي من أجلي أمي العزيزة، فيقظة سُبحاتك هي كل ما يحفظ دمي حياً. إنها أيام سود يا أمي. العالم مليء بالقبح. لقد تغيرت، وحياتي بدأت

(1) من الأمراض العصبية.

(2) ويساوي جزء من عشرة أجزاء من الدولار.

twitter @baghdad_library

مـن جديد. قضيت سـاعات طويلـة أعظمك في حـضرة الله. آه، أمي، كوني معـي في تعاسـتي! عـليَّ الإسراع في ختام هذه الرسـالة الإنجيليـة، أوه، أمي الحبيبة عزيزتي، لأنني أتلو الصلوات هذه الأيام، وفي كل أصيل عند الساعة الخامسة ستجدينني جاثماً أمام رسم مخلصنا المقدس وأنا أقدم الصلوات طلباً لرحمتـه العذبة. وداعاً أمـي! اعتني بالتماسي لمراميكِ. اذكريني عند من يعطي كل شيء ويشع في السماوات.

توجهت لأرسـل الرسـالة إلى أمي، وضعتها في الصندوق ومشيت في شارع أوليف حيث لا يوجد مبانٍ قرميدية، ثم عبرت سـاحة فارغة ونزلت شارعاً آخر خالياً تماماً من المباني إلى شـارع لم أجد فيه سـوى سـياج واطئ، ثم كتلة سكنية نحو الجزء من البلدة الذي تعلو فيه مبان مرتفعة متطاولة نحو السماء، ليس هناك مهرب من تلك الكتلة ما عدا المشي على الجانب الآخر من الشارع إلى جانـب المباني العالية، أمشي بسرعة كبيرة، وأحياناً أجري. توجد في نهاية الشارع كنيسة صغيرة، تضرعت، وتلوت صلواتي[1].

بعـد سـاعة، خرجـت منتعشـاً، هادئـاً، بـروح عالية. سـالكاً الطريق نفسـه إلى البيـت، مسرعـاً عنـد المباني العالية، أتنزه على امتداد السـياج، أتسـكع في السـاحة الفارغة، أدون ملاحظة عن صنع يدي الله في صف أشـجار النخيل قـرب الزقـاق. وأصعد شـارع أوليف، خلف المنازل الخشـبية القـذرة. ماذا ينفع الانسـان إذا ربح العالم وخسر نفسـه؟ ثم تلك القصيدة الصغيرة: اجمع أنواع المتع جميعها، وضاعفها بعدد السـنوات غـير النهائية، دقيقة واحدة من السـماء تساويها جميعاً. كم هو حقيقي! كم هو حقيقي! أشـكرك يا أيها النور السماوي، لأنك أريتني الطريق.

شـخص مـا كان يقـرع على نافـذة ذلك المنـزل الـذي يختفي خلـف الدوالي السـميكة. التفت إلى النافذة، رأيت رأسـاً، بريق أسـنان، شـعراً أسود، نظرة خبيثـة، أصابع طويلة تومئ. ما هذا الرعد في بطني؟ وكيف يمكنني أن أمنع

(1) تلاوة الصلوات في الكنيسة الكاثوليكية على مدة تسعة أيام متعاقبة على نية تحقيق هدف معين.

ذلك الشـلل الفكري، وذلـك الفيض من الدم الذي يجعـل حواسي تترنح؟ لكنني أريد هذا! سأموت دونه! أنا قادم أيتها المرأة في النافذة، لقد سحرتني، ستقتلينني بهـذه البهجـة والفـرح والقشـعريرة، ها أنا قـادم، صاعـداً هذه الدرجات المتقلقلة.

مـا فائـدة التوبـة؟ وماذا يهمـك من الصلاح؟ ومـاذا لو كان مقيضـاً لك أن تمـوت في زلـزال؟ يا للجحيم من يهتم؟! لذا مشـيت وسـط المدينـة، ها هي المبـاني العالية، دع الزلزال يأتي، دعه يدفنني وذنـوبي، يا للجحيم من يهتم؟! ما من خير في إله أو بشر، مُت بطريقة أو بأخرى، بزلزال أو مشـنوقاً، لا يهم لماذا؟ ومتى؟ وكيف؟

بعدئذٍ جاءتني الفكرة كالحلم. من يأسي انبثقت فكرة، فكرتي الأولى المدوية، الأولى في حيـاتي كلهـا، هائلـة ونظيفة وقوية، سـطراً بعد آخـر، صفحة بعد صفحة، قصة عن فيرا ريفكن.

وتقدم بيسر، لم يكن تفكيراً ولا تبصراً. تقدم ببساطة على راحته، انبثق كالدم. هـذا هـو، نلتها أخيراً، هاهنا أمضي، دعني أكـون، أوه يا فتى أحبه! أوه يا الله أحبك! وأنت كاميلا وأنت وأنت. ها أنا أمضي ويبدو جيداً جداً، حلواً كثيراً ودافئـاً وناعـماً، لذيذاً، هاذياً فـوق النهر والبحر، هذه أنـت وهذا أنا، كلمات قويـة جـداً، كلمات معبرة صغيرة، كلـمات قوية معـبرة، وي وي وي. كنت مقطوع الأنفاس، مسـعوراً، ستكون شـيئاً كبيراً، اسـتمر واستمر، واصلت الطرق سـاعات، إلى أن وصل تدريجياً وتملكني، نهبني، سكن عظامي، تقطر مني، أوهنني، أعماني.

كاميـلا! لا بـد أن أحصل على تلك الكاميلا! نهضـت وخرجت من الفندق ونزلت بنكر هيل نحو مقصف كولومبيا.

"عدتَ ثانية؟"

مثل غشاء فوق عيوني، مثل شبكة عنكبوت فوقي.

"لم لا؟"

twitter @baghdad_library

آرتـورو باندينـي، كاتب "ضحك الجـرو" وعدة سرقات أدبيةً من إرنسـت دوسـون، وعدة برقيـات طلباً للزواج. هـل يمكن لذلـك أن يكون ضحكاً في عينيهـا؟ انـس الأمـر، وتذكر اللحـم الداكن تحـت مريلتهـا، شربت بيرة وشـاهدتها تعمل، تهكمتُ عندما ضحكت مـع هؤلاء الرجال قرب البيانو، أحدثتُ جلبة عندما وضع أحدهم يده على وركها. هذه المكسـيكية! تافهة، أقـول لك! أشرت إليها، أتـت على مهلها بعد خمس عـشرة دقيقة. كن لطيفاً معها آرتورو. ادّعِ اللطف.

" هل تريد شيئاً آخر؟"

" كيف حالك يا كاميلا؟"

" بخير على ما أظن."

" أود رؤيتك بعد العمل."

" لدي ارتباط آخر."

قلت بلطف: " هلا تؤجلينه كاميلا؟" أود أن أراك لأمر مهم جداً."

" أنا آسفة."

" أرجوك كاميلا، فقط الليلة، إنه أمر شديد الأهمية."

" لا أستطيع آرتورو، حقيقة لا أستطيع."

قلت:" سترينني"

ابتعـدت، دفعتُ كرسـيي إلى الخلف، صوبـت إصبعي نحوهـا، صارخاً: " سـترينني! يا صالة البيرة الغبيـة الصغيرة الماجنة! سـترينني!" أنت ملعونة، سـوف ترينني في الحال، لأني كنت سـأنتظر، لأني خرجت إلى سـاحة انتظار السـيارات وجلسـت على متن سـيارتها وانتظرت، لأنها لم تكن بتلك الطيبة لتعفي نفسها من موعد مع آرتورو بانديني، لأنني، وحق الله، مقتُّ جرأتها. أتـت إلى السـاحة برفقتها سـامي السـاقي، تـرددت عندما رأتنـي أقف على قدمي، ووضعت يدها على ذراع سامي لتمنعه. تهامسا. كان شجار على وشك أن يحـدث. رائـع. تعال أيها الأحمق الهزيل السـاقي، فقط حاول وسـأكسرك

نصفين. ووقفت هناك بقبضتين قويتين منتظراً، اقتربا، لم ينبس سامي بكلمة، مشى حولي وركب السيارة، وقفت إلى جانب مقعد السائق، وكاميلا تنظر أمامها مباشرة، فتحت باب السيارة، هززت رأسي.

" ستذهبين معي أيتها المكسيكية."

أمسكت بخصرها.

" دعني! أبعد يديك القذرتين عني!"

" ستذهبين معي."

انحنى سامي، أمسكت بها بيمناي، وقلت: " ربما لا ترغب يا ولد"، رفعت قبضتي اليسرى وأقحمتها في وجه سامي، وأردفت:" اسمع، لا تعجبني، لذا أبقِ تلك الزاوية القذرة مغلقة»

قال:» كن عاقلاً، ماذا عن أنك فعلت كل ما بوسعك لتزعج سيدة شريفة؟»

« ستذهب معي.»

« لست ذاهبة معك!»

حاولت العبور، اختطفت ذراعيها وطوَّحتها مثل راقص، راحت تدور حول الساحة، لكنها لم تقع، صرخت تتهمني، أمسكت بها بذراعي وثبت مرفقيها، ركلتْ وحاولت أن تخدش ساقي، كان سامي يراقب باشمئزاز. بالتأكيد كنت مقرفاً، لكن ذلك كان شأني. صرختْ وقاتلتْ، لكنها كانت عاجزة، فساقاها متدليتان وذراعاها محشوران، ثم حاولت قليلاً، تركتها. قومت فستانها، وأسنانها تصطك كراهية.

قلت:» ستذهبين معي»

خرج سامي من السيارة، وقال: «هذا مريع»، أخذ ذراع كاميلا وذهب بها نحو الشارع.

« لنخرج من هنا.»

شاهدتهما يذهبان، كان محقاً. بانديني الأبله، الكلب، البغيض، الغبي. لكنني لم أستطع أن أتمالك نفسي. نظرت إلى شهادة السيارة ووجدت عنوانها. كان

twitter @baghdad_library

المكان بالقرب من الشارع 24 وآلميدا. لم أستطع تمالك نفسي، مشيت نحو شارع هيل وركبت عربة الآميدا. كنت غاضباً، ظهر جانب جديد فظ مظلم من شخصيتي ، ما لا يسبر غوره من بانديني الجديد. بعد بضع كتل سكنية تبخرت نوبة الغضب، نزلت من السيارة قرب ساحات الشحن، كانت بنكر هيل على بعد ميلين، لكني عدت، عندما وصلت إلى البيت قلت إنه لم يعد هناك ما أفعله مع كاميلا لوبيز إلى الأبد. وستندمين، أيتها الغبية الصغيرة، لأني سأكون مشهوراً. جلست أمام آلتي الكاتبة وعملت طوال الليل تقريباً. عملت بجد، كان من المفترض أن يكون الفصل خريفاً، لكنني لم أستطع أن أميز الفرق، فالشمس تسطع كل يوم، والسماء زرقاء كل ليلة. وأحياناً كان هناك ضباب. عدت إلى تناول الفواكه. منحني الياباني الثقة وحصلت على الأفضل من الموز والبرتقال والإجاص والخوخ. أحياناً كنت آكل الكرفس، لدي علبة مليئة بالتبغ وغليون جديد، لم يكن لدي قهوة، لكنني لم أهتم.

أصبحت قصتي الجديدة متوافرة في أكشاك المجلات. لم تكن «التلال الطويلة الضائعة» مشوقة مثل «ضحك الجرو»، بالكاد نظرت إلى نسخة مجانية أرسلها هاكموث، رغم ذلك كنت سعيداً. يوما ما سيكون لدي الكثير من القصص المكتوبة والتي لن أتذكر أين تنشر.» مرحباً بانديني! لديك قصة ظريفة في عدد هذا الشهر من مجلة أتلانتيك الشهرية.» بانديني مندهش:» هل لدي قصة في الأتلانتيك؟ حسناً، حسناً.»

هيلفريك آكل اللحم، الرجل الذي لم يسدد ديونه قطّ. أقرضته كثيراً خلال فترة الرخاء، لكن الآن ولأني فقير مجدداً حاول أن يقايضني بأشياء وفاء للدين، مثل: معطف مطري قديم، خفّ، علبة صابون مبهرجة. رفضتها قائلاً:» يا إلهي! هيلفريك. أحتاج إلى المال، وليس إلى السلع المستعملة.» كان هوسه باللحم خارجاً عن السيطرة. كنت أسمعه طوال اليوم يقلي شرائح اللحم الرخيص، تزحف الرائحة من تحت بابي، فتستثير فيّ رغبة مجنونة في اللحم. سأذهب إلى هيلفريك، وأقول:» هيلفريك، ماذا عن مقاسمتي تلك

الشرائح؟» ستكون قطعة اللحم كبيرة جداً وتملأ المقلاة. لكن هيلفريك سيكذب بكل صفاقة قائلاً:» ليس لدي شيء منذ يومين.»، سأنعته بصفات قاسية، وسأفقد احترامي له. سيهز أوداجه الحمر المنتفخة، وعيناه الكبيرتان تحملقان بوضاعة، لكنه لم يقدم لي حتى فتات طبقه، عملت يوماً بعد يوم، وأنا أتلوى من رائحة قطع اللحم المقلية المعذبة، الشرائح المشوية، المقلية، المغطاة بالخبز، بصل وكبدة، وكل أنواع اللحوم.

في أحد الأيام انتقل هوسه من اللحم إلى الجن[1]. كان ثملًا على مدى ليلتين متواصلتين، استطعت أن أسمعه وهو يترنح، يركل الزجاجات محدثاً نفسه، ثم خرج، وعندما عاد بعد غياب ليلة، كان قد صرف المعاش التقاعدي واشترى سيارة، لكنه لم يتذكر في أي مكان حصل عليها. ذهبنا خلف الفندق ونظرنا إلى السيارة، كانت من نوع باكارد[2]، ضخمة، عمرها أكثر من عشرين سنة، مركونة هناك مثل عربة نقل الموتى، إطاراتها بالية، طلاؤها الرخيص الأسود يبقبق في الشمس الحارة. باعها له أحدهم في الشارع الرئيس. هو الآن مفلس، ويملك سيارة باكارد كبيرة.

قال:» هل تريد أن تشتريها؟»

«إلى الجحيم، لا.»

كان مغتماً، رأسه ينفجر من تأثير الكحول.

دخل تلك الليلة غرفتي، جلس على السرير، أذرعه الطويلة تدلت على الأرض، كان يشعر بالحنين إلى بلده في الغرب الأوسط، تحدث عن صيد الأرانب والسمك، عن الأيام الرغيدة الغابرة عندما كان ولداً، ثم بدأ الحديث عن اللحم، قال بشفاه رخوة:» كم تحب شريحة اللحم الكبيرة السميكة؟» فتح حلقتين، وتابع:» بهذه السماكة، مشوية وعليها الكثير من الزبدة، محروقة إلى درجة تكتسب فيها نكهة، كم ستحبها؟»

---

(1) نوع من الخمور.

(2) سيارة أمريكية فارهة ظهرت لأول مرة عام 1899.

twitter @baghdad_library

« سأحبها.»

نهض.

« تعال، وسنحصل على واحدة.»

« لديك نقود؟»

« لا نحتاج إلى نقود، أنا جائع.»

أخذتُ سترتي وتبعته إلى الصالة نحو الزقاق، ركب سيارته، ترددت وقلت:» إلى أين أنت ذاهب هيلفريك؟»

« هيا، اتكل علي.»

جلست إلى جانبه، وقلت:» بلا مشاكل»

أجاب متهكماً:» مشاكل! قلت لك إنني أعرف المكان الذي سنحصل منه على شريحة لحم.»

انطلقنا في ضوء القمر من وايلشاير إلى هايلاند، ثم من هايلاند على ممر كاهوينيا، على الجانب الآخر كان يمتد سهل وادي سان فرناندو المنبسط. وجدنا طريقاً مهجوراً على جانب الرصيف، سلكناه عبر أشجار الأوكاليبتوس السامقة نحو المروج والبيوت الريفية المتناثرة، بعد مسافة ميل وصلنا نهاية الطريق، ظهرت أسلاك شائكة وركائز سياج في وهج المصابيح الأمامية. انعطف هيلفريك، خرج من المقعد الأمامي، فتح الباب الخلفي وتلمس أدوات السيارة تحت المسند الخلفي. انحنيت وراقبته.

« ماذا يجري هيلفريك؟»

انتصب، ومطرقة هوائية في يده.

« انتظر هنا.»

خطا من تحت حلقة من حلقات السلك الشائك وعبر المرج. بعد مئة ياردة لاحت حظيرة في ضوء القمر، حينئذٍ عرفت ما الذي كان يتعقبه، قفزت من السيارة وناديته، أسكتني غاضباً. راقبته يمشي على أطراف أصابعه نحو باب الحظيرة، شتمته وانتظرت في حالة من التوتر. خلال مدة قصيرة سمعت

خوار بقرة يثير الشفقة، ثم سمعت ضربةً وخبط حوافر. خرج هيلفريك من باب الحظيرة. يحمل على كتفه كتلة ذات لون داكن، تثقل كاهله. من خلفه كانت بقرة تتبعه وهي تخور، حاول هيلفريك أن يجري، لكنه لم يستطع بسبب الكتلة التي يحملها فحث السير. ومازالت البقرة تتبعه، تدفع ظهره بخطمها. التفت، رفسها بوحشية، توقفت البقرة، نظرت نحو المرج، وخارت ثانية.

« أنت غبي هيلفريك، أنت غبي لعين!»

قال:» ساعدني،».

رفعت السلك الشائك الرخو، أحاول أن أوسعه كي يعبر من تحته هو وحمِله. كان عجلاً يتدفق دمه من بين الأذنين. عيونه مفتوحة على اتساعها، استطعت أن أرى انعكاس القمر فيهما. كان قتلاً بدم بارد، شعرت بالقرف والرعب، تشنجت معدتي عندما ألقى هيلفريك بالعجل في المقعد الخلفي. سمعت صوت خبطة الجسد ثم الرأس. شعرت بقرف شديد، كانت جريمة قتل مكتملة. كان هيلفريك مبتهجاً طول طريق العودة، لكن عجلة القيادة كانت ملوثة بالدماء، وظننت مرة أو اثنتين أنني سمعت العجل يرفس في المقعد الخلفي. أمسكت بوجهي بين يدي محاولاً أن أنسى النداء الكئيب لأم العجل، والوجه الجميل للعجل الميت.

قاد هيلفريك بسرعة كبيرة. عند بيفرلي عبرنا بسيارة سوداء تتحرك ببطء، كان طوافة للشرطة. صررت على أسناني وانتظرت الأسوأ، لكن الشرطة لم تلاحقنا، كنت أشعر بقرف شديد ولم أستطع أن أشعر بالارتياح. الأمر الأكيد الوحيد هو أن هيلفريك قاتل، هو وأنا كنا شريكين، استدرنا في بنكر هيل نحو زقاقنا وتوقفنا لنركن السيارة إلى جدار الفندق، خرج هيلفريك.

« الآن سأعطيك درساً في الجزارة.»

قلت:» أنت كالجحيم»

تصرفت كمراقب له عندما لف رأس العجل بأوراق الصحف، وقذفه من فوق كتفه، وأسرع إلى الرواق المعتم نحو غرفته. فرشت الصحف على أرضية

twitter @baghdad_library

غرفته القذرة، ووضع العجل عليها. ابتسم بسبب بنطاله المدمى وقميصه وأذرعه المدماة. نظرت إلى العجل المسكين، كان جلده منقطاً باللونين الأبيض والأسود وكان له أعقاباً بالغة الهشاشة. ظهر من فمه المفتوح قليلاً لساناً وردياً. أغلقت عيني وخرجت من غرفة هيلفريك ورميت نفسي على الأرض في غرفتي، استلقيت هناك وارتجفت أفكر بالبقرة المسنة وحيدة في الحقل في ضوء القمر، بقرة مسنة تخور على عجلها. قاتل! هيلفريك وأنا كنا شريكان.

لم يكن عليه أن يسدد الدين، نقوده الملوثة بالدم ليست من أجلي. بعد تلك الليلة تعاملت مع هيلفريك ببرود شديد. لم أزر غرفته ثانية. طرق بابي مرتين لكنني أبقيت الباب موصداً فلم يستطع أن يقتحمها. إذا التقينا في الصالة، كنا نهمهم فحسب. يدين لي بحوالي ثلاثة دولارات، لكنني لم أطالبه بها قطّ.

الفصل الرابع عشر

وصلتني أخبار جيدة من هاكموث، أعلنت مجلة أخرى عن رغبتها في نشر قصة "التلال الطويلة الضائعة" في صيغة أكثر إيجازاً مقابل مئة دولار. صرت غنياً من جديد، إنه زمن الإصلاحات وتصويب الماضي. أرسلت إلى أمي خمسة دولارات، بكيت عندما تلقيت منها رسالة شكر، تدحرجت الدموع من عيني عندما سارعت في كتابة الرد، وأرسلت خمسة أخرى. شعرت بالرضا عن نفسي، لدي بعض الخصال الجيدة. رأيتهم_ كتاب سيرتي_ وهم يتحدثون إلى أمي السيدة المسنة في كرسي العجلات، كانت تقول: كان ابناً باراً، ابني آرتورو معيل طيب.

آرتورو بانديني الروائي العصامي، الذي يكسب رزقه من كتابة القصص القصيرة يؤلف حالياً كتاباً هائلاً. تستشف روعته مقدماً من أسلوبه اللافت، لا كتاب مثله منذ جويس. أقف أمام صورة هاكموث، أقرأ ما أنجزه يومياً. أمضيت الوقت في كتابة إهداء: إلى ج.س. هاكموث، لأنه اكتشفني. إلى ج.س هاكموث، مع الإكبار. إلى هاكموث العبقري. رأيتهم_ نقاد نيويورك _يتجمعون حول هاكموث في ناديه. لابد أنك عثرت على رابح في ذلك الولد بانديني على الساحل. يبتسم هاكموث، وتلتمع عيناه.

ستة أسابيع، بضع ساعات كل يوم، ثلاث وأربع ساعات وأحياناً خمس ساعات ممتعة، تتكدس الصفحات وجميع الرغبات الأخرى نائمة، شعرت كما لو أن شبحاً يمشي على الأرض، عاشقاً للإنسان والحيوان على حد سواء، كانت تغمرني موجات رائعة من الرقة عندما أتحدث إلى الناس وأختلط بهم في الشوارع. سبحانك يا عزيزي الله، كن طيباً معي، امنحني لساناً معسولاً، وسيتسمع لي هؤلاء الحزانى والوحيدون وسيشعرون بالسعادة. وهكذا مرت الأيام، أيام حالمة نيرة، وأحياناً عندما كان يعتريني مثل هذا الفرح

twitter @baghdad_library

العظيم الهادئ كنت أطفئ الأنوار وأبكي، وتراودني رغبة غريبة في الموت.
وهكذا بانديني يكتب رواية.
ذات ليلة سمعت طرقاً على الباب وعندما فتحته كانت تقف هناك.
"كاميلا!"
دخلتْ وجلست على السرير، تتأبط رزمة من الأوراق تحت ذراعها، نظرت إلى غرفتي: إذن هذا هو المكان الذي أعيش فيه. تساءلت عن المكان الذي أسكنه. نهضت وتجوَّلت، محدقة من النافذة، تجولت في الغرفة، فتاة جميلة كاميلا الطويلة ذات شعرها الداكن الدافئ، وقفت وراقبتها. لكن لماذا أتت؟ استشعرتْ سؤالي، وجلست على السرير مبتسمة في وجهي.
قالت: «آرتورو، لماذا نتشاجر طوال الوقت؟»
لم أكن أعرف، قلت شيئاً عن الطباع، هزت رأسها وصالبت ركبتيها، افترش عقلي إحساس بفخذيها الجميلين المرفوعين، شعور كثيف بالاختناق ورغبة حارة لذيذة في أخذهما بيدي. كل حركة من حركاتها، استدارة عنقها الناعمة، نهداها الكبيران المنتفخان تحت المئزر، يداها الرائعتان على السرير، أصابعها المفرودة-بعثت في شعوراً بالكدر، ثقل مؤلم حلو جرني نحو الذهول. ومن ثم تردد صوتها حبيساً، يلوح بالاستهزاء، خاطب صوتها دمي وعظامي.
تذكرت سكينة تلك الأسابيع الماضية، لم تبدُ حقيقية، كانت تنويماً مغناطيسياً من كينونتي، لأن نظرتي في عيون كاميلا السوداء كانت تبدو حية، تُجاري سخريتها بأمل وبتحديقة ماجنة. لم تأتِ لمجرد الزيارة. فيما بعد اكتشفت الهدف من الزيارة. قالت:" هل تذكر سامي؟"، بالتأكيد أنت لا تحبه، كان طيباً. إنه جيد آرتورو، كنت ستحبه لو تعرفت إليه أكثر، أخال ذلك. هو يحبك. خامرني الشك بعد المشاجرة في ساحة انتظار السيارات. تذكرت عدة أمور عن علاقتها مع سامي، ابتساماتها له أثناء العمل، قلقها في تلك الليلة عندما أوصلناه إلى البيت.
" أنت تحبين ذلك الرجل، أليس كذلك؟"

" ليس تماماً." أشاحت بعينيها عني وتركتهما تطوفان في الغرفة.
" نعم، تحبينه."
فجأة شعرت بالنفور منها، لأنها جرحتني. هذه الفتاة! لقد مزقت سوناتا دوسون التي كتبتها لها، وعرضت برقيتي على جميع من كان في مقصف كولومبيا، جعلتني موضع سخريتها على الشاطئ. إنها تشك في رجولتي، الشك نفسه في نظرة عينيها المستهزئة. راقبت وجهها وشفتيها وفكرت أنني لو ضربتها فسأحظى بمتعة كبيرة، تمنيت لو أرسلت قبضتي بكامل قوتها على أنفها وشفتيها. تحدثت عن سامي ثانية، لم تكن فرص سامي في الحياة جيدة، كان من الممكن أن يكون شخصاً ذا شأن، غير أن صحته كانت دوماً سيئة.
« ما مشكلته؟»
« تدرنٌ رئوي»
« صعب.»
« لن يعيش طويلاً.»
لم أهتم.
« سنموت جميعاً يوماً ما.»
فكرت في طردها، قائلاً لها: «إذا أتيت إلى هنا كي تتحدثي عن ذلك الرجل، فلتذهبي إلى الجحيم، لأني لست مهتماً»، فكرت أن طردها سيكون مبهجاً، هي جميلة ورائعة جداً كما هي، ومضطرة إلى المغادرة، لأنني أمرتها بذلك.
« لم يعد سامي هنا، لقد رحل.»
ستكون مخطئة كثيراً لو ظنت بأني مهتم بمعرفة مكانه، وضعت قدمي على المكتب وأشعلت سيجارة، وقلت: « وكيف حال أصحابك جميعاً؟»، فرَّ السؤال مني، وشعرت بالأسف من فوري، فلطّفته بابتسامة، ابتسمتْ بالمقابل لكن بصعوبة، وقالت:
« ليس لدي أي أصحاب»
قلت ساخراً:» بالتأكيد، بالتأكيد، أفهم، أعذري التعليق الغافل»

twitter @baghdad_library

صمتت فترة من الوقت، اتخذت من الصفير ستاراً، ثم تكلمت: « لماذا أنت وضيع جداً؟»
« وضيع؟ يا فتاتي العزيزة، أنا مغرم بالإنسان والحيوان على حد سواء، ليس هناك أدنى قطرة من العدائية في طريقتي، وفي آخر الأمر، لا يمكنك أن تكوني كاتبة عظيمة ووضيعة في الوقت نفسه»
هزأت عيناها بي، وقالت:» أنت كاتب عظيم؟»
« هذا أمر لن تعرفيه أبداً.»
عضت على شفتها السفلى، قرصتها بين سنين أبيضين حادين، مجيلةً بصرها بين النافذة والباب كحيوان وقع في شرك، ثم ابتسمت ثانية، وقالت:» لهذا أتيت لرؤيتك».
تحسستْ المغلفات الكبيرة على حجرها، فشعرت بالإثارة، تمس أصابعها حجرها ممددة هناك وتنتقل على لحمها. كان معها مغلفان. فتحت واحداً منهما. كانت مخطوطة من نوع ما، أخذتها من بين يديها. كانت قصة قصيرة لصاموئيل ويجينز، صندوق بريد، سان جوان، كاليفورنيا. اسمها» كولد واتر كاتلينج»، وتبدأ على النحو التالي: « لم يكن كولدواتر كاتلينج يبحث عن المشاكل، لكن لا يمكنك أن تتكهن بما قد يقدم عليه سارقو الماشية الأريزونيين هؤلاء. احمل مسدسك عالياً على الورك وأخفضه عندما ترى واحداً من مواليدهم. المشكلة بالمشكلة، كانت تلك المشكلة تبحث عن كولد واتر كاتلينج. لا يحبون جوالو تكساس في أريزونا، ولذلك أطلق كاتلينج أولاً وعرف من الذي قتله بعد ذلك. وهكذا يفعلون في ولاية لون ستار حيث كان الرجال رجالاً، ولم تمانع النساء في أن تطهين الطعام في جلد يملكونه هناك لمتطي الخيل الأشداء ممن يطلقون الرصاص من فورهم أمثال كولد واتر كاتلينج، الرجل الأكثر بأساً.»، كانت هذه الفقرة الأولى.
قلت: «هراء»
«ساعده، أرجوك، سيموت خلال سنة، غادر لوس أنجلس إلى طرف

صحراء سانتا آنا، يعيش هناك في كوخ، يكتب محموماً. كان يرغب بالكتابة طوال حياته، والآن حانت فرصته في هذا الوقت القليل الذي بقي له.»

« وما شأني؟»

« لكنه يموت.»

« ومن الذي لن يموت؟»

فتحت النسخة الثانية. كانت من نوع مشابه. هززت رأسي.

قلت: «إنها نتنة.»

« أعلم، لكن ألا يمكنك أن تفعل شيئاً؟ سيعطيك نصف المبلغ.»

« لا أحتاج إلى المال، لدي دخلي.»

نهضت ووقفت أمامي، يداها على كتفي. أخفضت وجهها، نفسها الدافئ حلو في منخري، عكست عيناها الواسعتان جداً صورة رأسي فيهما وشعرت بالهذيان والغثيان مع الرغبة.

« هلا تفعل ذلك من أجلي؟»

« من أجلك؟ حسناً، من أجلك، نعم.»

قبلتني -أنا بانديني الأضحوكة- قبلة حارة كثيفة مقابل خدمات على وشك أن تؤدى. أبعدتها بروية قائلاً:» ليس عليك أن تقبّليني، سأفعل ما بوسعي.»

لكن لدي فكرة أو اثنتين عن الموضوع، نظرت إلى العنوان على المخطوطتين، وهي واقفة أمام المرآة تضع أحمر الشفاه. سان جوان، كاليفورنيا، قلت:» سأكتب إليه رسالة عن مواده»، نظرت إليّ من خلال المرآة، توقفت وأحمر الشفاه في يدها. ابتسمت بسخرية قائلة: «ليس عليك فعل ذلك، يمكنني أن أعود لأخذها وإرسالها بنفسي.»

هذا ما قالته، لكن لا يمكنك خداعي كاميلا، لأنني رأيت ذكرياتك عن تلك الليلة على الشاطئ مكتوبة على وجهك الهازئ، ولهذا أكرهك، أوه يا إلهي كم أكرهك!

قلت:» حسناً، أظن أن ذلك سيكون أفضل، عودي غداً ليلاً.»

كانت تسخر مني، ليس من خلال وجهها وشفتيها، بل من داخلها، قالت:»

twitter @baghdad_library

في أي وقت آتي؟»
« في أي وقت تنهين عملك؟»
التفتت، أغلقت حقيبتها بعجلة، ونظرت إلي، وقالت:» أنت تعرف في أي وقت أنتهي من عملي»
سأحصل عليك كاميلا سأحصل عليك.
قلت:» تعالي حينئذٍ»
مشت نحو الباب، وضعت يدها على المقبض.
« ليلة سعيدة آرتورو.»
« سأرافقك إلى البهو»
قالت:» لا تكن سخيفاً»
أغلق الباب، وقفت في وسط الغرفة مستمعاً إلى صوت خطاها على الدرج، استطعت أن أشعر بشحوب وجهي والمهانة الرهيبة، وغضبت ممسكاً شعري بأصابعي وصرخت من حلقي وأنا أشد شعري كرهاً لها، أضرب بقبضتيّ معاً، مترنحاً حول الغرفة بذراعين مشبوكتين، أصارع ذكراها القبيحة، وعيي يختنق بها لاهثاً بالكراهية.
لكن كان هناك طرق ووسائل، وذلك الرجل المقزز هناك في الصحراء سيحصل على حصته أيضاً. سأنال منك سامي. سأقطعك قطعاً، سأجعلك تتمنى لو كنت ميتاً ومدفوناً منذ زمن طويل. القلم أقوى من السيف، سامي أيها الفتى، قلم آرتورو بانديني أكثر قوة. وقتي قد حان. والآن ستحصل على حصتك.
جلست وقرأت قصصه، دونت ملاحظات على كل سطر وجملة وفقرة فيها. كانت الكتابة رهيبة جداً، محاولة بدائية، مادة خرقاء، مبهمة، مرتجة، سخيفة. جلست ساعة بعد أخرى أدخن وأضحك بوحشية على محاولة سامي، أشمت فيه، أفرك يدي ببهجة، أوه، يا فتى، كنت أحطّ من قدره! قفزت وتبخترت في الغرفة، ألاكم الظل: خذ تلك أيها الفتى سامي، وتلك، وكيف

تجد هـذه اللكمة اليسرى؟ وكيف تـرى هذه اليمنى؟ زينجـو، بينجو، قرع، ضرب، تحطم! اسـتدرت ورأيت التجعد على السرير حيث جلست كاميلا، المحيـط الحسي حيث غاص فخذاها ووركاها تحت نعومة مفرش السرير من قماش الشينيل[1] الأزرق. ومن ثم نسيت سامي، ورميت نفسي جاثماً بالتوق على ركبتي أمام البقعة وقبلتها بوقار.

«كاميلا أحبك!»

عندمـا راودني الإحسـاس بالعدم الوهمي، نهضت مشـمئزاً مـن نفسي، أنت أسـود فظيـع آرتـورو بانديني، كلب أسـود حقير. جلسـت متجهـماً، أكتب رسالتي النقدية إلى سامي.

عزيزي سامي

كانت تلك العاهرة الصغيرة هنا الليلة، كما تعلم يا سـامي، السـيدة الصغيرة المزيتة بشـخصيتها الرائعة وعقلها الغبي، عرضت عليَّ بثقة كتابات مزعومة يظهـر أنهـا مكتوبة من قبلك. كما ذكرت أن الرجل ذو المنجل على وشـك أن يحصدك. كنت في ظل ظروف عادية لأسـمي هذه حالة مأسـاوية، لكن بعد قراءتي محتوى مخطوطاتك دعني أتحدث عن العالم كله وأقول دفعة واحدة إن رحيلك هو من حسـن حظ الجميع. لا يمكنك الكتابة سـامي، أقترح عليك أن تركـز على عملـك وتضع روحك البلهـاء في إمرة الأيـام الأخيرة قبل أن تغادر عالماً سيتنفس الصعداء عندما ترحل.

أتمنـى لـو يمكنني القـول بأمانة إنني أكـره رحيلك. لكنني أتمنـى ذلك، كان بوسـعك أن تكون مثـلي وأن تترك للأجيال القادمة أثـراً من أيامك على هذه الأرض. لكن بما أن الأمر مستحيل كما هو واضح، دعني ألح عليك الطلب بألا تشـعر بالمـرارة في أيامك الأخيرة. لم يكن القدر لطيفـاً معك حقاً. أظن، والعـالم أجمع، أنك سـعيد لأنه خـلال وقت قصير كل شيء سـيكون منتهياً، ونقطـة الحـبر التي لطختها لن يُطّلع عليها أبداً من وجهة نظر أوسـع. عندما

(1) قماش من القطن أو الحرير السميك.

twitter @baghdad_library

ألـح عليـك أن تحرق هـذه الكمية من الـروث الأدبي فأنا أتكلم باسـم جميع الرجـال المتحضرين العقلاء، وإضافـة إلى ذلك أبق بعيداً عن القلم والدواة، وأيضاً عن الآلة الكاتبة إن كنت تملكها، لأنه حتى الطباعة في هذه المخطوطة مذمومة، إذا كنت تصر بأية حال على رغبتك المثيرة للشفقة في الكتابة، فأرسل لي التفاهة التي تؤلفها. فقد وجدتك مسلياً، ليس عن قصد منك بالتأكيد.

انتهيـت من كتابتهـا، كانت مدمرة، طويت المخطوطتين ووضعت المكتوب معهـما في مغلف كبير، أغلقته، كتبت العنـوان إلى صاموئيل ويجينز، صندوق البريد، سـان جوان، كاليفورنيا، وألصقت الطابع، أقحمته في جيبي الخلفي، ثـم صعـدت وخرجت مـن البهو إلى صنـدوق البريـد عند الناصيـة. كانت السـاعة قد تجاوزت الثالثة من صباح لا يضاهى، كانت السـماء مثل صحراء باهـرة فيها نجـوم بيضاء وزرقاء، دعـة لافتة جداً كان علـيّ أن أتوقف قليلاً تعبـيراً عن إعجابي بشـدة جمالها، والهدوء يلف المـكان وما من صوت يصدر عن ورقة قذرة من سعف النخيل.

في تلـك اللحظة كان كل الخير الـذي بداخلي قد اهتز في قلبي، كل ما رجوته في معنـى وجـودي المبهم السـحيق. هنا هـدوء الطبيعة الصامـت أبداً، عدم الاكتراث بالمدينة العظيمة، هنا الصحراء تحت هذه الشـوارع وحولها، تنتظر موت المدينة لتغطيها برمل أزلي مرة ثانية. اجتاحني شعور مهول بفهم المعنى ومصير الإنسـان المحزن. لطالما كانت الصحراء هناك حيواناً أبيض صبوراً، تنتظـر موت الإنسـان، فالحضـارات تومض وتمـضي في الظلمة، والإنسـان شـجاع، كنت فخوراً بانتمائي إلى الإنسـانية. كل ما في العالم من شر لم يبدُ شراً علـى الإطلاق، ماعدا أمـر خيِّر لابد منه، هو جزء من ذلك النضال اللانهائي لتحجيم الصحراء.

نظـرت جنوبـاً باتجاه النجـوم الكبيرة، وأنا أعلم أن صحراء سـانتا آنا تمتد في ذلك الاتجاه، تحت النجوم الكبيرة ثمة رجل مثلي يستلقي في كوخ، قد تبتلعه الصحراء قبلي، يمسـك بيدي محاولاً التعبـير عن كفاحه في مواجهة الصمت

العنيـد الـذي يُرمى نحوه. لا يهم إن كان قاتلاً أو سـاقياً أو كاتباً، فقدره قدر الجميـع، نهايته ونهايتي، وهنا الليلة في هذه المدينـة من النوافذ المظلمة يوجد الملايـين مثلـه ومثـلي لا يمكن تمييزهـم كأوراق عشـب ميتة، الحيـاة صعبة، والموت مهمة رائعة، وسامي سيموت قريباً.

وقفـت ورأسي قبالة صندوق البريد، أشـعر بالحزن على سـامي وعلى نفسي، وعلى كل الأحياء والأموات. سامحني يا سامي! سامح غبياً! عدت إلى غرفتي وأمضيـت ثلاث سـاعات أكتب أفضل ما تسـنى لي كتابته مـن نقد لعمله. لم أقل إن هذا كان خطأ وذلك كان خطأ. بل رحت أقول في رأيي هذا سـيكون أفضل إذا، وهلم جراً، وهلم جراً. نمت حوالي السـاعة السادسـة، كان نوماً سعيداً شكوراً. كم كنت رائعاً حقيقة! رجلاً عظيماً، محترماً، معسول اللسان، عاشقاً كل الأشياء، الإنسان والحيوان على حد سواء.

twitter @baghdad_library

الفصل الخامس عشر

مر أسبوع دون أن أراها. تلقيت في هذه الفترة رسالة من سامي، يشكرني فيها على الملاحظات. أرسل سامي_حبها الحقيقي _بدوره بعض النصائح: كيف يمكن لي أن أتآلف مع اللاتينية الصغيرة؟ لم تكن سيدة سيئة، ليست سيئة على الإطلاق عندما تكون الأنوار مطفأة، لكن مشكلتك يا سيد بانديني، هي أنك لا تعرف كيف تتعامل معها، أنت تعاملها بلطف شديد، ولا تفهم النساء المكسيكيات اللاتي لا يعجبهن أن يُعاملن كالبشر. إذا كنت لطيفاً معهن، يهجرنك.

عملت على الكتاب، متوقفاً بين الحين والآخر لأعيد قراءة رسالته. كنت أقرؤها في منتصف الليل عندما عادت ودخلت دون استئذان، وقالت:

«مرحباً»

«مرحباً، أيتها الحمقاء.»

« تعمل؟»

« وماذا ترين؟»

« غاضب؟»

«لا، فقط أشعر بالاشمئزاز.»

«مني؟»

« بطبيعة الحال، انظري إلى نفسكِ.»

كانت ترتدي تحت سترتها رداءً أبيض ملطخاً ومتسخاً. وواحد من جوربيها فالت متغضن عند الكاحلين. بدا وجهها متعباً، وعلى شفاهها آثار حمرة. كان معطفها منقطاً بالنسالة والغبار. وحذاؤها رخيص ذو كعب عال.

قلت لها:» أنت تبذلين جهداً كبيراً لتكوني أمريكية، لماذا تفعلين ذلك؟ ألقي بنظرة على نفسك.»

ذهبت إلى المرآة، تفحصت نفسها بوقار، وقالت:» حاولت، كنا منشغلين الليلة.»

قلت:» هل هذا الصندل حذاء؟! عليك أن ترتدي ما يناسب قدميك، وكل هذا الألم على وجهك في محاولة محاكاة رخيصة لأمريكية، تبدين فظيعة وشعثاء. لو كنت مكسيكياً لحطمت رأسك، أنت تتسببين بالعار لشعبك.»
قالت:»من أنت لتتحدث بهذه الطريقة؟ أنا أمريكية مثلك تماماً. لماذا؟ أنت لست أمريكي على الإطلاق. انظر إلى جلدك. لديك بشرة داكنة مثل الإيطاليين. وعيناك سوداوان.»

«بنيتان»

«حتى شعرك ليس كذلك، إنه أسود، انظر إلى شعرك»

«بني»

خلعت معطفها، ارتمت على السرير ودفعت سيجارة في فمها. بدأت ترتجف وتبحث عن عود ثقاب، كان هناك علبة إلى جانبي على المكتب، انتظرتني حتى أناولها لها، قلت: « لست كسيحة، خذيها بنفسك.»، أشعلت سيجارة ودخنتها بصمت، حدقت بالسقف، انهال الدخان من منخريها في هياج صامت. كان الضباب في الخارج، ومن بعيد سمع صوت صفارة شرطة.

قلت:» تفكرين بسامي؟»

« ربما.»

« ليس عليك أن تفكري به هنا. بإمكانك دوماً المغادرة، كما تعرفين.»

أطفأت السيجارة، لوتها حتى أخرجت ما بداخلها وكان لكلماتها الأثر نفسه.

.» يا يسوع! أنت مقرف! لا بد أن تكون تعيساً جداً.»

« أنت مجنونة.»

تمددت وصالبت ساقيها. برزت جواربها الملفوفة عند أعلى ساقيها، وإنشاً أو اثنين من اللحم الداكن عند أطراف الرداء الأبيض، تبعثر شعرها على المخدة مثل زجاجة حبر مقلوبة، استلقت على جنبها، تراقبني من جانب المخدة. ابتسمت، رفعت يدها وهزت إصبعها نحوي.

قالت بصوت دافئ: «تعال هنا آرتورو»

twitter @baghdad_library

لوحت بيدي.
«لا، شكراً، أنا مرتاح.»
راقبتني خمس دقائق وأنا أحدق من النافذة. كان يمكن أن ألمسها وأضمها بين ذراعي، نعم، آرتورو، لم يكن عليّ سوى النهوض من الكرسي والتمدد إلى جانبها، لكنني تذكرت تلك الليلة على الشاطئ وسوناتا على الأرض وبرقية الحب، كانت أشبه بكوابيس سقطت على الغرفة.
قالت:» خائف؟»
ضحكت وقلت: «منك؟»
« أنت خائف»
« لا، لست كذلك.»
فتحت ذراعيها وبدا أن كل ما فيها مفتوح لي، لكن مع ذلك أغلقني على أعماق نفسي، حاملاً معي صورتها في ذلك الحين، كم كانت ريانة وناعمة!
قلت:» انظري، أنا مشغول، انظري.»، ربتُّ على كومة النسخ الموضوعة إلى جانب الآلة الكاتبة.
«أنت خائف، أيضاً»
« مم؟»
«مني.»
« أوف.»
صمت.
قالت:» أنت لست سوياً»
«ماذا؟»
« أنت شاذ.»
نهضت ووقفت فوقها، وقلت: «هذه كذبة»
تمددنا هناك. لقد فرضت ذلك بسخريتها، قُبلتها والتواء شفتيها الشديد والسخرية في عينيها، كنت مثل رجل قدَّ من خشب، ولم يكن بداخلي سوى

مشاعر الرعب والخوف منها، إحساس بأن جمالها كان مبالغاً به، بأنها كانت تفوقني جمالاً، متجذرة أكثر مني. لقد جعلتني غريباً عن نفسي، كانت كل تلك الليالي وأشجار الأوكاليبتوس السامقة، نجوم الصحراء، الأرض والسماء، الضباب في الخارج، وكان عليَّ أن آتي إلى هناك دون هدف لأكون كاتباً فحسب، للحصول على المال، لأصنع اسماً لنفسي وكل ذلك الهراء. كانت تفوقني بكثير من الروعة والصدق، لأنني كنت مشمئزاً من نفسي ولم أستطع النظر في عينيها الدافئتين، لقد زالت الرجفة التي شعرت بها من وضعها ذراعيها الدافئتين حول عنقي والأصابع الطويلة في شعري. لم أقبّلها.

قبّلتني، أنا مؤلف قصة «ضحك الجرو»، ثم أخذت خصري بيديها، ضغطت بشفتيها على راحة كفي. وضعت يدي على ما بين نهديها. قلبتْ شفتيها نحو وجهي وانتظرتْ. وآرتورو بانديني، الكاتب العظيم غاص عميقاً في تخيلاته النابضة بالحياة، آرتورو بانديني الرومانسي، الطافح بالجمل الجميلة، قال بوهن ومرح:» مرحباً.»

أجابت متسائلة:» مرحباً؟ مرحباً؟»، ثم أردفت ضاحكة:» حسناً، كيف حالك؟»

أوه ذلك الآرتورو! كاتب الحكايات.

« ممتاز» قال.

والآن ماذا؟ أين راحت الرغبة والعاطفة؟ ستذهبان بعيداً وقتاً قصيراً ثم تعودا. لكن يا إلهي! آرتورو. لا يمكنك فعل ذلك! استدع أسلافك الرائعين! جارِ من هم في مصافك. شعرت بيديها تتلمسان طريقهما، ردعتهما في خوف شهواني. قبّلتني مرة ثانية. قد تمنح شفتيها للحم مسلوق بارد. لقد كنت بائساً. دفعتني قائلةً:» ابتعد، دعني أذهب».

احترق بداخلي القرف والرعب والخزي، لن أسمح لها بالذهاب. تشبثت بها، مقحماً برودة فمي في حرارتها، ناضلتْ لتفلت مني، استلقيت ممسكاً بها، دفنت وجهي في كتفها، أشعر بالعار من إظهاره، ثم شعرت باحتقارها يتنامى إلى كره وهي تناضل، وحينئذٍ رغبت بها، كنت ممسكاً بها أتشفعها،

twitter @baghdad_library

ومـع كل عرقلة من غضبها الأسـود كانـت رغبتي تتصاعد وكنت سـعيداً، أهتف مشجعاً لآرتورو، فرح ومقدرة، مقدرة وفرح، إحساسه اللذيذ، نشوة الرضا عن الذات، مبتهجاً لمعرفتي بأنني أستطيع أخذها الآن إذا ما أردت. لكننـي لم أتمـنّ، لأنني كنـت مالكاً لحبـي، منبهراً مـن مقدرة وفـرح آرتورو بانديني. حرّرتها، مبعداً يدي عن فمها، وقفزت عن السرير.

جلسـتْ هنـاك، بيـاض مـن الرضاب عنـد أطراف فمهـا، صرّت أسـنانها، انسـحبت يداهـا من شـعرها الطويل، وجههـا يغالب صرخـة، لكن لم يكن يهـم، يمكنهـا أن تصرخ إذا مـا أرادت، لأن آرتورو بانديني لم يكن شـاذاً، لم يكن هناك ما يعيب آرتورو بانديني على الإطلاق، لماذا؟ لديه عاطفة تساوي ما لسـتة رجال، لقد شـعر ذلك الفتى بصعوده إلى السـطح: رجل ما، كاتب جليل، عاشق جليل، منصف مع العالم، منصف مع نثره.

راقبتها وهي تسـوي فسـتانها، راقبتها وهي تقف لاهثة ومرعوبة، تذهب إلى المرآة لتنظر إلى نفسها، كما لو أنها تتأكد من أنها هي نفسها بالفعل، قالت:

« أنت لست صالحاً»

جلست أقضم أظافري.

قالت:» لم أكن أظن أنك هكذا، أكره القسوة.»

القسـوة: أوف. ومـا الذي تحدثه من فرق أفكارها؟ الأمـر الكبير كان مثبتاً: كان بإمكاني أن أحصل عليها، وأياً كان ما تفكر به فهو ليس مهماً. كنت شيئاً آخر إلى جانب كوني كاتباً عظيماً: لم أعد خائفاً من امرأة. استطعت أن أنظر في وجهها كما ينبغي للرجل أن ينظر في وجه المرأة.

غادرت دون أن تتحدث ثانية. جلست في حلم من البهجة، مهرجان من ثقة رغيـدة: كان العـالم كبيراً جداً، فيه كثير من الأشـياء التـي يمكنني أن أتقنها. آه، لوس أنجلس! غبار وضباب في شـوارعك الوحيدة، لم أعد وحيداً. فقط انتظري، كل أشـباحك في هذه الغرفة، فقط انتظري، لأنه سـيحدث، وتلك الـ»كاميلا»، يمكنها أن تحظى بحبيبها سامي في الصحراء، بقصصه القصيرة

المبتذلة ونثره النتن، لكن انتظري حتى تجربيني، لأنه سيحدث، واثق قدر ثقتي بوجود الله في السماء.
لا أذكر، ربما مر أسبوع أو أسبوعان. كنت على علم بأنها ستعود، عشت حياتي ولم أنتظرها. كتبت بضع صفحات، قرأت بضعة كتب، كنت مطمئناً: ستعود ليلاً. لم أفكر قط بها كأمر يُرى في ضوء النهار. رأيتها عدة مرات، وجميعها كانت ليلاً. ترقبتها كما ترقبت القمر.
جاءت، سمعت هذه المرة صوت حصى تضرب على زجاج نافذتي، فتحت النافذة على اتساعها، كانت تقف هناك إلى جانب التلة، ترتدي سترة فوق ردائها الأبيض، فمها مفتوح قليلاً وهي تنظر إلى الأعلى.
قالت: «ماذا تفعل؟»
« جالس فحسب.»
«هل أنت غاضب مني؟»
«لا، أنت غاضبة مني؟»
قالت ضاحكة: «قليلاً.»
«لماذا؟»
«أنت وضيع.»
ذهبنا في نزهة. سألتني إذا ما كنت أعرف شيئاً عن السلاح، لا أعرف. انطلقنا إلى معرض في الشارع الرئيس. كانت خبيرة في التصويب، تعرف صاحب المعرض، ولد يرتدي سترة جلدية. لم أستطع إصابة أي شيء، ولا حتى الهدف الذي في الوسط. كانت نقودها، وكانت مشمئزة مني. استطاعت أن تمسك بالمسدس تحت إبطها وتصيب عين الهدف الرئيسة في الهدف الكبير. صوبت نحو خمسين طلقة، وكنت أفوتها في كل مرة. ومن ثم حاولتْ أن تريني طريقة الإمساك بالسلاح. انتزعته منها لأقذف الماسورة باستهتار في كل اتجاه. انحنى الولد ذو السترة الجلدية تحت الطاولة، وصرخ:» كن حذراً! انتبه!»، أصبح قرفه استخفافاً. أخرجت خمسين سنتاً من جيبها من أجل البقشيش، وقالت:»

twitter @baghdad_library

جرب ثانية، وهذه المرة لا تفوته، أو لن أدفع»، لا أملك مالاً، وضعت المسدس على النضد ورفضت التصويب مجدداً، قلت:» إلى الجحيم»
قالت: «إنه جبان يا تيم، كل ما يستطيع فعله هو كتابة الشعر.»
من الواضح أن تيم يفضل من يتقنون التسديد، فهو ينظر نحوي باشمئزاز دون أن يقول كلمة. التقطت رشاش وينشستر، حددت هدفاً، ورميت. كان الهدف الكبير على بعد ستين قدماً، وعلو ثلاثة أقدام على عمود، لم يظهر ما يشير إلى أنه أصيب. كان من المفترض أن يرن جرس عندما تصاب عين الهدف، ما من صوت، أفرغت الرشاش، استنشقت حموضة البارود، وتجهمت.
ضحك كلاً من تيم وكاميلا على الجبان. في هذه الأثناء تجمع حشد على الرصيف، تقاسموا جميعهم الاشمئزاز مع كاميلا، لأن الأمر كان معدٍ، وشعرت به أيضاً. التفتت، رأت الحشد، واحمرت خجلاً. كان تشعر بالخجل مني، منزعجة ومهانة. همست لي بطرف فمها بأنه يجب علينا المغادرة. اخترقتْ الحشد، تحث السير، تتقدمني بست خطوات. تبعتها بروية. وما يهمني إذا لم أستطع أن أصوب بالمسدس اللعين، وما الذي يهمني إذا ضحك هؤلاء السذج أو ضحكت هي؟ لأنها واحدة منهم، الساذجة الخنزيرة، مخدرات الشارع الرئيس الحقراء المكشرين، من منهم يمكنه أن يؤلف قصة مثل التلال الطويلة الضائعة؟ لا أحد! فليذهب احتقارهم إلى الجحيم.
كانت السيارة مركونة أمام مقهى. عندما وصلت إليها كانت قد أقلعتْ المحرك، ركبت لكنها لم تنتظر أن أجلس. مازالت تتهكم، نظرت إليَّ بسرعة، وحررت المقبض. كنت مرمياً أمام المقعد، بعدئذٍ أمام حاجب الرياح، كنا محشورين بين سيارتين. اصطدمت بواحدة ثم بأخرى، كانت تلك طريقتها كي تعرفني أي أحمق كنت. أخيراً، عندما تحررنا من الحاجز الحجري وتأرجحنا في الشارع، تنهدت ورجعت إلى الخلف، وقلت:
« شكراً لله على ذلك»
قالت:» أنت تافه!»

«انظـري، إذا كان لا بـد أن تشـعري على هذا النحو، لماذا لا تدعيني أخرج؟ يمكنني أن أمشي.»
وضعت قدمها في الحال على دواسة البنزين، جرينا عبر شوارع وسط المدينة. جلسـت متمسـكاً أفكر بالقفز، ومن ثم وصلنا إلى مكان كانت حركة المرور فيه خفيفة. على بعد ميلين عن بنكر هيل، في الجزء الشرقي من البلدة، في قسم المدينـة الصناعـي ومصانع البيرة-خففت سرعة السـيارة وكبحت الفرامل. كنا على طول سياج أسود منخفض خلفه كومة أنابيب فولاذية.
قلت: "لماذا هنا؟"
" تريد أن تمشي، أخرج وامش."
" أشعر برغبة في الركوب ثانية."
"اخـرج، أعنـي ذلـك، أيضـاً. أي شـخص يمكنـه أن يصـوب أفضل من طريقتك! هيا، اخرج!"
تناولت سجائري، قدمت إليها واحدة، وقلت:" دعينا نستفيض في حديثنا هذا"
ألقـت علبـة السـجائر مـن يدي، رمتهـا عـلى الأرض، حدقـت بي بتحدي، وقالـت:» أكرهـك، يـا إلهي، كـم أكرهـك!»، وأنـا ألتقط السـجائر ارتجف الليـل والمصنع المهجـور مع تقززها. فهمـت، هي لم تكره آرتـورو بانديني، ليـس حقيقـة. لقد كرهت كونـه لم يتفق مـع مثالها. أرادت أن تحبـه، لكنها لم تسـتطع. أرادته مثل سامي: هادئ، صموت، متجهم، يسدد جيداً بالبندقية، ساقٍ جيد قبل بها بوصفها نادلة ولا شيء آخر. خرجت من سيارتها مكشراً، لأنني أعرف بأن هذا سيجرحها، قلت:
« ليلة سعيدة، إنها ليلة رائعة. ليس لدي مانع من أن أمشي.»
« أتمنى ألا تفعلها، أتمنى أن يجدوك في الصباح ميتاً في حفرة «
قلت:» سأرى ما يمكنني فعله»
وهي تنطلق مبتعدة سـمعت شهيقاً من حنجرتها، بكاء من الألم، شيء واحد كان أكيداً: لم يكن آرتورو بانديني مناسباً لكاميلا لوبيز.

twitter @baghdad_library

الفصل السادس عشر

الأيام الطيبة، الأيام السمان، صفحة فوق صفحة من المخطوط، أيام عامرة، ثمة ما يقال، قصة فيرا ريفكن، تراكمت الصفحات وشعرت بالسعادة. أيام خرافية، دُفع الإيجار، وبقي خمسين دولاراً في محفظتي، لم أكن أفعل شيئاً طوال الليل والنهار سوى الكتابة: آه، يا لتلك الأيام الحلوة! وأنا أراها تنمو، قلقاً عليها، أنا نفسي، كتابي، كلماتي، ربما تكون مهمة، وربما خالدة، لكنها مني مهما كانت، آرتورو بانديني الذي لا يقهر، متعمقاً سلفاً في روايته الأولى.

ها قد حلَّ المساء، كيف سأمضيه؟! روحي باردة جداً إثر حمّام من الكلمات، قدماي صلبتان جداً على الأرض، وماذا عن باقي الأشياء، بقية الناس في العالم؟ سأذهب وأجلس وأنظر إليها، كاميلا لوبيز. وهذا ما حصل. كسالف الأيام، عيون الواحد منا تتقافز نحو عيون الآخر. لكنها تغيرت، كانت أكثر نحولاً، لم يكن وجهها معافى، يوجد بثرتان عند طرفي فمها. ابتسامة مهذبة. منحتها بقشيشاً وشكرتني. وضعت بضع قطع نقدية في الفونوغراف، مشغلاً ألحانها المفضلة. لم تكن ترقص أثناء العمل، ولم تنظر إليَّ كما كانت تفعل. ربما بسبب سامي، ربما كانت تفتقد الرجل.

سألتها:» كيف حاله؟»

هزت كتفيها، وقالت:» أظنه بخير»

« ألا ترينه؟»

« أوه، بالتأكيد.»

« لا تبدين بخير.»

« أنا على ما يرام.»

نهضتُ وقلت:» حسناً، عليَّ الذهاب كانت زيارة للاطمئنان عليك فقط.»

« لطفاً منك.»

«لا أبداً، لم لا تأتين لرؤيتي؟»
قالت مبتسمة:» قد آتي ذات ليلة.»
عزيزتي كاميلا، أتيت أخيراً. رميت بالحصى على النافذة، وسحبتك إلى داخل الغرفة، شممت رائحة الويسكي في أنفاسك، ذهلت وأنت تجلسين ثملة قليلاً إلى آلتي الكاتبة، تقهقهين وتلعبين بالمفاتيح، ثم التفتِّ ونظرت نحوي، ورأيتُ وجهك صافياً في النور، الشفة السفلى المتورمة، اللطخة السوداء والبنفسجية حول عينك اليسرى. قلت:» من ضربك؟»، وأجبتِ:» حادث سير.» وقلتُ:» هل كان سامي يقود السيارة؟»، بكيتِ بقلب مكسور وأنت ثملة. حينئذٍ استطعت أن ألمسك. لا تشوشني الرغبة. استلقيت إلى جانبك على السرير وعانقتك بذراعي وسمعتك تقولين إن سامي كرهك، وإنك انطلقت نحو الصحراء بعد العمل، وإنه لكمك مرتين، لأنك أيقظته في الساعة الثالثة صباحاً.
قلت.» لكن لم تذهبين لرؤيته؟»
« لأنني أحبه.»
أخرجت زجاجة من حقيبتك وشربناها، أولاً دورك ثم دوري. عندما فرغت الزجاجة نزلت إلى المتجر واشتريت أخرى كبيرة. بكينا طوال الليل وشربنا، وأنا ثمل قلت الأشياء التي تفور في قلبي، كل تلك الكلمات الرائعة، كل الابتسامات الذكية، لأنك كنت تبكين بسبب رجل آخر ولم تسمعي كلمة مما قلت، لكنني سمعتها بنفسي، وكان آرتورو بانديني جيداً تماماً تلك الليلة، كاميلا. كنت جاثياً قربك على السرير، أمسكت بيدك وقلت:» آه كاميلا، أنت فتاة ضائعة! افتحي أصابعك الطويلة وأعيدي لي روحي المتعبة! قبّليني بفمك فأنا جائع لخبز التلة المكسيكية. تنفسي عطر المدن المفقودة بمنخريك الحامين، ودعيني أموت هنا، يدي على المحيط الناعم لعنقك مثل شاهد على شاطئ جنوبي يكاد يكون منسياً. خذي التوق من هذه العيون التي لا تهدأ ولقميه لجوالين وحيدين يطوفون في حقل الذرة الخريفي، لأني أحبك

twitter @baghdad_library

كاميلا، واسـمك مقدس مثل اسم لأميرة شجاعة ماتت مبتسمة لحب مضى ولن يعود أبداً».

كنـت ثمـلاً تلك الليلـة كاميـلا، من ويسـكي ثمنه 78 سـنتاً، وكنـتِ ثملة مـن اللوعـة. أتذكر أنه بعـد إطفاء المصابيـح كنت عارية إلا مـن فردة حذاء حيَّرتني، عانقتك بذراعي ونمت بسـلام في حمأة نشـيجك، لكنني انزعجت عندما تسـاقطت الدموع الحـارة من عينيك على شـفاهي وتذوقت ملوحتها وفكرت بسامي ومخطوطه البشع. بأنه ضربك! ذلك الأحمق، حتى استخدامه لعلامات الترقيم كان سـيئاً. اسـتيقظنا في الصباح وكنا في حالة من الإعياء، وكانت شـفتك المتورمة أكثر غرابة مما كانت سابقاً، وعينك السوداء صارت خـضراء. نهضـت مترنحـة إلى المغسـلة وغسـلت وجهـك. سـمعت تئنين، راقبتـك وأنت تلبسـين، شـعرت بقبلتك عـلى جبهتي وأنت تقولـين وداعاً، وذلـك جعلنـي أصاب بمزيـد من الإعيـاء، ثم تسـلقت النافذة وسـمعتك تترنحين صاعدة التلة، سمعت صوت حفيف العشب والغصينات الصغيرة التي تكسرت تحت قدميك غير الواثقتين.

أحـاول أن أتذكـر بتسلسـل زمني، شـتاء أو ربيـع أو صيف، كانت كلهـا أياماً متشـابهة. الفضل لليل، والشـكر للظلمة، بخلاف ذلك لم نكن لنعرف أن يوماً انتهـى وبـدأ آخر. كتبت 240 صفحـة والنهاية كانت على مرمـى النظر. البقية كانـت رحلة على ميـاه صقيلة. ثم ستُرسـل إلى هاكموث، ثم يبـدأ التفجع. في ذلـك الوقت حدث أن ذهبنـا، أنا وكاميلا، إلى جزيـرة طرفية،جزيرة من صنع البـشر، ذلـك المكان، إصبـع طويل مـن الأرض مصوب نحـو كاتالينا. أرض ومصانع تعليب الأسـماك ورائحة السـمك، منازل بنية ملأى بأطفال يابانيين، امتدادات من رمل أبيض بأرصفة سـوداء عريضة تتالى صعوداً ونزولاً، يلعب الأولاد اليابانيون كرة القدم في الشوارع. كانت كاميلا سريعة الغضب، تشرب كثيراً، وفي عينيها تلك النظرة القوية لامرأة مسنة جبانة. ركنا السيارة في الشارع العريـض ومشـينا مئة يـاردة نحو الشـاطئ. كان هناك صخور عنـد حافة المياه

وأحجار مسننة تعج بالسرطانات. كانت السرطانات تمر بأوقات عصيبة، فنوارس البحر كانت تلاحقها، والنوارس تصرخ وتخمش وتتقاتل فيما بينها. جلسنا على الرمل وراقبناها، قالت كاميلا إن تلك النوارس جميلة جداً.

قلت:» أكرهها»

«أنتَ! أنت تكره كل شيء.»

« انظري إليها، لماذا تنقر تلك السرطانات المسكينة؟ السرطانات لا تفعل شيئاً، ولماذا بحق الجحيم يتجمهرون بهذه الطريقة؟»

« سرطانات، أوف.»

« أكره نوارس البحر، إنها تأكل أي شيء وتفضل الجيف.»

« بحق الله اسكت أنتَ دوماً تفسد كل شيء، ما الذي يعنيني مما يأكلون؟»

في الشارع كان اليابانيون الصغار يلعبون مباراة كرة قدم كبيرة، كانت أعمارهم تحت سن الثانية عشرة، أحدهم كان يمرّر الكرة ببراعة. أدرت ظهري للبحر وتابعت المباراة. رمى الممرِّر البارع رمية أخرى إلى أحد أعضاء فريقه، شعرت بالاهتمام ونهضت.

قالت كاميلا: «شاهِدِ البحر، من المفترض أن تعجب بأشياء جميلة، أنت كاتب.»

قلت:» لقد سدد رمية جميلة».

زال الورم من شفتيها، لكن آثار الضربة ماتزال على عينيها، قالت:

« كنت آتي إلى هنا طوال الوقت، تقريباً كل ليلة.»

« مع ذلك الكاتب الآخر، إنه حقيقة كاتب عظيم، سامي العبقري.»

« لقد أحب المكان هنا.»

« إنه كاتب عظيم، حقاً. تلك القصة التي كتبها على عينك اليسرى تحفة أدبية.»

« هو لا يتحدث من أحشائه مثلك، بل يعرف متى يكون هادئاً.»

« الأبله.»

كان الشجار يختمر بيننا، قررت أن أتجنبه، نهضت ومشيت نحو الأولاد في الشارع. سألتني عن وجهتي، أجبتها:» ذاهب لأشارك في المباراة»

twitter @baghdad_library

بدت مهانة، قالت:» معهم؟ هؤلاء اليابانيين؟»، حرثت في الرمل، وتابعت:» تذكر ما حصل تلك الليلة!»
التفت للخلف، قلت:» ماذا؟»
« تذكر كيف مشيت إلى البيت؟»
« هذا يناسبني»
«الحافلة أكثر أماناً.»
لم يسمح لي الأولاد باللعب، لأن الفريقين كانا متساويين في العدد، لكنهم سمحوا لي أن أحكم فترة. بعدئذٍ تقدم فريق الممرّر البارع كثيراً بحيث صار التغيير ضرورياً، لذا لعبت في الفريق المقابل. رغب جميع أعضاء فريقنا أن يكونوا ظهيراً أوسطاً، ونجم استياء عظيم. جعلوني ألعب في خط الوسط، وكرهت الأمر، لأنني لم أكن مؤهلاً لتلقي التمريرات. أخيراً، سألني قائد فريقنا عما إذا كنت أتقن التمرير، ومنحني فرصة في منطقة الهجوم. أكملت اللعبة. وصار الأمر مسلياً بعدئذ. غادرت كاميلا في الحال تقريباً. لعبنا حتى حلول الظلام، تغلبوا علينا، لكن بنتيجة متقاربة. استقليت الحافلة العائدة إلى لوس أنجلس.
لم أستطع التصميم على عدم رؤيتها مجدداً، كنت أغير رأيي من يوم إلى آخر. ذات ليلة بعد يومين من تركها لي في الجزيرة الطرفية، كنت في السينما بعد منتصف الليل عندما نزلت الدرجات القديمة إلى غرفتي. كان الباب مقفلاً من الداخل. سمعت وأنا أدير المقبض نداءها «دقيقة واحدة، هذه أنا آرتورو.» طالت الدقيقة خمسة أضعاف طولها المعتاد. تمكنت من سماع صوتها تسرع داخل الغرفة، سمعت صوت إغلاق الباب مصطفقاً، سمعت النافذة وهي تفتح، تحسست مقبض الباب مرة ثانية، فتحت الباب، وقفت هناك لاهثة، نهداها يعلوان ويهبطان. عيناها مسنونتان من لهب أسود، وخداها أحمران كالدم، بدت معافاة بفرح شديد. وقفت خائفاً من هذا التغيير، أهدابها تتسع وتنغلق، الابتسامة السريعة الرطبة، الأسنان معافاة جداً ولزجة بالرضاب

المبقبق. قلت:» ما الخطة؟»

عانقتني وقبلتني بشغف كنت أعرف أنه لم يكن حقيقياً، منعت دخولي بزهو من العاطفة. كانت تخفي عني شيئاً، تبقيني بعيداً عن غرفتي قدر ما تستطيع من وقت. نظرت من فوق كتفها إلى المكان، رأيت السرير وعليه أثر رأس على المخدة، معطفها على الكرسي، وكانت الأمشاط الصغيرة والدبابيس متناثرة على الخزانة. هذا كان حسناً. كل شيء بدا مرتباً ما عدا الحصيرتين الصغيرتين الجانبيتين، فقد نقلتا، هذا كان واضحاً لي، لأنني أحبهما في مكانهما المعتاد، حيث يمكن لقدمي أن تمسهما عندما أخرج من السرير في الصباح.

سحبت ذراعيها ونظرت نحو باب الخزانة، فجأة بدأت تلهث بانفعال وهي مستندة إلى الباب، تقف أمامه، ذراعيها مفرودتان لتحميه، قالت راجيةّ:

« لا تفتحه آرتورو، أرجوك!»

قلت:» أي جحيم هذا كله؟»

سرت بها قشعريرة، رطبت شفتيها وازدردت، عيناها مليئتان بالدموع، تبتسم وتبكي في آن معاً. قالت: «سأخبرك فيما بعد، لكن لا تدخل الآن آرتورو. ليس عليك أن تدخل. أوه، ليس عليك فعل ذلك، أرجوك!»

« من في الداخل؟»

كانت تصرخ تقريباً:» لا أحد، ولا أحد. ليس ما تظن آرتورو. ما من أحد هنا، لكن أرجوك! أرجوك لا تفتحه الآن. أوه، أرجوك!»

تقدمت نحوي خلسة تقريباً، تمدّ ذراعيها لعناق كان دفاعاً ضد هجومي على باب الخزانة. فتحت شفتيها وقبلتني بطعم مميز، برودة شهوانية، حسية غير مبالية. لم تعجبني. جزء منها كان يخون الجزء الآخر، لكنني لم أستطع معرفته.

جلست على السرير وراقبتها وهي تقف بيني وبين باب تلك الخزانة، كانت تحاول جاهدة أن تخفي العجب التهكمي مثل من يُجبر على إخفاء ثمالته، لكن الانتشاء كان بادياً، من المستحيل إخفاؤه.

« أنت ثملة كاميلا. ليس عليك أن تشربي كثيراً.» حماستها في الاعتراف

twitter @baghdad_library

بأنها فعلاً ثملة جعلتني مرتاباً. هناك وقفتْ، تومئ برأسـها مثل طفل مدلل، اعـتراف مبتسـم خجول، الشـفاه الناتئـة، نظرة من عينـين رخوتين. نهضت وقبّلتهـا. كانـت ثملـة، لكنهـا لم تكن ثملة مـن الويسـكي أو الكحول، لأن نفسَها كان شديد الحلاوة. جذبتها إلى جانبي على السرير. انجرفت في عينيها بهجة غامرة، موجة بعد موجة منها، تحرت عنقي بالشـهوة الواهنة لذراعيها وأصابعها، دندنت في شعري، شفتاها أمام رأسي.

همسـت:» لو كنت هو فقـط«، فجأة صرخت صرخة خارقـة مزقت جدران الغرفة:» لم لا يمكنك أن تكون هو! أوه يا يسوع المسيح! لم لا يمكنك ذلك؟«

راحـت تضربني بقبضتيها، تدق رأسي بيمناهـا ويسراها، تصرخ وتخدش في انفجار من جنون على القدر الذي لم يجعلني مثل سامي، أمسكت بخصرها، صرختُ عليها لتهدأ، ثبّتُّ ذراعيها ووضعت يدي على فمها الزاعق، نظرتْ إلي بعينـين متورمتين نافرتـين، تجاهد لتتنفس، قلت: « لـن أفلتك إلا بعد أن تعدينـي بـأن تبقي هادئة«، أومأت، تركتها وذهبت إلى الباب واسـتمعت إلى صوت خطوات. اسـتلقتْ على السرير، وجهها إلى الأسـفل، تبكي. مشيت عـلى رؤوس أصابعـي نحو بـاب الخزانة، لا بد أن الغريـزة نبهتها، تقلبتْ في السرير، وجهها تكسوه الدموع، عيناها مثل عنب مهروس.

قالت:» افتح ذلك الباب وسـوف أصرخ، سـأصرخ وأستمر بالصراخ«، لم أرغـب في حدوث ذلك، هـززت أكتافي. أعادت وجهها إلى وضعه السـابق وبكت ثانية. خلال وقت قصير سـتتوقف عن البكاء، ثم أستطيع أن أرسلها إلى البيت. لكن لم يحدث ذلك بتلك الطريقة. بعد نصف ساعة كانت ما تزال تبكي. انحنيت ولمست شعرها، وقلت:» ما الذي تريدينه كاميلا؟«

نشجت وقالت:» أريده، أريد أن أذهب لرؤيته.«

قلت:» الليلة؟ يا إلهي! إنه على بعد مئة وخمسين ميلاً.«

لم تهتـم حتـى ولو كان على بعـد ألف ميل، بل مليـون، أرادت أن تراه الليلة. طلبـت منها أن تذهب، كان حبها، ولديها سـيارة، يمكنها أن تصل إلى هناك

خلال خمس ساعات، قالت:» أريدك أن تأتي معي، هو لا يحبني. هو مع ذلك معجب بك.»

« ليس أنا، أنا ذاهب لأنام.»

توسلتني، ركعت على ركبتيها قبالتي، تمسك برجلي وتنظر نحوي. تحبه كثيراً، بالتأكيد كاتب عظيم مثلي يستطيع أن يتفهم أن يكون الحب على هذا النحو، بالتأكيد أعرف لم لا يمكنها الذهاب بمفردها، لمست عينها المصابة. سامي لن يطردها إذا ما كنت برفقتها. سيكون ممتناً بأنها جلبتني، كما يمكننا، أنا وسامي، أن نتحدث، لأنه كان بإمكاني أن أفيده كثيراً بشأن الكتابة، وسيكون ممتناً كثيراً لي ولها. نظرت إليها، صررت على أسناني، وحاولت أن أقاوم حججها، لكن عندما عرضت الأمر بتلك الطريقة كان كثيراً بالنسبة إليّ، عندما وافقت أن أذهب كنت أبكي معها. ساعدتها لتنهض ومسحت دموعها أبعدت الشعر عن وجهها وشعرت بالمسؤولية تجاهها. مشينا على أطراف أصابعنا على الدرج وعبر الرواق نحو الشارع حيث كانت قد ركنت سيارتها.

انطلقنا جنوباً وشرقاً بعض الشيء، تعاونا على قيادة السيارة. مع مطلع الفجر كنا في أرض قفر رمادية، من الصبار والميرمية وأشجار يوشع، صحراء حيث كان الرمل شحيحاً والمنبسط الشاسع برمته كان ملطخاً بصخور متناثرة ومرقشاً بتلال صغيرة شحيحة، ثم انعطفنا من الطريق السريع الرئيس ودخلنا سكة عربة مغلقة بصخور كبيرة نادرة الاستخدام. كان الطريق يعلو ويهبط على إيقاع التلال المهملة إلى أن وصلنا إلى منطقة الوهاد والمسيلات الشديدة الانحدار نهاراً، على بعد عشرين ميلاً في داخل صحراء موهافي. كان في الأسفل يعيش سامي، أشارت كاميلا إلى كوخ من الطوب جاثم في قاع ثلاث تلال حادة. كان على الحافة النهائية للمنبسط الرملي، إلى الشرق يمتد المنبسط إلى ما لا نهاية.

كنا متعبين، أرهقتنا حتى الإعياء سيارة الفورد الوثابة. كان الجو شديد البرودة في تلك الساعة. ركنا السيارة على بعد مئتي ياردة من المنزل وسلكنا

twitter @baghdad_library

الدرب الحجري إلى بابه. تقدمتها، عند الباب توقفت، سمعت من الداخل شخيراً حاداً. وقفت كاميلا في الخلف، ذراعاها معقودتان من حدة البرد. قرعت وسمعت أنيناً بالمقابل. طرقت ثانية، وحينئذٍ سمعت صوت سامي:» إذا كنت أنت، أيتها اللاتينية الصغيرة، سأركل أسنانك اللعينة»، فتح الباب ورأيت وجهاً تمسك به أصابع النوم بشدة، العينان رماديتان ودائختان، الشعر مخرب على جبهته.

« مرحباً سامي.»

قال: «أوه، ظننت أنها هي، قل لها أن تبتعد عن هنا، لا أريدها هنا.»

انكفأت إلى مكان أمام جدار الكوخ، ونظرت إليها، رأيتها تبتسم محرجة. كنا ثلاثتنا نشعر بالبرد، تصطك أفكاكنا. فتح سامي الباب على مصراعيه، وقال:» يمكنك الدخول، لكن هي لا.»

خطوت إلى الداخل، كانت الظلمة فاحمة، تنتشر رائحة سروال تحتي قديم ونوم جسد مريض. تسرب ضوء واهن من شق في النافذة المغطاة بقطعة من الخيش. أقفل سامي الباب قبل أن أستطيع منعه، وقف يرتدي سروالاً تحتياً طويلاً. كانت الأرض متسخة جافة مرملة وباردة، نزع الخيش عن النافذة ودخل الضوء متقلباً. تصبب البخار من أفواهنا في الهواء البارد.

قلت له:» دعها تدخل، سامي»

قال: « أوه، لا، ليس تلك العاهرة»

وقف بسرواله التحتي الطويل، كان لون ركبتيه ومرفقيه أسود من شدة القذارة. كان طويلاً، نحيلاً، جثة رجل، سفعته الشمس حتى اسودت بشرته. دخل الكوخ متجهاً إلى فرن يعمل على الفحم وبدأ يوقد النار. تغيّر صوته وأصبح ناعماً عندما تكلم:» كتبت قصة أخرى الأسبوع الماضي، أظن أنني كتبت قصة جيدة هذه المرة، أود أن تراها.»

قلت:» بالتأكيد، لكن اللعنة سامي إنها صديقتي.»

« إنها ليست جيدة، مجنونة، لا يأتيك منها إلا المشاكل.»

« دعها تدخل بأية حال، الطقس بارد في الخارج.»
فتح الباب ودفع رأسه نحو الخارج.
«هيه أنتِ!»
سمعت الفتاة تنشج، تحاول أن تستعيد رباطة جأشها، قالت: « نعم سامي»
« لا تقفي هناك كالحمقاء، هل ستدخلين؟»
دخلـت كغزال هلع في حين عاد هو إلى الفرن، قال:» أظن أنني أخبرتك بأني لست راغباً في رؤيتك هنا»
قالـت:» أنـا أتيـت به، أراد آرتـورو أن يتحـدث معك عـن الكتابة، أليس كذلك آرتورو؟»
« هذا صحيح.»
بدت غريبة. كل مكافحتها وعزتها كانت مستنزفة كالدم من أوردتها. وقفت جانباً، مخلوق دون روح أو إرادة، عظما كتفيها متهدلان، رأسها ذابل ولو أنه ثقيل جداً على عنقها.
قال لها سامي:» أنتِ، اذهبي وأحضري بعض الحطب، أنتِ.»
قلت:» سأذهب»
« دعها تذهب، هي تعرف مكانه.»
راقبتها تنسل خارجة من الباب. عادت خلال وقت قصير، محملة الذراعين. ألقـت الأعـواد في صندوق إلى جانب الفـرن، ودون أن تتكلم أطعمت النار بعـود في كل مـرة. جلس سـامي على صندوق وسـط الغرفة، يشـد جواربه. تكلم باستمرار عن قصصه، تدفق متواصل من الثرثرة. وقفت كاميلا مكتئبة إلى جانب الفرن.
« أنت، اصنعي بعض القهوة.»
وفعلت كما قيل لها، قدمت لنا القهوة في أكواب من التنك. بدا سـامي نشيطاً مـن بعد النـوم، كان ممتلئاً بالحماسـة والفضول. جلسـنا إلى النـار، كنت تعباً وأشـعر بالنعاس، تلاعبت النار الحاميـة بجفوني الثقيلة. كانت كاميلا تعمل

twitter @baghdad_library

خلفنا ومن حولنا، كنست المكان، رتبت السرير، غسلت الأطباق، علقت الملابس المبعثرة وظلت في نشاط متواصل. تحدث سامي أكثر، وأصبح شخصياً وأكثر وداً. كان مهتماً بالجانب المالي من الكتابة أكثر من الكتابة بحد ذاتها. كم تدفع تلك المجلة، وكم تدفع تلك، وكان مقتنعاً أن القصص لا تباع إلا بالمحسوبيات. لابد أن يكون لديك قريب أو أخ أو شخص ما مثل ذلك في مكتب محرر قبل أن يأخذوا واحدة من قصصك.

كانت محاولة إقناعه بلا جدوى، ولم أفعل، لأنني أعرف أن تبريره كان ضرورياً بالنظر لعدم قدرته على الكتابة بطريقة جيدة. أعدّت كاميلا الفطور، وأكلنا من أطباق في حجورنا. كان الطعام وجبة من ذرة مقلية مع لحم وبيض. أكل سامي بجرأة يتميز بها المرضى. بعد الوجبة، جمعت كاميلا الصحون وغسلتها، ثم تناولت طعامها جالسة في زاوية بعيدة، هادئة إلا صوت شوكتها على صحنها. كان سامي يتحدث طوال ذلك الصباح. لا يحتاج سامي حقيقة إلى أي نصيحة بشأن الكتابة. سمعته بشكل مبهم من خلال ضباب النعاس يخبرني كيف يجب ولا يجب أن تكون. لكنني كنت تعباً جداً. استأذنته. قادني إلى الخارج نحو عريشة من أغصان النخيل. في ذلك الوقت كان الهواء دافئاً والشمس عالية. استلقيت في الأرجوحة الشبكية وغفوت، وآخر شيء أتذكره كان منظر كاميلا تنحني على حوض الغسيل وتغسل في ماء غامق عدة سراويل ووزرات.

أيقظتني بعد ست ساعات لتخبرني أنها الساعة الثانية، وأن علينا أن ننطلق في رحلة العودة. كان عليها أن تكون في مقصف كولومبيا الساعة السابعة. سألتها عما إذا نامت. هزت رأسها بالنفي. كان وجهها مخطوطة من البؤس والإنهاك. نهضت من الأرجوحة ووقفت في هواء الصحراء الحار. كانت ملابسي مبللة بالعرق، لكنني كنت مرتاحاً ونشيطاً، قلت:» أين هو العبقري؟» أومأت نحو الكوخ، مشيت إلى الباب، منحنياً تحت حبل الغسيل الطويل والمثقل بالملابس النظيفة والجافة، سألتها:» هل فعلت كل هذا؟»،

أجابت مبتسمة: «كان الأمر مسلياً»
صدر شخير عميق من الكوخ. استرقت النظر إلى الداخل، كان سامي مستلقياً على السرير، نصف عار، بفم مفتوح، وذراعين وساقين مفرودتين. خرجت على أطراف أصابعي، وقلت:» إنها فرصتنا، لنذهب.»
دخلتْ الكوخ ومشت بهدوء إلى حيث كان سامي مستلقياً. راقبتها من الباب تنحني عليه، تتفحص الوجه والجسد، ثم انحنت أكثر مقرّبة وجهها من وجهه، كما لو أنها تقبله. في تلك اللحظة استيقظ والتقت عيناهما، قال: « اخرجي من هنا».
استدارت وخرجت. انطلقنا عائدين إلى لوس أنجلس في صمت مطبق حتى عندما توقفت لأنزل عند فندق آلتا لوما لم نتحدث، لكنها ابتسمتْ شاكرة وابتسمتُ مشفقاً، وانطلقت مبتعدة. كان الظلام قد حل، وتلاشت لطخة مغيب الشمس الزهرية اللون جهة الغرب. نزلت إلى غرفتي متثائباً، ورميت نفسي على السرير مستلقياً، تذكرت فجأة الخزانة المغلقة. نهضت وفتحت باب الخزانة، كل شيء بدا كما ينبغي، بدلي متدلية من العلاقات، حقيبتي على الرف العلوي. لكن لم يكن هناك ضوء في الخزانة، أشعلت عود ثقاب ونظرت تحت إلى الأرضية. في الزاوية كان هناك عود ثقاب محترق وحفنة من حبوب من مادة بنية مثل قهوة خشنة. ضغطت بأصبعي على المادة ثم تذوقتها بطرف لساني. عرفت ما كانت: ماريجوانا. كنت واثقاً من ذلك، لأن بيني كوهين أراني مرة المادة ليحذرني منها.
لهذا السبب كانت هنا، لابد أن يكون لديك غرفة محكمة الإغلاق لتدخن الماريجوانا. هذا فسر سبب نقل البُسط، استعملتها لسد الفرجة تحت الباب. كانت كاميلا مدمنة. استنشقت هواء الخزانة، وضعت منخري أمام الملابس المعلقة هناك. كانت الرائحة لذرة محروقة. كاميلا، مدمنة. لم يكن من شأني، لكنها كاميلا، لقد خدعتني وهزئت بي، وأحبت شخصا آخر، ولكن كانت جميلة جداً واحتجت إليها، وقررت أن أجعل منه شأني. كنت أنتظر سيارتها

twitter @baghdad_library

في الساعة الحادية عشرة ليلاً.
قلت:» إذن أنت مدمنة»
قالت:» بين الحين والآخر، عندما أكون متعبة.»
« توقفي عنه»
«إنها ليست عادة»
« توقفي عنها كيفما كانت.»
هزت كتفيها، وقالت:» إنها لا تزعجني.»
« عديني بأنك ستقلعين عنها.»
صنعت صليباً فوق رأسها، وقالت:» من قلبي وأتمنى أن أموت»، لكنها كانت تتحدث إلى آرتورو الآن، وليس إلى سامي. عرفت أنها لن تحفظ عهدها. أقلعت السيارة وانطلقت من برودواي نحو الشارع الثامن ثم جنوباً نحو الجادة المركزية، قلت:» إلى أين نحن ذاهبون؟»
« انتظر وسترى.»
مشينا نحو حزام لوس أنجلس الأسود، الجادة المركزية، النوادي الليلية، مجمعات سكنية مهجورة، مجمعات أعمال مفلسة، الشارع المهجور الفقير للسود والفاخر للبيض. توقفنا تحت خيمة نمرة ليلية تدعى نادي كوبا. تعرف كاميلا البواب، ضخم في لباس رسمي أزرق بأزرار مذهبة، قالت:» عمل»، كشر مشيراً إلى شخص كي يحل مكانه، وقفز على لوح الإدارة. تم بشكل روتيني كما لو أنه قد حدث من قبل. استدارت عند التقاطع وواصلت لشارعين، إلى أن وصلنا إلى الزقاق. التفت عند الزقاق، مشعلة الأضواء وحدقت بحذر في منحدر أسود. وصلنا إلى فرجة ما وكبحت المحرك.
قفز الأسود الكبير من لوح الإدارة ونتر الكشاف الكهربائي، مومئاً لنا أن نتبعه، قلت:» هل لي أن أسأل ماذا كل هذا؟» دخلنا باباً. تقدمنا الرجل الأسود. أمسك بيد كاميلا، وهي أمسكت بيدي. مشينا في ممر طويل أرضيته خشبية، غير مفروش بالسجاد. طاف صدى خطواتنا بعيداً مثل طيور

مرعوبة، عبر الطوابق العليا. تسلقنا ثلاثة سلالم من الأدراج ووصلنا إلى قطعة من صالة أخرى. في النهاية كان هناك باب، فتحه الأسود، في الداخل كانت الظلمة حالكة. دخلنا، انبعثت من الغرفة رائحة دخان غير مرئي، احترق مثل هدب العين. اختنقت بالدخان، قفز من منخري. في الظلمة تجرعت لأتنفس، ثم أضاء الأسود بمصباحه.

طاف الشعاع حول الغرفة الصغيرة. كانت الأجساد في كل مكان، أجساد السود، رجال ونساء، نحو عشرين رجلاً وامرأة، يستلقون على الأرض وعلى سرير لم يكن سوى حشية على نوابض. استطعت رؤية عيونهم الواسعة والرمادية، بدت كالمحار عندما ضربها الضوء. تدريجياً دربت نفسي على الدخان المحترق، ورأيت نقاطاً صغيرة حمراء من الضوء في كل مكان، لأنهم كانوا جميعهم يدخنون الماريجوانا بهدوء في الظلمة، وخزت الحدة رئتي، أفرغ الأسود الضخم السرير ممن كانوا يجلسون عليه، قذف بهم كمن يرمي الكثير من الحبوب على الأرض، كشفته بقعة الضوء وهو يحفر فتحة صغيرة في الحشية. كان تبغ الأمير ألبرت. فتح الباب، وتبعناه على الدرج وعبر الظلمة نفسها نحو السيارة. ناول العلبة لكاميلا، فأعطته دولارين. أوصلناه إلى عمله، ثم واصلنا نحو الجادة المركزية إلى لوس أنجلس العاصمة.

كنت صامتاً. انطلقنا إلى بيتها في شارع تمبل. كان المبنى مثيراً للاشمئزاز، منزل خشبي أسقمته الشمس وأهلكته. كانت تعيش في شقة، فيها سرير قابل للطي، راديو، أثاث قذر أزرق منجد. الأرضية المكسوة بالسجاد يتناثر عليها الفتات والقذارة، وفي الزاوية تمددت مجلة سينمائية كشخص عار. كان هناك دمى منصوبة هنا وهناك، تذكارات من ليال مبهرجة في منتجعات شاطئية. كما يوجد دراجة في الزاوية بعجلات مسطحة تشهد على عدم استعمالها وقتاً طويلاً. في إحدى الزوايا صنارة صيد بخطافات متشابكة وخيط، وفي زاوية أخرى بندقية مغبرة، تحت الأريكة مضرب بيسبول، وبين الوسائد يوجد إنجيل ساكن على الكرسي المنجد. كان السرير مفروداً، ولم

twitter @baghdad_library

تكـن الأغطية نظيفة. كان هناك صـورة طبق الأصل للفتى الأزرق على أحد الجدران وأخرى للهندي الشجاع يحيي السماء على جدار آخر.
دخلـت إلى المطبخ الذي تفوح من مغسـلته رائحة القمامة، رأيت المقالي المزيتة على الفرن. فتحت البراد وكان فارغاً فيما عدا علب اللبن ومكعب من الزبدة. لم يكـن باب الثلاجـة ليغلق، وبدا أن هذا وضعه الطبيعـي. نظرت في الخزانة خلـف السرير، كان هنـاك الكثير من الملابس والكثير مـن علاقات الملابس، لكـن كلها كانت على الأرض، فيما عدا قبعة من القش كانت معلقة، سـخيفة في الأعلى لوحدها. إذن هذا هو المكان الذي كانت تعيش فيه! شـممته، لمسته بأصابعي، مشـيت فيه بقدمي. كان كما تخيلته. هذا كان بيتها. كان بإمكاني أن أتعـرف إلى المـكان معصوب العينـين، لأن عطرها وحرارتها اسـتحوذا عليه، الوجود المفقود دل عليه كجزء من أحبولة مستحيلة. شقة في شارع تمبل، شقة في لوس أنجلـس. تنتمي إلى التلال المتدحرجة، الصحاري الواسـعة، الجبال العالية، قد تدمر أي شقة، قد تقدم على تخريب أي سجن صغير كهذا. كان كما تخيلته، جزء من رسمي وتفكيري بها. هذا كان بيتها، خرابها، حلمها المبدد.
خلعت معطفها ورمت نفسـها على الأريكة. راقبتها تحدق كئيبة إلى السـجادة القبيحـة. وهي جالسـة في الكـرسي المنجد، نفثـتُ سـيجارة وتركت عيناي تجـول في جانب ظهرها المنحني ووركيها. الممـر المعتم لفندق الجادة المركزية ذاك، الزنجـي المشـؤوم، الغرفة السـوداء ومدمنـو المخـدرات، والآن الفتاة التـي أحبـت رجلاً يكرههـا. كانت كلهـا في زي واحد جانـح، مخدر في قبح آسر. منتصف الليل في شـارع تمبل، علبة من الماريجوانا بيننا. استلقت هناك، أصابعها الطويلة مدلاة على السجادة، تنتظر كسولة متعبة.
سألتني:" هل جربتها يوماً؟"
أجبت:" ليس أنا".
" مرة واحدة لن تؤذيك."
" ليس أنا."

نهضت، بحثت عن علبة الماريجوانا في حقيبتها، سحبت علبة تحتوي على ورق السجائر. أفرغت مقدار ورقة، لفتها، لعقتها، قرصت النهايات، وناولتني إياها. أخذتها، مع ذلك قلت:» ليس أنا»، لفت واحدة لها، ثم نهضت وأغلقت النوافذ، تأكدتْ من إقفالها جيداً. سحبت غطاء السرير ودسته تحت فرجة الباب. نظرت حولها بحذر. نظرت إلي مبتسمة، وقالت: «تختلف ردود الأفعال باختلاف الأشخاص، ربما ستشعر بالحزن، وقد تبكي.»

قلت: « ليس أنا»

أشعلت لفافتها، وظلت ممسكة بعود الثقاب من أجل لفافتي.

قلت:» لا ينبغي عليَّ أن أفعل هذا»

قالت: « دخن ثم احبس. احبس وقتاً طويلاً حتى تشعر بالألم، ثم أخرجه.»

قلت:» هذا عمل سيء»

دخنتها. حبست وقتاً طويلاً حتى آلمني، ثم تركته يخرج. استلقتْ أمام الأريكة وفعلت الأمر نفسه، وقالت:» أحياناً يستغرق اثنين منهم»

قلت:» إنها لا تؤثر فيّ «

دخناها حتى أحرقت أطراف أصابعنا، ثم قمت بلف اثنتين أخريين. في منتصف الثانية بدأ ينتابني إحساس الطواف والانبعاث بعيداً عن الأرض، فرح الرجل وانتصاره على المكان، الإحساس الاستثنائي بالقوة. ضحكت ودخنت ثانية. استلقت هناك، يعلو وجهها وهن الليل البارد والعاطفة التهكمية. لكنني كنت بعيداً عن الغرفة، بعيداً عن حدود لحمي، عائماً في أرض الأقمار المتألقة والنجوم اللامعة. كنت لا أقهر. لم أكن أنا، لم أحظ أبداً بذلك الرفيق بسعادته الضارية وشجاعته الغريبة. التقطت المصباح على الطاولة بجانبي، نظرت فيه ورميته على الأرض، تكسر شظايا. ضحكت. سمعت الضجة، رأت الخراب، وضحكت أيضاً، قلت:» ما المضحك؟»، ضحكت مجدداً. نهضت، عبرت الغرفة، وأخذتها بين ذراعي. بدتا قويتين بشكل رهيب حتى أنها لهثت من شدة افتتانها ورغبتها.

twitter @baghdad_library

شـاهدتها تقف لتخلع ملابسـها، في مكان ما خارج الماضي الأرضي تذكرت أنني رأيت وجهها من قبل، ذلك الانقياد والخوف، وتذكرت الكوخ وسامي يطلب منها أن تخرج وتجلب بعض الحطب. كان كما لو أنني عرفت أنه مقدر أن يكون عاجلاً أم آجلاً. زحفت داخل أذرعي وضحكت من دموعها.

عندمـا انتهـى كل شيء، حلم العـوم نحو نجوم غامرة، وعـاد اللحم لضبط دمي في قنواته الواقعية، عندما عادت الغرفة القذرة الدنيئة، السـقف الفارغ الأجوف، العالم المهدور المتعب –لم أشعر بشيء سوى إحساس قديم بالذنب، إحسـاس بالإثم والانتهاك، ذنب التدمير. جلسـت إلى جانبها وهي مستلقية عـلى الأريكة. حدقـت بالسـجادة. رأيت شـظايا زجاج المصباح المكسـور. وعندما نهضت لأمشي في الغرفة، شعرت بألم حاد في لحم قدمي المتمزق تحت ثقـلي، تألمت كثيراً. كانت قدمي مجروحة عندما انتعلت حذائي وخرجت من تلك الشـقة نحو البريق المذهل لليل. مشـيت الطريق الطويل إلى غرفتي وأنا أعرج. فكرت بأنني لن أرى كاميلا لوبيز ثانية أبداً.

الفصل السابع عشر

لكن الأحداث الكبيرة كانت قادمة، وما من أحد أحدّثه عنها. ذات يوم أنهيت قصة فيرا ريفكن، تبحر أيام مراجعتها المرحة بيسر يا هاكموث، بضعة أيام وسترى شيئاً عظيماً. أنهيت المراجعة وأرسلتها، بعدئذٍ جاء الانتظار والأمل. صليت مرة أخرى. ذهبت إلى القداس وتناولت القربان المقدس وتلوت الصلوات، أشعلت الشموع في مذبح العذراء المباركة. صليت طلباً لمعجزة.
حصلت المعجزة على الشكل التالي: كنت جالساً في غرفتي بمحاذاة النافذة، أرقب حشرة تدب على عتبتها. كانت الساعة الثالثة والربع من بعد ظهر يوم الخميس. سمعت طرقاً على بابي. فتحته، كان صبي البرقيات واقفاً هناك، جلست على السرير وتساءلت عما لو كان النبيذ قد بلغ أخيراً قلب الرجل الكبير. قالت البرقية: قُبل كتابك وسأرسل العقد اليوم. هاكموث. هذا كان كل شيء. تركت الورقة تتهاوى على السجادة، جلست هناك ثم نزلت إلى الأرض ورحت أقبّل البرقية. زحفت تحت السرير واستلقيت. لست بحاجة إلى نور الشمس بعد الآن. ولا للأرض، ولا للسماء. جلست هناك سعيداً حتى الموت. لا شيء آخر يمكن أن يحدث لي، انتهت حياتي.
هل كان العقد قادماً بالبريد الجوي؟ في الأيام التالية ذرعت الأرض وقرأت الأوراق. لم يكن البريد الجوي عملياً، إنه بالغ الخطورة. فليسقط البريد الجوي. كانت الطائرات تهوي كل يوم مغطية الأرض بالركام، وتقتل الطيارين: لم تكن آمنة، مغامرة رائدة، في أي جحيم كان عقدي؟ اتصلت بمكتب البريد. كيف هي ظروف الطيران فوق سلاسل الجبال الوعرة. جيد. هل تتحمل الطائرات جميعها المسؤولية؟ جيد. لا يوجد دمار؟ إذن أين عقدي؟ أمضيت وقتاً طويلاً أتمرن على توقيعي. قررت أن استعمل اسمي الأوسط، كاملاً، آرتورو دومينيك بانديني، أ.د.بانديني، آرتورو د. بانديني،

twitter @baghdad_library

أ.دومينيك بانديني. وصل العقد صباح الاثنين بالبريد المضمون، معه شيك مصرفي بقيمة خمسـمئة دولار. يا إلهي، خمسـمئة دولار! لقد كنت واحداً من الأحصنة الأصيلة، يمكنني أن أتقاعد مدى الحياة.

الحـرب في أوربا، خطاب لهتلر، مشـاكل في بولونيا، هـذه آخر الموضوعات. أي هراء! أنتم دعاة حرب أيها الكبار في بهو فندق آلتا لوما، ها هي الأخبار، هنـا في هـذه الورقة الصغيرة بـكل الكتابة المرخصة الخياليـة، كتابي! ليذهب هتلر ذاك إلى الجحيم، هذه أكثر أهمية من هتلر، هذه عن كتابي. لن تهز العالم، لن تقتل روحاً، لن تطلق النار، آه، لكن ستتذكرونها حتى المهات، ستسلقون هناك وأنتم تلفظون أنفاسكم الأخيرة، وستبتسمون وأنتم تتذكرون الكتاب.

قصـة فيرا ريفكن، فلـذةٌ من حياة. لم يكونوا مهتمـين، لقد فضلوا الحرب في أوربا، والصور المضحكة، وكهنة لويلا، والمأسـاويين، والفقراء. جلسـت في بهو الفندق وهززت رأسي بحزن.

لا بد أن أخبر شـخصاً ما، ومن سـوى كاميلا. لم أرها منذ ثلاثة أسابيع، منذ الماريجوانا في شـارع تمبل. لكنها لم تكن في الحانة، أخذت مكانها فتاة أخرى. سـألت عن كاميـلا. لم تتكلم الفتاة الأخـرى. فجأة صار مقصـف كولومبيا كالقـبر. أخـبرني السـاقي البديـن أنها لم تـأت إلى هنـاك منذ أسـبوعين. هل طردت؟ لم يستطع البوح؟ هل هي مريضة؟ لا يعرف. ولم يكن ليتكلم أيضاً. يمكننـي تحمـل تكاليف سـيارة أجرة، كـما يمكنني أيضاً دفـع أجرة عشرين سـيارة، أركبهـا ليلاً نهاراً. اسـتقليت واحـدة وتوجهت إلى منـزل كاميلا في شـارع تمبل. طرقت بابها فلم ألق جوابـاً. جربت فتحه بنفسي فانفتح، المكان مظلم في الداخل، أشـعلت المصباح. كانت تسـتلقي في السرير القابل للطي، وجهها وجه وردة قديمة مجففة موضوعة في كتاب، مصفر، عيناها فقط تثبت أنها حية. فاحت من الغرفة رائحة العفن. كانت السـتائر مسـدلة، فتح الباب بصعوبة حتى ركلت البساط تحت الفرجة. انبهرت سعيدة لرؤيتي، قالت:" آرتورو، أوه، آرتورو!"

لم أتحدث عن الكتاب أو العقد. من يهتم لرواية، رواية أخرى لعينة؟ تلك اللسعة في عيني كانت من أجلها، كانت عيناي تتذكر الفتاة الوحشية الضامرة في ضوء القمر على الشاطئ، رقصت فتاة جميلة حاملة صينية البيرة بذراعيها المكتنزتين. هي الآن مستلقية، كسيرة، تتمنى الموت. تلك كانت كلماتها حين قالت: " لا أهتم ".

قلت لها: " يجب أن تأكلي "، لأن وجهها لم يكن سوى جمجمة وجلد أصفر مشدود عليها بإحكام. جلستُ على السرير، أمسكت بأصابعها، أتحسس العظام، مدهوشاً من أنها كانت عظاماً صغيرة، تلك التي كانت مستقيمة ومدورة وطويلة، قلت: " أنت جائعة " لكنها لم ترغب في تناول الطعام، قلت: " تناولي شيئاً بأي حال ".

خرجت لأشتري من متجر البقالة الصغير على بعد بضعة أبواب في الشارع. مررت على الأقسام كلها. أعطني كل هذه، وكل تلك، أعطني هذا وأعطني ذاك. حليب، خبز، عصير معلب، فاكهة، زبدة، خضار، لحم، بطاطا. استلزمني الأمر ثلاث دورات لأحملها إلى بيتها. عندما تكدست في المطبخ نظرت إلى الحاجيات وحككت رأسي متسائلاً عما سأقدم لها. قالت: " لا أريد شيئاً ".

غسلت كأساً وملأته حليباً حتى آخره. نهضتْ، انشق قميص نومها الممزق عند الكتف أكثر عندما تحركت أثناء نهوضها. أمسكت بأنفها وشربته بثلاث جرعات، ولهثت مستندة إلى الخلف، مروعة، مصابة بالغثيان.

قلت: " عصير فاكهة، عصير عنب. إنه أكثر حلاوة، وطعمه أفضل. " فتحت الزجاجة، سكبت ملء الكأس، وأمسكته لها. ابتلعته، استندت إلى الخلف ولهثت ثم وضعت رأسها على جانب السرير وتقيأت. نظفته. نظفت الشقة. غسلت الصحون ودعكت المغسلة. غسلت وجهها. أسرعت على الدرج، استقليت سيارة، وطفت في المنطقة أبحث عن مكان لأشتري لها قميص نوم نظيف. اشتريت بعض الحلوى أيضاً، وكومة من المجلات المصورة، لوك،

twitter @baghdad_library

بيك، سي، ساك، واك[1]، جميعها-شيء للترويح عنها، للتخفيف عنها.
عندما عدت كان الباب مقفلاً. وعرفت القصد من وراء ذلك. طرقته بقبضتي وركلته بكعبي. عم الصخب البناء برمته. انفتحت أبواب الشقق الأخرى في البهو، وخرجت الرؤوس. جاءت من الطوابق السفلية امرأة ترتدي برنساً قديماً. كانت المؤجرة، يمكنني أن أعرف المؤجرة في الحال. وقفت في رأس الدرج، تخشى الاقتراب.
قالت:" ماذا تريد؟"
قلت:" إنه مقفل، عليَّ الدخول."
" دع الفتاة وشأنها، أعرف من أي نوع أنت. دع تلك الفتاة المسكينة وشأنها أو سأتصل بالشرطة."
" أنا صديقها"
تناهى إلى سمعي من الداخل ضحك كاميلا الهستيري المبتهج، صرخة الرفض الطائشة" ليس صديقي! لا أريده هنا!"، ثم ضحكها مرة ثانية عالياً وفزعاً كالطير الحبيس في غرفة. كان الجو باعثاً على الاشمئزاز، منذراً بالسوء. ظهر رجلان في أكمام قصيرة في الطرف الآخر من الصالة. يدخن الأضخم بينهما سيجاراً، قال وهو يرفع بنطاله: " لنخرج الرجل من هنا"، حينئذٍ بدأت أتحرك، ارتد عنهما وأحث السير بمحاذاة السخرية الخسيسة من المؤجرة نزلت الدرج إلى الصالة في الأسفل. ورحت أركض في الشارع. عند تقاطع شارعي برودواي وتمبل رأيت سيارة مركونة. ركبتها وطلبت من السائق أن يواصل السير فحسب. لا، لم يكن من شأني. لكن يمكنني أن أتذكر خصل شعرها السوداء، عمق عينيها الوحشي، النخعة في حفرة معدتي في الأيام الأولى التي عرفتها فيها. بقيت يومين بعيداً عن المكان، ثم لم أستطع أن أتمالك نفسي، أردت أن أساعدها. أردت أن أبعدها عن ذلك الفخ المحجوب، أن أرسلها إلى مكان ما في الجنوب قريباً من البحر. يمكنني أن

(1) أسماء مجلات.

أفعلها. لدي النقود. فكرت بسامي، لكنه كان يمقتها بشدة. إذا ما استطاعت أن تخرج من البلدة، فسيكون في ذلك عون كبير. قررت أن أحاول مرة ثانية. كان الوقت حوالي الظهر. الجو حار جداً، وحار في غرفة الفندق. لقد فعلتها بسبب الحر، الملل البغيض، الغبار على الأرض، الهبّات الحارة من موهافي. ذهبت إلى الجهة الخلفية لشقة شارع تمبل. كان هناك درج خشبي يؤدي إلى الطابق الثاني. في يوم مثل هذا سيكون بابها مفتوحاً، لتبريد المكان بالتهوية القادمة من النافذة. كنت محقاً، فالباب كان مفتوحاً، لكنها لم تكن هناك. حاجياتها مكومة وسط الغرفة، تبرز منها صناديق وحقائب وثياب. كان السرير مفروداً، الحشية العارية بغير أغطية. المكان خال من الحياة، ثم شممت رائحة مطهر. تم تعقيم الغرفة. نزلت الدرج ثلاث درجات في كل مرة إلى باب المؤجرة.

قالت وهي تفتح الباب:" أنت! أنت!" وصفقته في وجهي، وقفت خارجاً، أقول لها مترجياً:

" أنا صديقها، أقسم بالله أريد مساعدتها. لا بد أن تصدقيني."

" اذهب أو سأتصل بالشرطة."

" لقد كانت مريضة، احتاجت إلى المساعدة. أريد أن أفعل شيئاً من أجلها، عليك أن تصدقيني."

فتح الباب. وقفت المرأة تنظر في عيني مباشرة، كانت متوسطة الطول، بدينة، وجهها خشن خالٍ من التعابير، قالت: " ادخل"

دخلت في غرفة باهته، مزينة وغريبة، تتكوم فيها أدوات عجيبة، بيانو تبعثرت عليه صور كئيبة، شالات بألوان غريبة، مصابيح مزينة ومزهريات. طلبت من الجلوس، لكنني لم أجلس.

قالت:" تلك الفتاة رحلت، كانت تجن. كان عليَّ فعل ذلك."

" أين هي؟ ما الذي حدث؟"

" كان عليَّ أن أفعل. مع أنها كانت فتاة لطيفة."

twitter @baghdad_library

كانت مضطرة إلى الاتصال بالشرطة-هذه كانت قصتها. في الليلة التالية لوجودي هناك. أصاب كاميلا الجنون، راحت ترمي الأطباق، تلقي الأثاث من النافذة، تصرخ وتركل الجدران، تشق الستائر بالسكين. اتصلت المؤجرة بالشرطة. فأتت وكسرت الباب، واحتجزتها. لكن الشرطة رفضت أن تأخذها. أمسكوا بها، حتى وصلت سيارة الإسعاف. أخرجوها وهي تولول وتقاتل. هذا كل شيء، إلا أن كاميلا مدينة بنقود الإيجار لثلاثة أسابيع كما أحدثت ضرراً لا يمكن تعويضه في الأثاث والشقة. ذكرت المؤجرة رقماً، دفعتُ نقودها. ناولتني فاتورة وابتسمت بريائها الملس:

" كنت أعرف أنك ولداً طيباً، عرفت من اللحظة التي رأيتك فيها. لكن لا يمكنك أن تثق بالغرباء في هذه المنطقة."

ركبت الحافلة إلى مستشفى المقاطعة. عندما ذكرت اسم كاميلا لوبيز للممرضة في غرفة الاستقبال، راحت تفحص ملف الأسماء، قالت:" إنها هنا، لكن لا يسمح بالزيارة."

" كيف حالها؟"

" لا يمكنني الإجابة."

" متى يمكنني رؤيتها؟"

كان يوم الأربعاء يوم الزيارات. كان علي أن أنتظر أربعة أيام إضافية. خرجت من المستشفى الكبير وجلت حول الساحات. نظرت إلى النوافذ وجلت في الساحات، ثم ركبت الحافلة إلى شارع هيل وبنكر هيل. أربعة أيام من الانتظار. قضيتها في لعب البولينج وآلات النقود المعدنية. كان الحظ يعاكسني، خسرت الكثير من النقود، لكنني قتلت الكثير من الوقت. بعد ظهر يوم الثلاثاء مشيت وسط المدينة وبدأت شراء الحاجيات لكاميلا. اشتريت راديو محمول وصندوق حلوى، وفستاناً والكثير من الآيس كريم وما شابه ذلك، ثم ذهبت إلى متجر الزهور وطلبت دزينتين من زهور الكاميليا. كنت محملاً عندما ذهبت إلى المستشفى بعد ظهر يوم الأربعاء.

ذبلت زهور الكاميليا ليلاً، لأنني لم أفكر بوضعها في الماء. تصبب العرق من وجهي وأنا أصعد درج المستشفى. كنت أعرف أن النمش على وجهي كانت متورداً، كدت أشعر بها تبقبق من وجهي.
كانت المرضة نفسها في مكتب الاستقبال. وضعت الهدايا على الكرسي وطلبت رؤية كاميلا لوبيز. تفحصت المرضة ملف البطاقات الاسمية، وقالت: "لم تعد الآنسة لوبيز هنا، لقد نُقلت"، كنت أشعر بالحر والتعب، سألتها: " أين هي؟"، تأوهت عندما أجابت بأنه لا يمكنها القول.
قلت للممرضة: "أنا صديقها، أريد مساعدتها."
قالت: "أنا آسفة"
" من سيخبرني؟"
نعم، من سيخبرني؟ ذهبت في كل أنحاء المستشفى، في الطابق الأعلى والطابق الأسفل. رأيت الأطباء ومساعدي الأطباء، رأيت الممرضات ومساعدي الممرضات، انتظرت في الأروقة والصالات، لكن لم يخبرني أحد بأي شيء. جميعهم نظروا في الملف الصغير وقالوا الأمر نفسه: نُقلت. لكنها لم تمت. كلهم أنكروا ذلك، وصلوا بسرعة إلى نقطة أنها لم تمت، كان عليهم أن يأخذوها إلى مكان آخر. كان بلا نفع. خرجت من الباب الأمامي في ضوء الشمس المبهر إلى مكان توقف الحافلة. وأنا ألوح للسيارة تذكرت الهدايا. كانت هناك في مكان ما، لم أعد أتذكر في أي غرفة انتظار. لم أهتم. ركبت عائداً إلى بنكر هيل مكسور الخاطر.
إذا نُقلت، فهذا يعني ولاية أخرى أو مؤسسة المقاطعة، لأنها لا تملك المال. المال. لدي نقود. لدي ثلاث قبضات من النقود، والمزيد في البيت في سراويلي الأخرى. يمكنني أن أجمعها وأجلبها لهم، لكنهم لم يقولوا لي ما الذي حل بها. وما فائدة المال؟ كنت سأنفقه بأي حال، وتلك القاعات المخدرة بالأثير، هؤلاء الأطباء الغامضون بأصواتهم الخفيضة، تلك الممرضات الهادئات الكتومات أربكنني. نزلت من الحافلة دائخاً. في منتصف الطريق على أدراج

twitter @baghdad_library

بنكر هيل جلست على عتبة ونظرت إلى المدينة في الأسفل يلفها الضباب، الأصيل المغبر والسديمي. تنفست من منخري الحرارة المرتفعة من السديم. انتشرت فوق المدينة غيمة بيضاء كالضباب. لكنها لم تكن ضباباً، كانت حرارة الصحراء، لفحات عظيمة من صحراء موهافي وسانتا آنا، أصابع البيداء الشاحبة البيضاء، تمتد أبداً مطالبة بطفلها الأسير. في اليوم التالي عرفت ما الذي حل بكاميلا. أجريت من صيدلية في وسط المدينة مكالمة هاتفية بمقسم مؤسسة المقاطعة للأمراض العقلية في ديل ماريا. سألت عاملة المقسم عن اسم الطبيب المسؤول هناك، قالت:" الطبيب دانيلسون".

قلت لها: "أوصليني بمكتبه."

أوصلت اللوحة وجاء صوت امرأة أخرى من خلال السلك." مكتب الطبيب دانيلسون."

قلت:" أنا الدكتور جونز، دعيني أتحدث إلى الطبيب دانيلسون من أجل مُلح."

قالت:" لحظة من فضلك."، ثم سمعت صوت رجل" دانيلسون يتحدث."

قلت: "مرحباً دكتور، أنا الدكتور جونز، إدموند جونز، من لوس أنجلس. نُقلت الآنسة كاميلا لوبيز من مستشفى المقاطعة. كيف حالها؟"

قال:" لا يمكننا القول، إنها ماتزال تحت المراقبة. هل قلت إدموند جونز؟"

أغلقت الهاتف. على الأقل أعرف مكانها. أعرف أمراً واحداً، أما محاولة رؤيتها فموضوع آخر. مستحيل. تحدثت إلى أناس أعرفهم. لابد أن تكون قريباً من النزلاء، ولابد أن تثبت ذلك. عليك أن تراسلهم طلباً لموعد، وتأتي بعد أن يستقصون. لا يمكنك أن تراسل النزلاء، ولا يمكنك أن ترسل إليهم الهدايا. لم أذهب إلى ديل ماريا. كنت راضياً بأنني فعلت ما بوسعي. كانت مختلة العقل، ولم يكن هذا من شأني. فضلاً عن كونها تحب سامي.

مرت الأيام، انهمرت أمطار الشتاء في أواخر شهر تشرين الأول، ووصلت نسخ تجريبية من كتابي. اشتريت سيارة فورد 1929. كانت سيارة مكشوفة سريعة كالريح، ومع قدوم الأيام الجافة رحت في جولات طويلة على طول

الخط الساحلي الأزرق إلى فينتورا وسانتا باربرا نزولاً إلى سان كليمنت، ثم إلى سان دييجو، متتبعاً خط الرصيف الأبيض تحت النجوم المضيئة، قدمي على لوحة القيادة، رأسي مليء بخطط من أجل كتاب آخر، ليلة تلو أخرى، كلها معا تتهجى أيام حالمة لم أعرفها سابقاً، أيام هنية خشيت استيضاحها. طفت خلسة المدينة بسيارة الفورد، وجدت أزقة غامضة وأشجاراً وحيدة ومنازل قديمة بالية من الماضي المندثر. عشت في سيارتي الفورد ليل نهار، متوقفاً فقط في الوقت اللازم لطلب الهامبرجر وفنجان القهوة من مقاهٍ غريبة على جانب الطريق. هذه حياة تليق بالإنسان، تطوف وتتوقف ومن ثم تمضي، تتبع أبداً الخط الأبيض على امتداد الساحل المتنقل، وقت للاسترخاء على العجلة، أشعل سيجارة أخرى، وتلمس المعاني بحماقة في تلك السماء الصحراوية المحيرة.

ذات ليلة كنت في سانتا مونيكا حيث ذهبنا أنا كاميلا للسباحة في تلك الأيام الأوائل. توقفت وراقبت الأمواج المزبدة والسديم الغامض. تذكرت الفتاة تجري عبر الهدير المزبد، تجد متعة بالغة في الحرية الجامحة لتلك الليلة. أوه، تلك الـ"كاميلا"، تلك الفتاة! تلك الليلة من أواسط تشرين الثاني، عندما كنت أمشي في شارع سبرينج، أبحث بفضول في متاجر الكتب المستعملة. كان مقصف كولومبيا على بعد كتلة سكنية واحدة. فقط من أجل مناكدته، قلت، من أجل الأيام الغابرة، صعدت إلى الحانة وطلبت بيرة. كنت قد أصبحت متمرساً في ذلك الوقت. نظرت حولي متهكماً، أتذكر عندما كان هذا المكان رائعاً بالفعل. لكن لم يعد كذلك. لا أحد يعرفني، لا النادلة الجديدة بفكها المحشو باللبان، ولا العازفتان اللتان ماتزالان تعزفان "حكايات من غابات فيينا" على الكمان والبيانو. ومع ذلك فقد تذكرني الساقي البدين. ستيف، أو فينس، أو فيني، أو أياً كان اسمه، قال لي:

" لم أركَ منذ وقت طويل"

قلت:" منذ أن رحلت كاميلا"

twitter @baghdad_library

طقطق بلسانه، وقال:" سيء جيداً، وأيضاً ولد ظريف."

هـذا كل شيء. شربـت بيرة أخرى، ثم شربت ثالثة. قـدم لي الكأس الرابع، ودعوتـه في الدورة التالية. مرت سـاعة عـلى ذلك الحال. وقـف قبالتي ماداً يـده إلى جيبـه، ورمى قصاصة مـن صحيفة، وقال:" أفترض أنـك قد رأيتها من قبل."، التقطتها، لم تكن أكثر من سـتة أسـطر، وسـطرين بأحرف كبيرة من أسـفل صفحة داخليـة. كانت الشرطـة المحلية تبحث اليـوم عن كاميلا لوبيز،22، من لوس أنجلس، إذ اكتشفت السلطات في الليلة الماضية اختفاء كاميلا من مؤسسة ديل ماريا.

كان عمـر القصاصة أسـبوع. تركـت البـيرة وغادرت المـكان، صعدت التلة إلى غرفتي. كنت أستشـعر بقدومها. شـعرت برغبتهـا في العودة إلى غرفتي. سـحبت كرسيي، جلسـت وقدمي على النافذة، الضوء منار، أدخن وأنتظر، شـعرت في أعماقـي بأنهـا آتيـة، موقنـاً أنه ما مـن آخر قـد تلجأ إليـه. لكن لم تـأتِ. ذهبـت إلى السرير تاركاً النور مضاء. قضيت الليلتين التاليتين جالسـاً في الغرفـة، أنتظر رشـقة من الحصى عـلى نافذتي. بعد الليلـة الثالثة بدأ اليقين بقدومهـا يضمحـل. لا، لـن تأتي إلى هنا. سـوف تهرب إلى سـامي، إلى حبها الحقيقي. آخر شـخص سـتفكر به هو آرتورو بانديني. هذا ناسـبني بشـكل رائـع. في النهايـة، أنا روائـي الآن، وشيء ما بخصوص كاتـب قصة قصيرة أيضاً، حتى لو قلت ذلك لنفسي.

وصلتنـي في صبـاح اليوم التالي برقيتها الأولى. كانت تطلب إرسـال المال إلى ريتـا جوميـز عن طريق شركة ويسـترن يونيون، سـان فرانسيسـكو. وقعت البرقية باسم " ريتا" لكن الهوية كانت واضحة. أرسلت إليها عشرين دولاراً وطلبت منها أن تأتي جنوباً إلى سـانتا باربرا، حيث ألاقيها هناك. أبرقت بهذا الرد: " أفضل أن أذهب شمالاً، شكراً ، آسفة، ريتا."

أتت البرقية الثانية من فريسـنو. كانت طلباً آخر للمال، كي يُرسـل باسم ريتا جوميز، عناية البرق البريدي. بعد يومين من البرقية الأولى، مشيت إلى وسط

المدينة وأرسلت خمسة عشر دولاراً. جلست وقتاً طويلاً في مكتب البرقيات أكتب الرسائل لأرسلها مع المال، لكنني لم أستطع أن أحزم أمري. أخيراً، استسلمت وأرسلت المال فقط. لم أقل شيئاً يحدث فرقاً لدى كاميلا لوبيز. لكن أمراً واحداً كان أكيداً تعهدته في طريق عودتي إلى الفندق: لن تحصل مني على مزيد من المال. كان عليَّ أن أكون حذراً من الآن فصاعداً.

وصلت برقيتها الثالثة ليل الأحد، رسالة من النوع نفسه، هذه المرة من بيكرشسفيلد. تشبثت بقراري ساعتين، ثم تصورتها تتجول هنا وهناك، مفلسة، وربما عالقة في المطر. أرسلت إليها خمسة عشر دولار مع رسالة لتشتري بعض الملابس كي تحمي نفسها من المطر.

twitter @baghdad_library

الفصل الثامن عشر

بعـد ثلاث ليال، عـدت من جولتـي إلى البيت لأجد باب الفنـدق مقفلاً من الداخـل. عرفـت الهـدف من ذلـك. طرقـت لكن لم أحـظَ بجـواب، ناديت باسـمها، هرعـتُ مـن الصالـة إلى الباب الخلفـي وصعدت منحـدر التلة إلى مستوى نافـذتي، أردت أن أمسـكها متلبسـة. كانت النافذة مسـدلة وكذلك السـتارة من الداخل، نظرت إلى الداخل من فرجة في السـتارة، كانت الغرفة مضـاءة بمصبـاح المكتب ورأيـت كل شيء، لكنها لم تكـن في أي مكان، كان بـاب الخزانة مقفـلاً، وعرفت أنها في داخلها. رفعت النافـذة، دفعت الزجاج بهدوء وانزلقت إلى الداخل. لم تكن حصيرتا السرير على الأرض، مشيت على أطراف أصابعي نحو باب الخزانة. سمعتها تتحرك في داخلها كما لو أنها تجلس على الأرض، التقطت على نحو خافت ما يشبه مكعباً له رائحة الماريجوانا.

أمسـكت مقبض باب الخزانة، وفجأة شـعرت بعدم الرغبة في إمسـاكها. قد يكـون للصدمة أثر سـيئ على كلينـا، ثم تذكرت أمراً حصـل لي في طفولتي. كانـت خزانـة مثـل تلـك، فتحتها أمي فجـأة. تذكـرت ذلك الرعـب الذي اعتراني عندما اكتشـفتني، مشيت على رؤوس أصابعي وجلست على كرسي مكتبـي. بعد خمس دقائق لم أسـتطع البقاء في الغرفـة، لم أرغب في أن تعرف، زحفـت مـن النافـذة، أغلقتها، وعـدت إلى الباب الخلفي للفنـدق. التقطت أنفاسي. عندما شـعرت أنها قد انتهت، مشيت برشاقة محدثاً ضجة نحو باب غرفتي واقتحمتها.

استلقت على السرير، تخفي عينيها بيد نحيلة، قلت لها: "كاميلا! أنت هنا!"، نهضتْ ونظرت إليّ بعينين سوداوين هاذيتين، سوداء وطائشة وفي حلم، امتد عنقها مخبئاً الأوتار الناتئة من حنجرتها. لم تنبس بكلمة، لكن الشـحوب عمَّ وجهها، الأسـنان الكبيرة الشـديدة البياض، الابتسامة المروعة، هؤلاء جميعاً

تكلموا جهاراً عن الرعب الذي غلف أيامها ولياليها. ضغطت على فكي كي لا أبكي. وأنا أتقدم نحو السرير، سحبتْ ركبتيها نحو الأعلى لترقد منحنية خائفة، كما لو أنها تخشى أن أضربها، قلت لها: " هوني عليك، ستكونين بخير. تبدين رائعة."
قالت:" شكراً على النقود"، وكان الصوت العميق نفسه، ولو أن فيه خنة.
اشترت ثياباً جديدة، رخيصة وزاهية: فستان من حرير مقلد أصفر زاه وحزام مخملي أسود، حذاء أصفر وأزرق وجوارب طويلة بحواف ملونة بالأخضر والأحمر. أظافرها مطلية تلمع بالأحمر الدموي، وحول رسغيها خرزات خضراء وصفراء. كل هذا كان أمام وجهها الأصفر الرمادي الشاحب وعنقها. لطالما كانت تبدو في أحسن أحوالها بردائها الأبيض الدخاني الذي ترتديه في العمل. لم أسأل سؤالاً، فكل شيء رغبت في معرفته كان مكتوباً في جمل معذبة في كآبة وجهها. لم تبد لي مختلة، بل خائفة، خوف رهيب يصرخ من عينيها الكبيرتين الجائعتين، المتنبهتين الآن من المخدر.
لم تستطع البقاء في لوس أنجلس. كانت بحاجة إلى الراحة، وإلى مكان لتأكل وتنام، ولتشرب الكثير من الحليب وتمشي طويلاً. وفجأة كنت زاخراً بالخطط. شاطئ لاجونا! ذلك هو المكان المناسب لها. كان الفصل شتاء في ذلك الوقت، بإمكاننا أن نجد منزلاً رخيصاً، وبإمكاني أن أعتني بها وأبدأ بتأليف كتاب آخر. كان لدي فكرة كتاب جديد. ليس من الضروري أن نتزوج، أخ وأخت كان يناسبني، بإمكاننا الذهاب للسباحة والتنزه طويلاً على امتداد شاطئ بالبوا، بإمكاننا أن نجلس قرب النار عندما يكون الضباب كثيفاً، وأن ننام تحت أغطية سميكة عندما تهدر ريح البحر. تلك كانت الفكرة الأساسية، لكنني استرسلت، سكبتها في أذنيها ككلمات من كتاب أحلام، أشرق وجهها، وبكت.
قلت:" وكلب! سأشتري لك كلباً صغيراً. جرواً صغيراً. أسكتلندي، وسنسميه ويلي."

twitter @baghdad_library

صفقت بيديها، وقالت:" أوه ويلي! هنا ويلي! هنا ويلي!"
قلت:" وقط، قط سيامي. سنسميه تشانج، قط كبير بعينين ذهبيتين."
ارتجفت وغطت وجهها بيديها، قالت:" لا، أكره القطط."
" حسناً، لا نريد قططاً، أنا أكرههم أيضاً."
كانت تحلم بكل ذلك، ترسم صورة بفرشاتها، البهجة كأس كبيرة في عينيها، قالت: "حصان أيضاً، بعد أن تكسب الكثير من المال سنشتري لنا حصاناً."
قلت:" سأكسب الملايين"
خلعت ملابسي وأويت إلى السرير. نامت نوماً متقطعاً، تنتفض مستيقظة فجأة وتتأوه وتغمغم في نومها. نهضت مرة أثناء الليل، أشعلت المصباح، ودخنت سيجارة. استلقيت بعينين مغمضتين أحاول أن أنام. وسرعان ما نهضتْ، لفت برنسي حولها، تناولت حقيبتها عن المكتب. كانت حقيبة بيضاء من قماش زيتي، منتفخة بالحاجيات. سمعتها تجر قدميها وتعبر من الصالة إلى الحمام منتعلة خُفَّي. استمر غيابها عشر دقائق. عندما عادت لفها الهدوء، ظنت أنني نائم، قبلتني على صدغي. شممت رائحة الماريجوانا. نامت بقية الليل نوماً ثقيلاً يغمر وجهها السلام.
خرجنا في الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي عبر النافذة ونزلنا التلة إلى الجهة الخلفية للفندق، حيث كنت قد ركنت سيارتي الفورد. كانت بائسة، وجهها ساهد ومرير. انطلقت عبر البلدة ماراً بكرينشو، ومن هناك إلى جادة لونج بيتش. جلست متجهمة، رأسها خفيض، سرحت ريح الصباح الباردة شعرها. في مايوود توقفنا عند مقهى على جانب الطريق لتناول الفطور. تناولت البيض والسجق، عصير فواكه وقهوة. رفضت أي شيء ماعدا القهوة السوداء. أشعلت بعد أول جرعة سيجارة. كنت أود أن أتفحص حقيبتها، لأنني أعرف أنها تحتوي على الماريجوانا، لكنها تشبثت بها كما لو أنها الحياة. شربنا فنجاناً آخر من القهوة، ثم انطلقنا. شعرت بتحسن، لكن مزاجها كان مايزال كئيباً. لم أتحدث.

بعد مسافة ميلين خارج لونج بيتش وصلنا إلى مزرعة للكلاب. دخلتها وترجلنا. كنا في باحة من النخيل وأشجار الأوكاليبتوس. تهاجمنا مجموعات الكلاب من كل مكان وتنبح بفرح. أحبتها الكلاب، شعرت في الحال بمودتها، وابتسمت للمرة الأولى. كانت كلاب حراسة وكلاب شرطة وكلاب صيد. جثت على ركبتيها لتعانقهم، واجتاحوها بنباحهم وألسنتهم الكبيرة الزهرية. أخذت كلب صيد صغيراً بين ذراعيها وهدهدته كالرضيع، تدندن بمحبتها. أشرق وجهها من جديد متورداً كما كان في السابق، ظهر مالك الكلاب من شرفته الخلفية. كان رجلاً مسناً بلحية قصيرة بيضاء، ترنح ممسكاً بعصا. لم تكترث الكلاب بي إلا قليلاً. تسلقت، تشممت حذائي وساقي، وابتعدت بحدة وبازدراء ملحوظ. لم يكرهوني، لكنهم فضلوا عاطفة كاميلا المغدقة وحديثها الغريب مع الكلاب. قلت للرجل المسن إننا نرغب في شراء جرو من نوع ما، وسألنا عن النوع. كان الأمر يعود إلى كاميلا، لكنها لم تستطع أن تقرر. رأينا عدة أجناس، كانت جميعها طفولية الملمس، بكرات صغيرة من الفرو لا تقاوم طراوتها. أخيراً، وصلنا إلى الكلب الذي أرادته: كان نقي البياض من نوع كولي[1]. لم يكن عمره يتجاوز ستة أسابيع، سميناً جداً وبالكاد يستطيع أن يمشي. وضعته كاميلا على الأرض، ترنح بين ساقيها، مشى بضع أقدام، جلس، وغط في النوم من فوره. أكثر من أي كلب آخر، أرادت ذلك الجرو.

تراجعت عندما قال الرجل: » خمسة وعشرين دولاراً«، لكننا أخذنا الجرو برفقتنا مع وثائقه، تتبعنا أمه البيضاء النقية إلى السيارة، تنبح كما لو أنها تقول لنا أن نعتني جيداً بتربيته. ونحن نبتعد نظرت من فوق كتفي. كانت الأم البيضاء تجلس على الطريق، أذناها الجميلتان نشطتان، يتبختر رأسها على الجانبين، تراقبنا ونحن نتوارى في الطريق السريع.

قلت:» ويلي، اسمه ويلي.«

(1) كلب حراسة.

twitter @baghdad_library

تمدد الكلب في حجرها، يئن، قالت:» لا، اسمه بياض الثلج.»
« هذا اسم لفتاة»
« لا يهمني.»
أوقفت السيارة على جانب الطريق، وقلت:» أنا أهتم، إما أن تغيري اسمه أو أعيده.»
وافقت:» حسناً، اسمه ويلي.»
شعرت بتحسن. لم نتشاجر بسببه. كان ويلي يساعدها سلفاً. صارت مطيعة إلى حد كبير، جاهزة لتحمل المسؤولية. زال اضطرابها، ارتخت شفتاها برقة. بدا ويلي نائماً في حجرها، يمص إصبعه الصغير. توقفنا جنوب لونج بيتش عند صيدلية واشترينا رضاعة وزجاجة حليب. فتح ويلي عينيه عندما وضعت الحلمة في فمه. انغمس في مهمته مثل جني. رفعت كاميلا ذراعيها عالياً، ومررت أصابعها في شعرها، وتثاءبت بمتعة. كانت سعيدة جداً. جنوباً على الدوام، نتبع الخط الأبيض الجميل. قدت السيارة ببطء. يوم رؤوم، السماء كالبحر، البحر كالسماء. التلال الذهبية إلى اليسار، ذهبُ الشتاء. يوم للصمت والإعجاب بالأشجار الوحيدة، كثبان الرمل، الرؤوس البحرية من صخور بيضاء على طول الطريق. أرض كاميلا، بيت كاميلا، البحر والصحراء، الأرض الجميلة، السماء الهائلة، وبعيداً في الشمال كان قمر الليلة السابقة.
وصلنا إلى لاجونا قبل الظهر. استغرقني الوصول ساعتين، أركض جيئة وذهاباً بين المكاتب العقارية ومعاينة المنازل حتى أجد المنزل الذي نريده. أي شيء يناسب كاميلا. استحوذ ويلي الآن عليها تماماً. لم يكن يهمها المكان، طالما أنه لديها. كان المنزل الذي أعجبني قمتين مثلثتي الشكل، بسياج أبيض خشبي حوله، لا يبعد سوى خمسين ياردة عن الشاطئ. كانت الباحة الخلفية سريراً من رمل أبيض، مفروشاً بالكثير من الستائر اللامعة وضع آلتي الكاتبة إلى النافذة، والعمل. آه يا رجل، يمكنني أن أنجز الكثير من العمل

إلى تلك النافذة. أن أنظر من خلف تلك النافذة وسيأتي، شعرت بالقلق من مجرد النظر إلى تلك الغرفة، ورأيت الجملة تلو الجملة تسير عبر الصفحة.

عندما نزلت إلى الطابق السفلي، كانت كاميلا قد أخذت ويلي في نزهة طويلة على الشاطئ. وقفت في الباب الخلفي، أراقبهما على بعد ربع ميل. رأيت كاميلا تنحني وتصفق بيديها، ثم تركض مع ويلي الذي يتعثر خلفها. لكنني لم أستطع أن أرى ويلي، كان صغيراً جداً وقد امتزج تماماً مع الرمل الأبيض، دخلت.

كانت حقيبة كاميلا على طاولة المطبخ. فتحتها، أفرغت محتوياتها على الطاولة. سقطت علبتان من ماريجوانا الأمير ألبرت. أفرغتهما في المرحاض، ورميت العلبتين في سلة النفايات، ثم خرجت وجلست على درجات الشرفة في الشمس الدافئة، أراقب كاميلا والكلب وهما عائدان إلى المنزل. كان الساعة تقارب الثانية. وينبغي لي أن أعود إلى لوس أنجلس لأحزم حاجياتي، وأدفع أجرة الفندق. سيستغرق الأمر خمس ساعات. أعطيت كاميلا النقود لتبتاع الطعام وأمور المنزل التي نحتاجها. عندما غادرت كانت تستلقي على ظهرها، وجهها للشمس. وكان ويلي يلف نفسه على معدتها، يبدو نائماً. صحت قائلاً وداعاً، أدرت السيارة، وتأرجحت في الطريق السريع الساحلي الرئيسي.

في طريق العودة، أفرغت حمولتي من آلة كاتبة، الكتب، والحقائب، كان أحد الإطارات منخفضاً. حلت الظلمة بسرعة. وصلت حوالي التاسعة إلى باحة منزل الشاطئ. كانت الأضواء مطفأة. فتحت الباب الأمامي بمفتاحي وصحت باسمها. لم يجب أحد، أضأت المصابيح وبحثت في كل الغرف، في كل خزانة. كانت قد رحلت. لم يكن هناك ما يدل على وجودها، أو وجود ويلي. أفرغت حاجياتي. ربما أخذت الكلب في نزهة أخرى. لكني كنت أخدع نفسي. رحلت. بحلول منتصف الليل ظننت أنها ستعود، وفي الساعة الواحدة كنت مقتنعاً بأنها لن تفعل. بحثت عن ملاحظة، رسالة، لم يكن هناك من أثر. كان كما لو أن قدميها لم تطأا أرض المنزل.

قررت أن أبقى. كان الإيجار مدفوعاً عن شهر مقدماً، وأردت أن أجرب

twitter @baghdad_library

الغرفة في الأعلى. قضيت الليل فيها، لكن في صباح اليوم التالي بدأت أكره المكان. معها كان جزءاً من حلم ودونها كان منزلاً فحسب.

حزمت حاجياتي في المقعد الخلفي وعدت إلى لوس أنجلس. عندما وصلت إلى الفندق، كان شخص ما قد أخذ غرفتي القديمة أثناء الليل. كان كل شيء منحرفاً الآن. أخذت غرفة أخرى في الطابق الرئيس، لكنني لم أحبها. كل شيء يوشك على التحطم. كانت الغرفة الجديدة غريبة جداً، باردة جداً، دون ذكريات. عندما نظرت من النافذة كانت الأرض على بعد عشرين قدماً. لم يعد هناك تسلق من النافذة، لم يعد هناك حصى على الزجاج. وضعت آلتي الكاتبة في زاوية من ثم في أخرى. لم يبد أن أي مكان يلائمها. كان شيء ما يسير على نحو خاطئ، كل شيء كان خاطئاً.

ذهبت في نزهة في الشوارع. يا إلهي! ها أنا هنا ثانية، أجوب البلدة. نظرت في الوجوه من حولي وعرفت أن وجهي مثل وجوههم. وجوه بدم نازف، وجوه صارمة، قلقة، ضائعة. وجوه كالزهور المقتلعة من جذورها وموضوعة في مزهرية جميلة، الألوان تشحب سريعاً. كان عليَّ أن أبتعد عن تلك المنطقة.

الفصل التاسع عشر

بعد أسبوع صدر كتابي، كان الأمر مسلياً فترة. كنت أدخل المتاجر الكبرى وأراه بين آلاف الكتب الأخرى، كتابي، كلماتي، اسمي، سبب بقائي على قيد الحياة. لكنها لم تكن شبيهة بالتسلية التي حظيت بها لدى نشر قصة " ضحك الجرو" في مجلة هاكموث.

كل ذلك أصبح أيضاً من الماضي. وما من خبر عن كاميلا، ما من برقية. كنت قد تركت لها خمسة عشر دولاراً. عرفت أنها لا يمكن أن تكفيها لأكثر من عشرة أيام. شعرت بأنها ستبرق لي حالما تفلس. كاميلا وويلي، ما الذي حصل لهما؟

عندما عدت إلى البيت بعد الظهر وجدت في صندوق بريدي بطاقة بريدية من سامي تقول:

عزيزي السيد بانديني:

تلك الفتاة المكسيكية هنا، وأنت تعرف كيف أشعر عندما تحيط بي النساء. إذا كانت فتاتك من الأفضل أن تأتي وتأخذها، لأنني لا أريدها أن تتسكع هنا.

سامي

كانت البطاقة البريدية مؤرخة منذ يومين سابقين. ملأت خزان الوقود بالبنزين، ألقيت نسخة من كتابي في المقعد الأمامي، وانطلقت إلى مكان إقامة سامي في صحراء موهافي. وصلت بعد منتصف الليل. كان هناك ضوء يشع من نافذة كوخه الوحيدة. طرقت وفتح الباب. قبل أن أتكلم، تلفتُّ هنا وهناك. اتجه سامي إلى كرسي بجانب مصباح الكيروسين، تناول مجلة ويسترن رخيصة وبدأ يقرأ. لم يتكلم، لم يكن هناك ما يشير إلى وجود كاميلا.

" أين هي؟" قلت.

" عليَّ اللعنة إذا كنت أعرف. لقد غادرت."

twitter @baghdad_library

" تقصد أنك طردتها."
" لا يمكنني أن أبقيها هنا. أنا رجل مريض."
"إلى أين ذهبت؟"
هز إبهامه باتجاه الجنوب الشرقي.
" في ذلك الاتجاه، في مكان ما."
" هل تعني هنا في الصحراء؟"
هز رأسه، وقال:" مع الجرو، كلب صغير، ظريف كالجحيم."
" متى غادرت؟"
قال:" الأحد ليلاً"
"الأحد! يا يسوع المسيح، يا رجل! هذا منذ ثلاثة أيام! هل لديها شيء تأكله؟ أي شيء للشرب."
"حليب، معها زجاجة حليب من أجل الكلب."
خرجت إلى الجهة الخلفية من الفناء المحيط بكوخه ونظرت نحو الجنوب الشرقي. كان الجو شديد البرودة والقمر منير، العناقيد النجمية مزدهرة في قبة السماء الزرقاء. تمتد قفار من أشجار يوشع[1] الداكنة المتناثرة غرباً وجنوباً وشرقاً، وتلال شحيحة. هرعت عائداً إلى الكوخ.
قلت:" تعال وأرني في أي اتجاه ذهبت"
وضع مجلته وأشار إلى الجنوب الشرقي قائلاً:" في ذلك الاتجاه"
انتزعت المجلة من بين يديه، أمسكت به من عنقه ودفعته إلى الظلمة في الخارج. كان نحيلاً وخفيفاً. تعثر قبل أن يستعيد توازنه، قلت له:" أرني"، ذهبنا إلى طرف الفناء، وتمتم كلاماً عن كونه رجلاً مريضاً، وأنه ليس من حقي أن أدفعه. وقف هناك يسوي قميصه ويشد حزامه. خاطبته:" أرني أين كانت عندما رأيتها آخر مرة"، قال وهو يشير: " كانت تصعد تلك الربوة." تركته واقفاً هناك ومشيت مسافة ربع ميل نحو قمة الربوة. كان الجو شديد

(1) اليكَّة، نبات من الفصيلة الزنبقية على هيئة شجيرات صغيرة.

البرودة فغطيت عنقي بمعطفي. تحت أقدامي كانت الأرض تخضُّ رملاً داكناً جافاً وأحجاراً صغيرة، حوض بحر من عصور ما قبل التاريخ. وخلف الربوة ظهرت رُبا أخرى مشابهة، مئات منها تمتد إلى ما لا نهاية. لم تظهر آثار أقدام على الأرض الرملية، كما لو أن أحداً لم يطأها من قبل. واصلت السير، أعافر في التربة الزهيدة التي غطتها قليلاً ثم اكتست بفتات من رمل رمادي. بعد أن قطعت مسافة ميلين كما بدا لي، جلست على حجر مكور أبيض واسترحت. كنت أتعرق رغم برودة الجو القاسية. كان القمر ينحدر شمالاً. لابد أن الساعة كانت الثالثة. كنت مواظباً على المشي أتجول ببطء، مازالت الربا والهضاب متواصلة، تمتد بعيداً دون نهاية، وليس سوى الصبار والميرمية ونباتات قبيحة الشكل لم أستطع تمييزها في الأفق المظلم.

تذكرت خرائط طرق المقاطعة. لم يكن هناك طرق أو بلدات، ما من حياة بشرية من هنا حتى الجانب الآخر من الصحراء، لا شيء سوى بيداء على مدى ما يقارب مئات الأميال. نهضت وواصلت السير. أصابني البرد بالخدر، ومع ذلك تصببت عرقاً. انجلى الشرق الرمادي متحولاً إلى اللون الوردي، فالأحمر، وصعدت كرة نارية هائلة من التلال المظلمة.

عبر القفار تربض لا مبالاة فائقة، عدم الاهتمام بين ليل ونهار آخر، وكذلك الألفة السرية لتلك التلال، أعجوبة مواساتهم الصامتة، تجعل من الموت أمراً ليس ذي شأن. يمكن أن تموت، لكن الصحراء قد تخفي سرَّ موتك، قد تبقى من بعدك أيضاً، لتغطي ذكراك بريح وحر وبرد سرمديين.

لم يكن مجدياً. كيف يمكن لي أن أبحث عنها؟ لم عليَّ أن أبحث عنها؟ ماذا يمكن أن أجلب لها سوى العودة إلى البراري القاسية التي كسرتها؟ عدت حزيناً في الفجر. التلال تملكها الآن. دع تلك التلال تخفيها! دعها تعود إلى وحشة التلال الأليفة. دعها تعيش مع الحجارة والسماء، مع الريح تهبُّ في شعرها حتى النهاية. دعها تذهب في ذلك الطريق.

كانت الشمس عالية عندما عدت إلى الفناء. كان الجو حاراً في ذلك الوقت،

twitter @baghdad_library

وسامي واقف في عتبة كوخه، سألني:» وجدتها؟»
لم أجبه. كنت تعباً. راقبني للحظة، ومن ثم توارى داخل الكوخ. سمعت صوت إقفال الباب. في البعيد عبر صحراء موهافي تعالى وهج الحرارة. سلكت طريقي صاعداً الدرب نحو سيارة الفورد. كانت نسخة كتابي في المقعد، كتابي الأول. وجدت قلماً، فتحت الكتاب على الصفحة الفارغة في بدايته، وكتبت:

إلى كاميلا، مع الحب

آرتورو

حملت الكتاب مسافة مئة ياردة في الأرض القفر نحو الجنوب الشرقي. ورميته بكل عزم بعيداً في الاتجاه الذي سلكته، ثم ركبت السيارة، أقلعت المحرك، وانطلقت عائداً إلى لوس أنجلس.

twitter @baghdad_library

جون فانتي

- روائي أمريكي، كاتب قصة قصيرة، وكاتب سيناريو من أصول إيطالية.
- ولـد فانتي عـام 1909 في دنفـر، كولـورادو، والـده نيكـولا فانتـي من توريشيللا بيلينيا، (ابروزو)، كان يعمل بناءً، سكيراً ومقامراً.
- ولدت أمه ماري كابولونيو، في شيكاجو وهي أيضاً من أصول إيطالية.
- ارتـاد العديد مـن المدارس الكاثوليكية في بولدر، كولورادو قبل أن يدخل جامعة كولورادو لوقت قصير.
- انتقـل في العـام 1932 إلى جنـوب كاليفورنيـا ليتفرغ للكتابـة ونشر ه.ل. منكن واحدة من قصصه في مجلته «ميركوري الأمريكي».
- تزوج في عام 1937 من جويس سمارت التي أنجبت له أربعة أطفال.
- نشر عام 1938 أولى رواياته « انتظر الربيع يا باندينى «.
- أصيب عام 1955 بمرض السكري وفقد بصره وتم بتر ساقيه إثر إصابتها بالغرغرينا.
- سافر عام 1957 إلى إيطاليا ليعمل هناك ككاتب سيناريو لصالح دينو دي لورينتيس.
- توفي عام 1983 عن عمر ناهز 74 عاماً.

twitter @baghdad_library

فهرس المحتويات

الفصل الأول	11
الفصل الثاني	19
الفصل الثالث	30
الفصل الرابع	38
الفصل الخامس	44
الفصل السادس	50
الفصل السابع	53
الفصل الثامن	62
الفصل التاسع	66
الفصل العاشر	77
الفصل الحادي عشر	85
الفصل الثاني عشر	99

الفصل الثالث عشر 110

الفصل الرابع عشر 122

الفصل الخامس عشر 131

الفصل السادس عشر 139

الفصل السابع عشر 156

الفصل الثامن عشر 167

الفصل التاسع عشر 174

جون فانتي 179

twitter @baghdad_library

اسأل الغبار

في أحد الأيام سحبت كتاباً وفتحته، وقفت لحظة أقرأ ثم حملته واتجهت به إلى الطاولة كمن يجد ذهباً في مكبّ نفايات المدينة. تدحرجت السطور بيسر عبر الصفحة متدفقةٍ متتابعةٍ وطاقة كل منها لا تقل عن طاقة الآخر، منح تركيب كل سطر منها الصفحة شكلاً وشعوراً بشيء منحوت فيها. ها هنا أخيراً رجل لم يخشَ من العواطف، الألم والفكاهة متمازجان ببساطة رائعة، أما افتتاحيته فكانت معجزة هائلة ووحشية بالنسبة إليّ.
كان لدي بطاقة مكتبة، أخذت الكتاب معي، في غرفتي صعدت إلى سريري وقرأته، أدركت قبل إنهائه بوقت طويل أن لهذا الرجل طريقة متميزة في الكتابة. كان اسم الكتاب "اسأل الغبار" للكاتب "جون فانتي". استمر تأثيره في كتاباتي مدى الحياة. انتهيت من قراءة "اسأل الغبار" وبحثت عن كتب أخرى لفانتي في المكتبة، وجدت اثنين: "داجو الأحمر" و"انتظر حتى يأتي الربيع يا بانديني". كان لهما الأسلوب نفسه، فهما مكتوبان عن ومن الصميم والقلب.

بعد تسعة وثلاثين عاماً أعيد قراءة اسأل الغبار، أقصد أنني أعدت قراءتها هذه السنة وما تزال صامدة، كما هي أعمال فانتي الأخرى، لكن هذه الرواية هي المفضلة لدي، لأنها كانت اكتشافي الأول للسحر.

تشارلز بوكوفسكي

مكتبة بغداد
twitter@baghdad_library

ISBN 978-9938-833-44-7
9 789938 833447 >

Cover Painting by Jack Vettriano
Design by Mahdi Abdu

@darathar
#اسأل_الغبار